مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

المنتقى من عصمة الأنبياء

نور الدين أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني
(ت ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م)

تحقيق
أ. د. محمد بولوط

دار ابن حزم

المُنتقى مِن عِصْمة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

المُنتقى مِن عِصْمَةِ الأنبياءُ

نُورُ الدِّين أحمد بن محمُود بنِ أبي بكر الصَّابُوني
(ت ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م)

دار ابن حزم

فهرس محتويات الكتاب

الرموز المستعملة

ص : الصفحة.

ت: توفي.

و: وجه الورقة من المخطوطة.

ظ: ظهر الورقة من المخطوطة.

+: إشارة إلى الكلمة أو العبارة الزائدة في النسخة.

ـ : إشارة إلى الكلمة أو العبارة الناقصة في النسخة.

[...]: ما وضع بين القوسين المعقوفين هو ما أضفته إلى المتن ولم يكن منه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

مقدمة التحقيق

الحمد لله ربّ العالمين المنعوت بصفات الكمال والمنزه عن كل نقص وزوال. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أشرف الأعمال وأحسنها الاشتغال بالعلم ثم العبادة بمقتضاه. وأفضل العلوم ما يذوق الإنسان به لذة الإيمان وحلاوته وما يصل به إلى الصلاح في الدنيا والنجاح في الآخرة. ألا وهو علم دين الحق دين الإسلام المبين. واعلم أن أهمّ علوم الدين قدراً وأجلها نفعاً هي علوم العقيدة والتفسير والحديث والفقه. ونرى بين هذه العلوم الدينية ارتباطاً وثيقاً حيث لا يمكن فصل بعضها عن بعض، لأن دراسة كل منها وسيلة إلى سعادة البشر. ولا شكّ في أن الإنسان يحتاج كل الاحتياج إلى النجاة في الدنيا والآخرة، ولا نجاة إلا بالإيمان الصحيح القوي. وإذا كان الأمر كذلك فمِن السهل جدًّا أن نفهم لزوم دراسة علم العقيدة وتعليم محتواه.

وموضوع هذا العلم الجليلِ قدره والعظيم شأنُه هو تعليم الأركان التي يعتمد عليها الإيمان. وغرضه الأَصيل هو الدفاَع عن تلك الأركان والتحفظ عليها. أما أركان الإيمان فهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. لأن الإنسان لا يكون مؤمناً ما لم يؤمن بما تقدّم ذكره. وقد اتّضح إذًا من هذا كله أن على المؤمنين أن يُصغوا إلى دعوة الأنبياء وما بلّغوه من الله ﷻ، وأن يتتبّعوها جيداً ثم أن يعملوا بمقتضاها.

أما الأنبياء فهم العظماء الأجلّاء الذين اختارهم الله ﷻ من بين سائر عباده، وكلّفهم بالرسالة. ويقتضي العقل والحكمة أن يكون هؤلاء على صفات خاصّة بهم غير شبيهة بما في غيرهم من البشر من حيث العقل والخُلُق والذكاء والعصمة والصدق والأمانةُ وإلى غير ذلك من الصفات العالية.

ومن أهمّ الكتب المؤلّفة في عصمة الأنبياء عليهم السلام هو كتاب **المنتقى من عصمة الأنبياء** تأليف الإمام نور الدين أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني رحمه الله تعالى والذي يسّر الله تعالى لنا بدراستنا هذه تحقيقه تحقيقا علميًا ووضعه بين أيدي أهل العلم.

وإنّني سعيد بتقديم هذا الكتاب القيم إلى الباحثين والدارسين وأقدّم الشكر الجزيل بهذه المناسبة الطيّبة لأستاذي الأستاذ الدكتور بكر طوبال أوغلي حيث أرشدني إلى تحقيق هذا الكتاب القيم الذي كان قد أُهْمِل مع غيره الكثير من المخطوطات التي تنتظر عناية الباحثين في المكتبات.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يُوَفِّقنا في اتباع طريق الأنبياء على الصراط المستقيم، آمين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ترجمة المؤلف

لا نكاد نعرف شيئاً من المصادر التي تُترجِم لحياة الإمام نور الدين الصابوني سوى اسمه وتاريخ وفاته وأنه صنّف كتاب **الكفاية**، وكتاب **البداية في أصول الدين**، وكتاب **المنتقى من عصمة الأنبياء**.

وهو أحد علماء الحنفية الأعلام ببخارى، اسمُه أحمد بن محمود بن أبي بكر ونسبته الصابوني، وكنيته أبو محمد، الملقّب بنور الدين.

ونعرف من كتاب **مناظرات فخر الدين الرازي في بلاد ما وراء النهر** مع الأحناف الماتريدية أن نور الدين الصابوني تفقه في أصول الدين على **تبصرة الأدلّة** لأبي المعين النسفي (ت ٥٠٨هـ/١١١٥م) وأن الصابوني كان يزعم ـ على حدّ تعبير الرازي (ت ٦٠٦هـ/١٠١٢م) ـ أنه متكلم القوم وأصوليهم، وقد ناظر فخر الدين الرازي في ثلاث مسائل من أهمّ المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الماتريدية والأشعرية في أصول الدين، وهي «مسألة الرؤية» و«مسألة التكوين والمكون» و«مسألة البقاء».[1]

وقال أبو الحسنات اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م) في **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**: بين نور الدين الصابوني وبين الشيخ رشيد الدين مناظرة في مسألة «المعدوم ليس بمرئي»، وهي مناظرة طويلة مفيدة، ذكرها حافظ

---

١ مناظرات فخر الدين الرازي في بلاد ما وراء النهر لفخر الدين الرازي، ص ١٤ ـ ٢٠، ٢٢ ـ ٢٤.

الدين النسفي (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) في **الاعتماد**.[١] ويتبيّن من المناظرات التي جرت باللغة الفارسية بين الصابوني ورشيد الدين، أن الصابوني كان على علم باللغة الفارسية.[٢]

فإذا كان اسم الصابوني هو الاسم الوحيد الذي يتردّد في مناظرات الرازي مع علماء ما وراء النهر في مسائل أصول الدين، وإذا كانت معظم مناظرات الرازي الكلامية قد جرت مع الصابوني، فلا شكّ أن كل ذلك يدلّ على مكانة الصابوني في أصول الدين، وأنه من أشهر علماء عصره في بلاد ما وراء النهر.[٣]

وتفقّه على الصابوني شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردري (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م).[٤]

وتوفّي نور الدين الصابوني وقت صلاة المغرب في ليلة الثلاثاء سادس عشر صفر سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ودفن بمقبرة القضاة السبعة ببخارى.[٥]

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ الاعتماد في الاعتقاد لحافظ الدين النسفي الورقة ٣٥و ـ ٣٧و؛ والفوائد البهية للكنوي، ص ٤٢.

٢ مقدمة البداية للصابوني، لبكر طوبال أوغلي، ص ٩.

٣ مقدمة البداية للصابوني، للدكتور فتح الله خليف، ص ١٠.

٤ الجواهر المضية للقرشي ١٢٤/١؛ وتاج التراجم لابن قطلوبغا، ص ١٠؛ والفوائد البهية للكنوي، ص ٤٢، ١٧٦.

٥ انظر لترجمة الصابوني وآثاره: الجواهر المضية للقرشي، ١٢٤/١؛ وتاج التراجم لابن قطلوبغا، ص ١٠؛ وكشف الظنون لكاتب جلبي، ١٤٩٩/٢، ٢٠٤٠؛ والفوائد البهية للكنوي، ص ٤٢؛ وإيضاح المكنون للبغدادي، ٣٧١/٢؛ وهدية العارفين له ٨٧/١؛ ومعجم المؤلفين لكحالة، ١٧١/٢؛ ومقدمة البداية للصابوني، لبكر طوبال أوغلي، ص ٩؛ ومقدمة البداية للصابوني، لفتح الله خليف، ص ٧ ـ ١٣.

مؤلفات الصابوني

لا نعلم من مؤلفات الصابوني إلا ثلاثة كتب، وهي كتاب **الكفاية في الهداية** في أصول الدين، وكتاب **البداية**، وكتاب **المنتقى من عصمة الأنبياء**.

١ ـ الكفاية في الهداية

ألف الصابوني هذا الكتاب أولاً في أصول الدين موافقاً لآراء الماتريدية، ثم اختصره في كتاب آخر يبلغ حجمه ربع حجم **الكفاية** ويتضمّن نفس الأبحاث وسمّي هذا المختصر **بالبداية في أصول الدين**. إلا أن المسائل التي تضمّنها الكتابان أكثر تفصيلاً ووضوحاً في كتاب **الكفاية** منها في كتاب **البداية**.[١]

وقال الصابوني في مقدمة كتاب **البداية**: لما تيسر الفراغ ـ بحمد الله ومنّه ـ من كتاب **الكفاية في الهداية** التمس منّي بعض الأصحاب أن أختصر منه ما هو العمدة في الباب، ليكون أَوجَز في اللفظ وأسهل للحفظ. فاستخرتُ الله في ذلك واستعنته عليه واستعصمته عن الزلَل والخلَل في القول والعمل.[٢]

---

١ مقدمة البداية للصابوني، لبكر طوبال أوغلي، ص ١١.

٢ البداية في أصول الدين، ص ١٦.

كتاب **الكفاية** هو كتاب في أصول الدين على مذهب الإمام أبي منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م)، شيخ أهل السنة والجماعة في بلاد ما وراء النهر ومؤسّس المذهب الماتريدي الذي ينتمي إليه الصابوني. فاسم الماتريدي يتردّد في كتبه في أكثر مِن موضع، كما يتردّد كثير من المصطلاحات التي استخدمها الماتريدي في **كتاب التوحيد**. ولا يختلف الصابوني عن الماتريدي في شيء من أصول المذهب، كما لا يختلف عنه في التقديم للمذهب بمقدمة في إمكان العلم وبحث في المعرفة وأسبابها.[1]

وتَتلمَذَ الصابوني على **تبصرة الأدلة** لأبي المعين النسفي (ت ٥٠٨هـ/١١١٤م) إلا أنه لم يتابع صاحب **التبصرة** في خصومته العنيفة لأهل السنة والجماعة من الأشاعرة، وكثيراً ما نقرأ في كتب الصابوني عبارة «أهل السنة» وعبارة «أهل الحق» ويراد بهما الأشاعرة والماتريدية. وكذلك لم يهمل الصابوني ذكر اسم الماتريدي في كتبه.[2]

وقد أخذ بعض العلماء نقولاً وعبارات بنصّها من مؤلفات الصابوني ضمّنوها كتبهم، كما فعل سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٣هـ/١٣٩٠م) في كتابه **شرح العقائد** وكمال الدين البياضي (ت ١٠٩٨هـ/١٦٨٧م) في مؤلفه **إشارات المرام**[3] والكمال بن أبي الشريف (ت ٦٩٠هـ/٥٠٠١م) في **المسامرة شرح المسايرة** لابن الهمام.

وتوجد مخطوطات كتاب **الكفاية** في مكتبات إستانبول، منها المخطوطة المقيدة برقم ٢٢٧١ بقسم لاله لي من مكتبة السليمانية، وتقع في ٩٣ ورقة في كل منها ٢١ سطراً. وأبعاد القسم المكتوب تبلغ (١٨٨×١٢٠مم). وهذه النسخة هي أكثر مخطوطات هذا الكتاب دقّة وصحّةً.

---

١ مقدمة البداية للصابوني، لفتح الله خليف، ص ١٥.

٢ المرجع السابق، ص ٢٤.

٣ مقدمة البداية للصابوني، لبكر طوبال أوغلي، ص ١٠.

وقد كتب هذه المخطوطة بخط النسخ عبد الله بن محمود بن يهوذا عام ٦٧٧ هجري. والثانية المخطوطة المقيدة تحت رقم ١٨١ بقسم عاشر أفندي من مكتبة السليمانية، والثالثة المخطوطة المقيدة تحت رقم ١٨٨٠ بمكتبة أحمد الثالث الكائنة بمكتبة طوب قابي سرايي، والرابعة تحت رقم ٣٤٧ في قسم قَرَه جَلَبي من مكتبة السليمانية كما توجد في مكتبات إستانبول الأخرى نسخ خطية لهذا الكتاب.[١]

٢ ـ البداية في أصول الدين

وهو أعظم مؤلَّفات الصابوني شهرة وأكثرها استنساخاً. وقد جاء ذكره في جميع كتب الطبقات حيث ينعت مؤلفوها الصابوني بصاحب **البداية**. ولما كان كتاب **البداية في أصول الدين** تلخيصاً لكتاب **الكفاية في الهداية** الذي ذكرناه آنفاً، لهذا يعرف بتلخيص **الكفاية** ومختصر **الهداية**. وتوجد نسخ كثيرة لكتاب **البداية** في مكتبات إستانبول.[٢]

وتكرّم الأستاذ الدكتور بكر طوبال أوغلي بتحقيق **البداية** ونقله إلى اللغة التركية، وقامت بنشره رئاسة الشؤون الدينية بالجمهورية التركية، وطبع في مدينة أنقرة بتركيا سنة ١٩٧٩م. وحقّقه أيضاً الدكتور فتح الله خليف وقامت بنشره دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩م.

٣ ـ المنتقى من عصمة الأنبياء

لا يذكر المؤرخون (كتاب) **المنتقى من عصمة الأنبياء** للصابوني مع أن نور الدين الصابوني ذكره في كتاب **الكفاية في الهداية** في فصل النبوة.[٣] ويخبر الصابوني في مقدمة كتاب **المنتقى** أنه ألّفه تلخيصاً لكتاب الشيخ أبي

---

١ مقدمة البداية للصابوني، لبكر طوبال أوغلي، ص ١١.
٢ المرجع السابق، ص ١١.
٣ مكتبة لاله لي، تحت رقم ٢٢٧١، ورقة ٤٥ ظ.

الحسين محمد بن يحيى البَشاغَري،[١] الموسوم **بكشف الغوامض في أحوال الأنبياء** وهو المشهور **بعصمة الأنبياء.**[٢]

وموضوع كتاب **المنتقى** هو رد ما نُسب من المعاصي والذنوب إلى الأنبياء عليهم السلام الذين ذُكروا في القرآن الكريم والتي لا تليق بعصمتهم ونفيُها عنهم، كما يشتمل هذا الكتاب على نوع من التفسير للآيات القرآنية التي نزلت في حق هؤلاء الأنبياء.

وقال الإمام نور الدين الصابوني في **المنتقى**: قال الشيخ أبو الحسين البشاغري: سمعتُ الشيخ أبا الحسن الرُستُغْفَنِي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: صنّف واحد في وقت الشيخ أبي منصور الماتريدي كتاباً وعَنْوَنَه **بكتاب معاصي الأنبياء** فقال الشيخ أبو منصور: إن هذا المصنف بقصده التصنيف كفر، لأن من رام تصنيف كتاب يتمنّى أن يجد من ذلك كثيراً ويتفقّده بحسن تصنيفه، ومن تمنّى وجود معصية من مؤمن خِيف عليه فكيف لمن يتكلّف وجود معصية من رسول حتى ينشرها. فأملى المصنف [البشاغري] رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتاب وسمّاه **عصمة الأنبياء.**[٣]

وذكر بعض المؤرّخين في كتبهم التي ألّفوها لتراجم الأعلام أن الشيخ أبا الحسين الرُسْتُفَغْنِي تُوُفي عام ٨٣٨هـ (١٤٣٤م).[٤] وهذا خطأ بيّن، لأن الصابوني اختصر كتابه **كشف الغوامض** وتُوُفّي الصابوني عام ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ومعنى هذا أن البشاغري مات قبل الصابوني. وذكرنا آنفاً قول الإمام الماتريدي في **كتاب معاصي الأنبياء** الذي سمعه الشيخ الإمام أبو

---

١ هو محمد بن يحيى البَشاغَري، فاضل، من آثاره: كشف الغوامض في أحوال الأنبياء. تُوفّي في القرن الرابع الهجري. انظر: معجم المؤلفين لكحالة، ١٢/١٠٠.

٢ مكتبة لاله لي، تحت رقم ٢٤٢٦، ورقة ١ظ.

٣ المنتقى، ورقة ٥و.

٤ إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي، ٢/٣٦٣؛ وهدية العارفين له ٢/١٨٩؛ والملحق لبروكلمان، ٢/٢٦٢؛ ومعجم المؤلفين لكحالة، ١٢/١٠٠.

الحسين البشاغري من الشيخ أبي الحسن علي بن سعيد الرُّسْتُفَغْنِي تُوُفِّي عام ٣٤٥هـ (٩٥٦م). ونفهم من هذا الكلام أن البشاغري معاصر الرُّسْتُفَغْنِي والبشاغري كان يعيش في القرن الرابع الهجري.

وقد حَصلتُ على ثلاث مخطوطات لكتاب **المنتقى** في المكتبات الموجودة في تركيا. أما الأولى التي سُمّيت **كشف الغوامض** المقيدة تحت رقم ٢٤٢٦ بقسم لاله لي من المكتبة السليمانية فهي نسخة تامة مصحَّحة وخالية عن الشوائب، وعلى هوامش بعض صفحاتها تقييدات، بعضها تصويبات وبعضها تعليقات من الناسخ. استنسخها بخط عربي محمود بن سليمان بن أبي بكر البَازِجِيلِغِي عام ٦٥٢ هجري. وتقع في ١٢٦ ورقة وفي كل صفحة من صفحاتها ١٦ سطرًا. وتشغل الكتابة (١٣٠×١٠٠مم) من مِساحة كل صفحة. وقد اخترت أرقام أوراقها عند الإشارة إلى أوراق المخطوطة في المتن الأصلي لتحقيقي.

وأما المخطوطة الثانية لكتاب **المنتقى** فهي توجد في نفس المكتبة (لاله لي) تحت رقم ٢٤٢٥. استُنْسِخت بخط النسخ عام ٦٥٣ هجري، ولا يعرف مستنسخها. وما بهذه المخطوطة من كتاب **المنتقى** لا يزيد على ١٧ ورقة تليها مباشرةً نصوص من كتاب **الكفاية** لنفس المؤلف. ولذا تعتبر هذه النسخة ناقصة نقصاناً فاحشاً. وكأن الصفحات الموجودة في أول الكتاب توافق سدس **المنتقى**.

وأما المخطوطة الثالثة فهي توجد في مكتبة مغنيسا تحت رقم ٦٥٨٤. وهي ليست مستقلة وإنما هي توجد ضمن مجموعة من المخطوطات الأخرى في مجلد واحد. ورقم أوراقها يبدأ بـ ٢٤ وينتهي بـ ١٢٧. وقد أملاها ابن الصابوني جمال الدين أبو الفضل محمد بن أحمد بن محمود. وقد استنسخها بخط النسخ الواضح عماد الدين إسماعيل. وتاريخ استنساخها غير معروف. وهي نسخة مصحّحة وتقع في ١٠٤ ورقة، وعدد السطور من كل صفحة ١٧ سطراً. وتشغل الكتابة (٢٠٠×١٢٥مم) من مِساحة كل صفحة. وهذه النسخة ناقصة من أولها

١٩ ورقة. وبهذا تكون قد أَتَمّت النسخةَ الناقصة التي توجد في مكتبة لاله لي تحت رقم ٢٤٢٥.

يذكر الصابوني في **المنتقى** كتاب **الأصول** (أو **شرح الأصول**)[١] ولكن لم أَحصُل عليه في أيّ مكتبة، وربّما يكون الصابوني قد قصد به أحد مصنفاته المذكورة آنفاً وقد يكون كتاباً على حِدة، لم أستطع العثور عليه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ انظر: ورقة ٥٥و، ٥٦ظ، ١٢٥ظ مكتبة لاله لي، رقم (٢٤٢٦).

المنهج الذي سلكته في تحقيق كتاب المنتقى

اعتمدت في تحقيق النص على المخطوطات الثلاث التي ذكرتها. وهي المخطوطة المقيدة تحت رقم ٢٤٢٦ بقسم لاله لي من المكتبة السليمانية بإستانبول، والثانية المخطوطة المقيدة تحت رقم ٢٤٢٥ بنفس المكتبة، والثالثة المخطوطة المقيدة تحت رقم ٦٥٨٤ بمكتبة مدينة مغنيسا في تركيا.

ورمزتُ إلى المخطوطة الأولى بحرف «ل»، وإلى الثانية بحرف «ى»، وإلى الثالثة بحرف «م».

وقد رمزتُ عند الإشارة إلى أوراق النسخ الخطيّة للصفحة الأولى لكل ورقة بحرف «و»، أعني الوجه وبحرف «ظ» أعني الظهرَ للصفحة الثانية لنفس الورقة.

وبذلتُ جُهدي في اختيار ما أعتقد أنه أصحّ نص يمكن اعتماده من كتاب **المنتقى** وذلك بالتحقيق والمقارنة بين عبارات النُسخ التي اتخذتها أساساً لهذا العمل. وآمُلُ أن أكون قد وُفِّقتُ في اختياري أصحّ النصوص لهذا الكتاب من النسخ الثلاث.

وقد أشرتُ إلى الفروق في الهوامش. ولكن لم أذكر الفروق التي لا تختلف بين النسخ إلا اختلافاً يسيراً لا يُؤثِّر في المعنى مثل ذكر «عليه السلام» وعدمه وكذا «تعالى». ووضعتُ عنوانَ البحث بين القوسيْن بعد الفواصل نحو: فصل [في تفضيل الأنبياء].

وأشرت إلى سور وأرقام الآيات المذكورة في غضون النص في هامش كل صفحة. وخرّجتُ الأحاديث النبوية والآثار الواردة في نص **المنتقى** على هامش كل صفحة وبيّنتُ المراجع مع رقم الباب من **صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي**. ومع رقم الحديث من **صحيح مسلم والموطّأ** للإمام مالك. وأشرتُ إلى المجلّد وأرقام الصفحات من المراجع الأخرى للأحاديث النبوية.

وذكرتُ على الهامش بإيجازٍ تراجم الأشخاص الواردة في **المنتقى**. وبيّنت مراجع ما نقله الصابوني من الآراء على قدْر المستطاع. وإلى جانب هذا قمت بتعريف أهم المذاهب والفِرق المذكورة في **المنتقى** تعريفا يسيرًا. ووضعت الفهارس المختلفة في آخر الكتاب.

وأستغفر الله لأستاذي الجليل الدكتور فارس الحريري وهو الذي أَعَمّني نفعاً في التحقيق والتقديم، ﷺ وأرضاه، رحمة الله عليه.

وأسأل الله التوفيق والنجاح.

أ.د. محمد بولوط

إستانبول، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

/[١ظ] بسم الله الرحمن الرحيم
[مقدمة المؤلف]

نحمدُ الله تعالى[١] على مِنَنه ونَعْمائه، ونشكره على نعمه وآلائه، ونستهديه إلى معرفة الحق واقتفائه، ونستعصمه من نزغات الشيطان[٢] وإغوائه. ونصلي على رسوله[٣] محمد خاتم أنبيائه وأكرم أوليائه، وعلى آله وأصحابه وأحبائه، وعلى الصالحين من عباده[٤] وإمائه.[٥]

قال الشيخ الإمام الأجل نور الملة والدين، تاج المفسرين، سيف المحققين، قامع البدعة، محيي السنة أبو محمد أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني قدّس الله روحه وجعل الجنة مأواه:[٦]

أما بعد، لما جعل الله تعالى الأنبياء سفراء بينه وبين خلقه ومبلّغين لوحيه[٧] وتنزيله كان الإيمان بهم من فروض الواجبات، واتباعهم سبباً للفوز والنجاة، ومعرفةُ أحوالهم بالصحة والإيقان[٨] من أهمّ المعارف لأهل الإيمان.

---

١ م: الحمد لله تعالى، ل: ربّ سهل وتمّم بالخير نحمد الله تعالى.

٢ ل ى: الشياطين.

٣ م: على نبيه، ل ـ على رسوله.

٤ ل: من عباد الله.

٥ م + هي وبعد.

٦ ى ـ قال الشيخ الإمام الأجل نور الملة والدين تاج المفسرين سيف المحققين قامع البدعة محيي السنة أبو محمد أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني قدس الله روحه وجعل الجنة مأواه.

٧ ل: بوحيه.

٨ م: والإتقان.

ولم يكن أحد من أئمة السلف عُني بتصنيف كتاب خاصّ في هذا الباب غير الشيخ الإمام أبي الحسين محمد بن يحيى البَشاغَري لقّاه الله رضوانه. فإنه أملى كتابه المسمّى **بكشف الغوامض في أحوال الأنبياء.** واسمه المشهور فيما بين الناس **عصمة الأنبياء** في شرح أحوالهم وكشف مقاماتهم وتأويل الآيات /[٢و] الواردة في معاتباتهم. ورأيتُ أهل العصر حُرموا نفعَ هذا الكتاب الجليل قدره الكثيرِ نفعه وخيرُه، لعلوّ ألفاظه ودقّة معانيه وقصور هممهم وقلة وقوفهم على ما أُودع من الفوائد فيه .[]أحببتُ أن أَلتقط منه ما يسهل على الراغبين دَرْكُه، وأقتصرَ على ما لا يسع للطالبين تركه، ليَقْصُر نظمه، ويَصْغُر حجمه فيوقف على بعض أسراره، ويُهتدى ببعض أنواره. والله ولي الهداية، ومنه المعونة والكفاية، وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير.

قال الشيخ الإمام ﷺ: الحمد لله ربّ العالمين حمداً يبلّغنا رضوانه على نحو ما عرَّفَنا فضله وإحسانَه، ومَنّ علينا بمعرفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين. فهم سفراء الله بين عباده المنزَّهون عن معايب البشرية ورذائل الإنسانية. والصلاة على خاتم النبيين ورسول ربّ العالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وسلَّم تسليماً.

قال الإمام [البَشاغَري]: أوجب الله تعالى الإيمان بالأنبياء بما مكّن في العقول أن الرسالة من الله تعالى من مقتضَيات الحكمة، إذ الحاجة ماسّة إلى معرفة العبادة /[٢ظ] والعبودة والمضارّ والمنافع والمفاوز والمهالك في الدنيا والآخرة. والعقول تقصر عن إدراك ذلك[١] كله. ولم يكن كل واحد من البشر أهلاً أن يُخاطَب بوحي الله وخطابه. اقتضت الحكمة من الله تعالى ورود الرسول يخبرهم عن مصالح دارَيْهم لإرشاد المحجّة للمستبصرين وإلزام الحجّة على المعاندين. فأرسل كل رسول بلسان قومه منزَّهاً عن معايب أهل عصره، أكرمَهم نسباً وأحسنهم خَلقاً وخُلُقاً، مع أنهم شاركوا قومهم في ابتلاء البشرية وحاجة الإنسانية. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا

---

١ ل: ذاك.

يأكلون الطعام﴾،[١] وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛[٢] لئلا يظنّوهم إلهاً، لما يرون من علوّ شأنهم وارتفاع مكانهم كما فعلت النصارى بعيسى عليه السلام، وليكون الحجة عليهم في تحمّل مشاقّ العبودية ألزمَ بكونهم[٣] من جنسهم. وقال في جواب الكفرة حيث قالوا: /[٣و] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.[٤] ومعنى الآية أن قوى البشر لا تُطيق على لقاء الملك على صورته. فلو أنزله على صورته لقضي الأمر يعني ماتوا كلهم؛ ولو أنزله على صورة البشر لا يخلو إما أن يُنزله على صورة رجل يعرفونه فيلتبس الأمر عليهم، فإنهم عرفوا تلك الصورة بعينها لغير هذا الملك. ولو أنزله على صورة رجل مجهول لا يَثِقُون بقوله ويَنفرون عن إجابته. فمنّ الله تعالى بإرسال رجل معروف بين الناس بالصدق والأمانة والأخلاق الحسنة، ونَصَب المعجزةَ دلالة على صدق دعواه، فكان الإيمان به إيماناً بالله تعالى.

فالإرسال[٥] غير مكيف والمرسَل مكيَّف، وكذا التكليم غير مكيف وسماع العباد[٦] مكيَّف، وكذا تبليغ الله تعالى الوحي إلى أنبيائه غير مكيف وإن كان البلوغ مكيفا. فإنزال الله تعالى لا يوصف بالأعلى والأسفل لأنه خالق الأعلى والأسفل وإن كان النزول عبارة عن الوصول من الأعلى إلى الأسفل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١ سورة الأنبياء، ٨/٢١.
٢ سورة الكهف، ١١٠/١٨، وسورة فصّلت، ٦/٤١.
٣ ي: لكونهم.
٤ سورة الأنعام، ٨/٦ ـ ٩.
٥ ي: والإرسال.
٦ ل: العبد.

فصل [في تفضيل الأنبياء]

لا بدّ[١] من القول /[٣ظ] بأن بعضهم أفضل من بعض لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾،[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[٣] وقال[٤] أبو الحسن الرُّسْتُغْفَنِي رحمه الله:[٥] نقول بأنّ بعضهم أفضل من بعض كما نصّ القرآن ولا نشتغل بتسميتهم. وقال الشيخ[٦] أبو الحسن:[٧] اتفق الناس على تفضيل محمد عليه السلام على جميع البشر. ومن الجائز أن يُذكر الخليل عليه السلام بالفضل لاقتران صلاته بصلاة محمد عليه السلام في التشهّد، ولاتّخاذ الله تعالى إياه خليلاً، ولقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.[٨] وكذا[٩] موسى صلوات الله عليه لكثرة ذكره في القرآن. إلا أنه لا يُستحسن من المؤمنين[١٠] الاشتغال بالتمييز على الترتيب سوى الإجمال أن المرسلين أفضل من النبيين، والمرسلين بعضهم أفضل من

١ ى: ثم لا بدّ.

٢ سورة البقرة، ٢/٢٥٣.

٣ سورة الإسراء، ١٧/٥٥.

٤ ل: وكان.

٥ هو أبو الحسن علي بن سعيد، الرُّسْتُغْفَنِي فقيه حنفي، متكلّم، من أهل سمرقند. نسبته إلى إحدى قراها. كان من أصحاب الماتريدي. له كتب، منها: الزوائد والفوائد في أنواع العلوم، وإرشاد المهتدي. توفي نحو سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م. انظر: الأعلام للزّركلي، ٥/١٠٢؛ ومعجم المؤلفين لكحالة، ٧/٩٩.

٦ ى: قال الشيخ رحمه الله.

٧ هو محمد بن يحيى البَشاغَري، تقدّم ذكره.

٨ سورة البقرة، ٢/١٢٤.

٩ ى: وكذلك.

١٠ ى: من المؤمن.

بعض ولكن فيما وراء البعث والإرسال. قال عليه السلام: «صلّوا على إخواني من المرسلين فإنّهم بُعثوا كما بُعثتُ».[١] فالواجب علينا أن نعرفهم بقدر ما يصح إيماننا بهم.

فأما الوقوف على قدر مقاماتهم عند الله لا سبيل إليه، /[٤و] إذ سرائرهم كانت خفيّة مجذوبة عن العالم جذبَ اصطفاءٍ لا جذب إجبار، وظواهرهم مجلوبة إلى الطاعة[٢] بطريق التوفيق، منزوعة عن العادات بطريق العصمة لا بطريق الإكراه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.[٣] قُرئ بالخفض والنصب.[٤] فأما المخلِص بالخفض يُنبِئ أنه لا يعمل لغير الله تعالى، والمخلَص بالنصب من لا يبقى في سرّه غيرُ الله تعالى بجذب الله سرائرهم عن الكون. فمقاماتهم في سرائرهم مقام الاصطفاء والاجتباء، ومنازلهم في ظواهرهم منازل التوفيق والعصمة. فأما الاصطفاء فهو تهذيبهم عما يَصْرِفهم عن الله تعالى ذكراً واعتماداً وتوكلاً وطمأنينةً ومحبةً وشوقاً وأُنساً وهيبةً وتعظيماً. والاجتباء جمع الهمة وجعلها همًّا واحداً وهو الله تعالى. والتوفيق إقامتهم على أعمال توافق رضا الله تعالى. والعصمة إزالة ما يَشينهم ويُسقط أقدارهم. وكل ذلك فضل من الله تعالى يختصّ به من يشاء من عباده. فالواجب علينا أن لا نَقيس أحوالهم بأحوالنا ولا نُسوّي بينهم وبين غيرهم. وإن وردت المعاتبات من الله تعالى فذاك لجلال /[٤ظ] قدرهم وشرف[٥] محلّهم عند الله تعالى، ولتأكيد حالهم في العصمة والاجتباء، وليُعلَم أن من هو مخلوق يجوز عليه الجهل والعجز والضعف والقصور والنقصان. والله تعالى متفرّد بجلاله وكماله.

---

١ تفسير ابن كثير، ٥١٦/٣؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٧٤/٢؛ والدر المنثور له، ٢٢٠/٥.

٢ ى: على الطاعة.

٣ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة يوسف، ٢٤/١٢).

٤ ى: بالنصب والخفض.

٥ ل ى: وشريف.

والاصطفاء[١] والعصمة ثابتة لهم من الله تعالى. وهم محمودون وممدوحون بِجَعْل الله لهم ذلك لا بذواتهم. والله[٢] هو المحمود بذاته والممدوح بصفاته. قال الله تعالى لنبيّه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.[٣] وقال في جملتهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.[٤] اختصّهم بهذه الكرامات السنيّة والمنازل العليّة ليكونوا سفراءَ بينه وبين عباده، وهداة ودعاة وقدوةً لهم.[٥] صلوات الله عليهم أجمعين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ ي ـ والاصطفاء.

٢ ي ـ الله.

٣ سورة آل عمران، ١٥٩/٣.

٤ سورة ص، ٤٧/٣٨.

٥ ي ـ لهم.

فصل في عدد الأنبياء عليهم السلام

تكلّم الناس في عدد الأنبياء والمرسلين. والأحوط فيه ما قاله الشيخ الإمام أبو منصور الماتريدي رحمة الله عليه: أنه لا حاجة بنا في الإيمان بهم إلى معرفة عددهم، فنؤمن أن أوّلهم آدم وآخرهم محمد عليهما السلام وما بينهما من المرسلين والأنبياء[١] كانوا على الحق. فإنك متى حصرتهم على عدد يحتمل أن يكونوا[٢] أزيَد من ذلك أو أنقص، فيؤدّي إلى إنكار نبوّة بعض الأنبياء عليهم السلام أو إلى شهادة /[٥و] غير النبي بأنه نبي. وعلى هذا كان مذهب الشيخ أبي منصور رَحِمَهُ اللَّهُ: التحرّز عما لا يُرجَى الثواب في إصابته ولا يُؤمَن العقاب في خطئه، كاختلاف الناس في أن الذبيح إسماعيل أم إسحاق وأمثال هذا، يجيء في موضعه[٣] إن شاء الله تعالى.

قال البشاغري: سمعت الشيخ أبا الحسن الرُسْتُفَغْنِي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: صنّف واحد في وقت الشيخ أبي منصور كتاباً وعَنوَنَه بكتاب **معاصي الأنبياء**. فقال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا المصنّف بقصده التصنيف كَفَرَ، لأن من رام تصنيف كتاب يتمنّى أن يجد من ذلك كثيراً ويتفقّده لحسن تصنيفه، ومن تمنّى وجود معصية من مؤمن خِيف عليه، فكيف بمن[٤] يتكلّف وجود معصية من رسول[٥] حتى ينشرها. فأملى المصنّف

---

١ ي: من الأنبياء والمرسلين.
٢ ي: أن يكون.
٣ ي: في مواضعه.
٤ ل: لمن.
٥ ي: من رسول الله.

[البشاغري] رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكتاب وسمّاه **عصمة الأنبياء**.

اتفق أهل السنة والجماعة أنهم معصومون عن الكفر والكبائر، وقال بعضهم: يجوز منهم الصغائر. وقال بعضهم: لا نُطلِق على فعلهم اسم الذنب صغيراً كان أو كبيراً ولكن نُجوّز منهم الزلل.[١] وقال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ اللَّهُ: يجوز منهم ترك الأفضل لا ترك المأمور وإتيان المنهيّ،[٢] نحو ما ذكر الله تعالى /[٥ظ] من حبيبه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.[٣] والإذن من الإمام وعدم الإذن جائز، لكن الأفضل عند الله أن لا يأذن. فعاتبه الله تعالى[٤] على ذلك؛ ونحوَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾،[٥] وتحريم الحلال يمين وإنه جائز؛ ونحو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾،[٦] والإعراض عن الأعمى - وهو لا يعاينه ليتأذّى به - في حال ترغيب رؤساء الكفرة للإسلام أيضاً جائز، لكن عند الله تعالى الإقبال على الأعمى وترك الكفرة كان أفضل. فعاتبه الله تعالى على ذلك فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. ومع ذلك قرن بهذا العتاب تعظيمه بمخاطبته[٧] على سبيل المغايبة كما يخاطَب العظماء، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ولم يقل «عَبسْتَ وتَولَّيتَ». وكذا[٨] قدّم العفو على العتاب في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾،[٩] ولولا أنه قرن اللطف بهذا العتاب[١٠] وإلا لم يَقِرّ قلبه لعتاب الله تعالى.

فالحاصل أن أحداً من أهل السنة والجماعة لم يُجوّز منهم ارتكاب المحظور إيثاراً لشهوتهم وهواهم على رضا الله تعالى، وإن تلفظوا بلفظة الذنب فليس المراد منه الذنب المعتادَ /[٦و] فيما بين العباد، ولكن المراد منه مباشرة فعل له تَبِعَة من جهة العتاب أو غير ذلك. وهو حقيقة اللفظ، إذ

---

١ ي: الزلل منهم.
٢ ي: المزجور. انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٤٠١/١٣.
٣ سورة التوبة، ٤٣/٩.
٤ ي - الله تعالى.
٥ سورة التحريم، ١/٦٦.
٦ سورة عبس، ١/٨٠ - ٢.
٧ ي: لمخاطبته.
٨ ي: وكذلك.
٩ سورة التوبة، ٤٣/٩.
١٠ ي: قرن العتاب بهذا اللطف.

أصل الاشتقاق هو الذنَب بفتح النون للعضو الذي هو في مؤخَّر البهائم. ولعل المراد بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[١] هذا، لا الذنب المعتاد المتعارَف بين الخلق. ومع ذلك الأولى أن لا نُطلِق هذه اللفظة في حقهم كيلا يسبق إلى أوهام الخلق ما تعارفوا من اسم الذنب. وكذلك الزلّة لا يفهم منها أنهم زلوا عن الحق إلى الباطل، أو عن الطاعة إلى المعصية، أو عن الذكر إلى الغفلة. ولكن زلّتهم بقاؤهم في بعض أوصافهم[٢] البشرية، أو زلتهم عن الأفضل إلى الفاضل. وقيل: زلتهم انتقالهم من مقام الرسالة إلى مقام النبوة. وذكر الشيخ الإمام أبو المعين رحمه الله أن هذا لا يصح، لأن مقام النبوة حق، وهو واجب الاتباع كمقام الرسالة سواء، فكيف يُعدّ[٣] ما وجب اتباعه وهو حق بيقين زلّةً. إلا أن يقال: إن اتباع مقام الرسالة أفضل من اتباع مقام النبوة، وترك الأفضل واتباع الفاضل زلة. ولكن هذا إنما يصح إذا /[٦٦ظ] وقع التعارض بين مقام النبوة ومقام الرسالة بأن يكون قضيّة أحدهما خلاف قضيّة الآخَر. وذلك لا يُتصور إلا بطريق النسخ.[٤] ولولا أن الله تعالى ذكر اسم الزلة في حق آدم عليه السلام بقوله[٥] تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[٦] وإلا لم يجز لأحد أن يُطلِق هذه اللفظة في حقه ولا في حق غيره. والأحوط أن لا يُسمَّى ترك الأفضل زلّة إذ[٧] لم يرد به التوقيف. وإن العتاب من الله تعالى على ترك الأفضل إنما[٨] ورد لجلال قدرهم ورفع[٩] منزلتهم ومكانتهم عند الله تعالى. والأشراف[١٠] يعاتَبون بما لا يُعاتب به مَن دونهم.

قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله: معاتبات الأنبياء والمرسلين دليل

---

١ سورة الفتح، ٤٨/٢.

٢ ل: أوصاف.

٣ ى + اتباع.

٤ ى: بعد الإرسال وثبوت مقام الرسالة ونحن نقول إن اتباع الفاضل وترك الأفضل يجوز أن يكون زلّة.

٥ ى: لقوله.

٦ سورة البقرة، ٢/٣٦.

٧ ى: إذا.

٨ ل: فإنما، ى: وإنما.

٩ ل: ورفيع.

١٠ ل: فالأشراف.

على صدقهم في مقالاتهم[١] في تبليغ الرسالة. فإن الإنسان لا يذكر عيب نفسه وما يُوهم النقص من حاله. قالت عائشة ﵂: لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لَكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾.[٢]

وحكمة أخرى في العتاب تعريف قصورهم إياهم ونقصِهم في صفات البشرية، وإن أحداً دون الله /[٧و] تعالى لا يخلو عن صفة عجز وضعف[٣] ونقص، وإنهم مع شرف[٤] محلّهم لم يخرجوا عن حد العبودية. قال الشيخ ﵀: سمعتُ أبا الحسن الفاغي[٥] يقول: الأنبياء لما عوتبوا تَحلّوا بمعاينة أوصافهم. وأشرف مقامات العبد معرفة نفسه. فأُجري[٦] عليهم ما كان عندهم من المعايب فينكسرون في أنفسهم فيتحدّد لهم الافتقار فيُديمون الاعتذار والاستغفار، كما قال ﵇: «إنّي لأَستغفر الله في كل يوم مائة مرّة».[٧]

وحكمة أخرى لتقتدي[٨] بهم الأمم في الاعتذار والتضرع والاستغفار كما اقتَدوا بهم في الشكر والعبادة والاجتهاد، فلا يقصّروا في تمحيص ذنوبهم بالاعتذار وتكفير خطاياهم بالاستغفار. بل يخافون فيتقون ويحذرون[٩] ويرجون فيرغبون. ومن لم يقف على وجه الحكمة في عتاب الأنبياء يكِل علمه إلى الله تعالى فهو أعلم لأيّ معنًى عاتبهم، وبالعتاب على أيّ محلّ أنزلهم. فلا يُدرَى أن كرامة العبد من الله تعالى من أيّ طريق تصل إليه: من طريق النعمة أم من طريق المحنة، من جهة العطاء أم من جهة البلاء.

---

١ ي: في مقالتهم.

٢ سورة الأحزاب، ٣٧/٣٣. مسند أحمد بن حنبل، ٢٤١/٦، ٢٦٦ وصحيح البخاري، التوحيد، ٢٢؛ وصحيح مسلم، الإيمان، ٢٨٨. انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٥٤/١١ ـ ٢٥٥.

٣ ي: صفة ضعف وعجز.

٤ ل ي: مع شريف.

٥ لم أعثر على ترجمة له في المصادر المتوفرة لدي.

٦ ل: فما جرى.

٧ مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢، ٢٦٠/٤؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٤١؛ وسنن أبي داود، الوتر ٢٦؛ وسنن الترمذي، التفسير ١/٤٧.

٨ ي: ليقتدوا.

٩ ي: فيحذرون؛ ل ـ ويحذرون.

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ﴾.[١] إذ حِكَم الربوبية /[٧ظ] لا يحيط بها قوى البشر، فالربوبية غير معلولة، فلو وقفت علوم العباد عليها لحدّدها.[٢] والله تعالى بصفاته غير محدود.

والأنبياء عليهم السلام كانوا مكرَّمين في الأحوال كلها. والعصمة عن المعاصي ثابتة في حقهم لازمة لجميع أحوالهم، إذ لو جاز عليهم ما يجوز على غيرهم لبطلت الرسالة، إذ لا يُؤمَن منهم الكذب فيوجب[٣] الشك والارتياب في الوحي فلا تلزمه الحجة. ولولا اقتحام الحشْويّة[٤] المجازِفون في ذكر أحوال الأنبياء والخوضِ في قصصهم من غير تدبر وتأمل[٥] لاقتصرنا على ما ذكر الله تعالى في القرآن من فضلهم وكرامتهم،[٦] إذ فيه كفاية للمستبصرين وهداية للمسترشدين. ولكن لما قصُرت أفهام بعض الناس عن بيان القرآن فحملوه[٧] على غير تأويله ذكرنا في هذا الكتاب الآيات الواردة في حق الأنبياء، وشرحنا وجوه معاتباتهم[٨] على نحو ما يليق بأحوالهم. واستعنّا الله تعالى على إتمام ما قصدنا وسألناه العصمة من الزيغ[٩] والزلَل بمنّه وفضله.[١٠] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١ سورة البقرة، ٢/٢١٦.
٢ أي لحدّدها البشر.
٣ جميع النسخ: فأوجب.
٤ الحشويّة: قوم تمسّكوا بالظواهر، فذهبوا إلى التجسيم وغيره، وهم من الفِرَق الضالّة. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ٦٧٨ - ٦٧٩.
٥ ى: من غير تأمل وتدبر.
٦ ل: وكراماتهم.
٧ ل م: فحملوها.
٨ ل: معايناتهم.
٩ ى: عن الزيغ.
١٠ ى + إذ.

ذكر آدم صلوات الله وسلامه عليه

ثم لما أراد الله تعالى /[٨و] تخصيص البشر بأنواع الكرامات جعل أول البشر نبيًّا مرسلاً، وهو آدم عليه السلام، وذَكر[١] قصته في آيات من القرآن وخصّ خلقته بغاية المبالغة بالتخصيص، فقال ﴿[يَٰٓإِبۡلِيسُ] مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.[٢] وهذا يُبطل قول من يجعل اليد عبارة عن القدرة أو يجعله صفة لله تعالى من غير كيفيّة، إذ يستحيل أن يكون لله تعالى صفتان من جنس واحد. قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر اليدين مبالغة في تخصيص خلق آدم عليه السلام ونفي الواسطة في خلقه.[٣] وقال[٤] بعضهم: ذكر اليدين عبارة عن الفضل والعدل، لأنه خلق آدم محلاً لإجراء آثار الفضل والعدل عليه وعلى أولاده الذين هم في صلبه. قال الله تعالى في ذكر الأمانة: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ إلى أن قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.[٥] جعل خَلْقه أمشاجاً ليبتليه،[٦] وجمع بين الجسد الكثيف

١ ل: ذكر.

٢ سورة ص، ٧٥/٣٨.

٣ قارن: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٨١/١٢ - ٢٨٢.

٤ ل: قال.

٥ ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا . لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ...﴾ (سورة الأحزاب، ٧٢/٣٣ - ٧٣).

٦ يُشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٢/٧٦).

والروح اللطيف وركّب فيه الشهوة والحرص والغضب مع الفهم والذهن والعقل. فمن اصطفى منهم وهداه بفضله ولطفه فلا أحد يُوازنه من المخلوقين في الكرامة. ومن خذله وأهانه فلا شيء أخبث منه. وفي اصطفاء آدم وخذلان إبليس قطعُ علم الملائكة في أن يجعلوا صفاء جوهرهم /[٨ظ] علّة للفضل، حتى علموا أن الحكم لله تعالى في تفضيل خلقه، يُعزّ من يشاء ويذل[١] من يشاء. فلا يشتغل أحد بالإحاطة على أسرار الربوبية فيصفو لهم التسليم. والتسليم أن يُسلّم الألوهيّة لله وحده[٢] لا شريك له في ذاته ولا في حكمه ولا في عبادته.

ثم أسجد له ملائكته ابتلاءً لهم ليظهر المسلّم من المعاند، فظهر عناد إبليس اللعين وتسليم الملائكة أجمعين. وجعل سجود الملائكة له طاعة وعبادة لله تعالى وتحيّة[٣] لآدم عليه السلام. فبيّن الله تعالى في كتابه المنزَل على حبيبه المرسَل امتثال الملائكة وإباءَ إبليس ولَعْنَه ورَجْمَه فقال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾،[٤] ليعلم الخلائق أن من تهاون بِمَن أكرمه الله تعالى يكون ذلك سببا لهوانه وخسرانه، ومن عظّم من عظّمه الله تعالى أثنى عليه الله تعالى[٥] بثنائه.

ثم أسكنه وزوجته جنته فقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.[٦] وقد كان أخبر ملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة. وكان فيه[٧] إشارة أنّه يخرج منها يوماً، كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يُسكِنه فيها، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.[٨] ثم[٩] أهبطه إلى الأرض /[٩و] لإبانة ما وعد له[١٠] من جَعْله خليفة في الأرض،

---

١ ى: ويضال.
٢ ل: لله تعالى.
٣ ى: تحية.
٤ سورة الحجر، ٣٠/١٥ ـ ٣١.
٥ ى ـ الله تعالى.
٦ سورة البقرة، ٣٥/٢.
٧ ى: به.
٨ سورة البقرة، ٣٠/٢. انظر: الدر المنثور للسيوطي، ٤/١.
٩ ى: فإنما.
١٠ ى ـ له.

فإنه من جلائل النعم ولطائف المنن. وكان في قسمته إخراج ذريته منه من الأنبياء والأولياء[١] والصدّيقين والصالحين. والجنة لم تكن موضع التوالد والتناسل ولا موضعَ الكفرة والأشقياء، فأخرجه منها لتحقيق ما أراد وجوده على وجه الحكمة. فكان إخراجه من الجنة وإهباطه إلى الأرض لإظهار علمه وحكمته، ورفعةً وشرفاً لآدم خليفتِه لا عقوبة لزلّته وإسقاطاً لرتبته؛ إذ لو كان في الجنة لكان واحداً من العباد، وإذا نزل إلى الأرض بلغ رتبة الخلافة. والخلافة أعظم قدراً وأبين شرفاً من العبادة. ولكن الله تعالى يظهر إكرام عباده بأيّ طريق شاء: إما من طريق المحنة[٢] أو من طريق النعمة.[٣] فأظهر على آدم عليه السلام هذه الكرامة من طريق المحنة من إبداء السَّوْأة عليه[٤] وزوال النعمة والراحة منه، والخروجِ إلى دار النصَب والتعَب.[٥] وعند رؤية التقصير[٦] من نفسه من تناول الشجرة بعد نهي الله تعالى عنه. فتبرّأ من حوله وقوّته وتيقّن أن الفوز والنجاة بفضله ورحمته، فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.[٧] /[٩ظ] فازداد همّه على رؤية تقصيره على همّ فوات الجنة، فلقّاه الله تعالى كلمات الاعتذار حيث قال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.[٨] فلما قال تلك الكلمات اجتباه الله تعالى وعفا عنه وغفر له كما قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.[٩] ازداد فرحه برؤية العفو والغفران على نيل راحة الجنان. فيَقتدي به أولو الألباب ويعرفون أن الاهتمام على فوات الائتمار والتقصير في الأعمال أولى من الاهتمام على فوات الحظوظ وزوال النعمة والراحة. والاعتذار وسؤال العفو والعافية أهمّ من التماس المراد وسؤال الحاجة؛

---

١ ي: من الأولياء والأنبياء.

٢ ي: النعمة.

٣ ي: المحنة.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ (سورة الأعراف ٢٧/٧). وانظر أيضاً: سورة طه: ١٢١/٢٠.

٥ ي: التعب والنصب.

٦ ي: النقص.

٧ سورة الأعراف، ٢٣/٧.

٨ سورة البقرة، ٣٧/٢.

٩ سورة طه، ١٢٢/٢٠.

كما فعل رسول الله عليه السلام، فإنه كان يتوب إلى الله تعالى في كل يوم مائة مرّةٍ ويستغفر الله في كل جلسة سبعين مرّةً.[١] قال سفيان الثوري: إن الله تعالى لم يجعل بينه وبين أحد من خلقه[٢] قِرانة وإن جلّ قدره، أخرج آدم بزلّة من الجنة، فأنت تنبسط من غير احتشام ولا مبالاة بالكبائر ترتكبها، ثم تتمنّى على الله تعالى إدخالك الجنة، من أي وجه وقع لك هذا الانبساط؟ وروي عن النبي عليه السلام أنه قال:[٣] «إن الله تعالى قال لآدم: يا آدم سبقت رحمتي غضبي ولولا ذلك /[١٠و] لم تُقبَل توبتك ولا توبة أحد من ذريتك».[٤] وقوله: «سبقت رحمتي غضبي»، والسبق والتأخّر في صفات الله تعالى ممتنع، لكنه أراد سبق أثر الرحمة على أثر الغضب من جهة الوصول إلى العباد؛ حيث أخبر آدم[٥] عليه السلام أوّلاً عن رحمته حين عطس آدم فقال: «الحمد لله»، قال[٦] الله تعالى: «يرحمك ربّك[٧] ولذلك خَلقتُك».[٨] فجعل الله تعالى حال آدم وزلته واعتذاره وحال إبليس وإباءه واستكباره مرآة لأحوال ذرية آدم إلى يوم القيامة. ثم أباحه الله الجنة[٩] ومنعَه عن تناول شجرة واحدة فقال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.[١٠] امتحنه بمراعاة[١١] النهي، إذ التحرز عن المنهي[١٢] أشدّ من الإقدام على المأمور.

---

١ مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢، ٢٦٠/٤؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٤١؛ وسنن أبي داود، الوتر ٢٦؛ وسنن الترمذي، التفسير ١/٤٧.

٢ ي: من عباده.

٣ ي - أنه قال.

٤ لم أجده بهذه الألفاظ ولعبارة: «سبقت رحمتي غضبي» انظر: مسند أحمد بن حنبل ٢٤٢/٢، ٢٥٨، ٢٦٠؛ وصحيح البخاري، التوحيد ١٥، ٢٢، ٢٨؛ بدء الخلق ١؛ وصحيح مسلم، التوبة ٤؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة ١٣؛ الزهد ٣٥.

٥ ي: لآدم.

٦ ي: فقال.

٧ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٠٢/١؛ والمستدرك على الصحيحين للحاكم، ١٦٤/٧؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٩٧/٨؛ والمطالب العالية لابن حجر، ٢٧١/٣.

٨ ي: خلقك.

٩ ي: ثم أباح الله تعالى عليه الجنة.

١٠ سورة البقرة، ٣٥/٢.

١١ ل: لمراعاة.

١٢ ل: من المنهي.

قالت الحكماء: إن ابن آدم حريص على ما مُنِع منه.[١] فإن[٢] من صفات البشر الحرص والشَّرَه والهَلَع والجَزَع والضعفَ. امتحنه الله تعالى بهذه الخصال ليتحقق اضطراره[٣] ويصدُق فزعه إلى الله تعالى، فجرى ما جرى على آدم لموافقة[٤] صفته. إذ خلقه الله تعالى محتاجاً إلى الطعام، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.[٥] كيف وقد اقترن به وسوسة إبليس اللعين بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾،[٦] وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾.[٧] قيل: لما /[١٠ظ] سمع آدم عليه السلام اسم الله في القسَم من إبليس تحيّر في شهود جلاله ولم يخطر بباله أن أحداً يتجاسر على القسَم بالله[٨] كاذباً. ثم تناولت قبله حوّاءُ ولم يظهر عليها أثر العقوبة فوقع في قلبه أن النهي قد ارتفع أو أن النهي كان للتنزيه لا للتحريم. فتناول ثم ندم من ساعته ورجع في الحال وأناب إلى الله تعالى بالتضرع والابتهال، فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾،[٩] ولذلك[١٠] لم يخرج عن عفو الله تعالى. وأكرمه بعد ذلك بالاجتباء والتوبة[١١] والهدى كما قال:[١٢] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.[١٣] وأما[١٤] إبليس [فقد] كفر بإباء القبول ومنازعته في الكبرياء مع الله تعالى وردِّه الأمر، وبخطيئته لله تعالى في الأمر بالسجود لآدم. وهذه الأوصاف لا تليق بالعبد، ولم يكن له داعٍ ولا موسوسٌ من خارج. ثم أصرّ على ما صنع ولم يَندَم ولم يرجع، بَل عزم على إغواء بني آدم، بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.[١٥] فلم يشبه فعله فعل آدم عليه السلام فاستوجب اللعن والطرد على فعله.

---

١ ل: به.
٢ ي: وإن.
٣ ي: اضطرابه.
٤ ي: بموافقة.
٥ سورة الأنعام، ١٤/٦.
٦ سورة الأعراف، ٢١/٧.
٧ سورة طه، ١٢٠/٢٠.
٨ ي: بياله.
٩ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٢٣/٧).
١٠ ل: فلذلك.
١١ ي: بالتوبة والاجتباء.
١٢ ي: فقال.
١٣ سورة طه، ١٢٢/٢٠.
١٤ ل: فأما.
١٥ سورة ص، ٨٢/٣٨.

وسئل الفقيه أبو الحسن:[١] كيف كانت وسوسة إبليسَ اللعينِ لآدم عليه السلام هل دخل في الجنة أم لا؟ فأجاب وقال: لا نشهد بدخوله /[١١و] في الجنة،[٢] وإن ثبت لم يبعد ليزداد تحسّراً وتلهّفاً على فواته. لكن نقول: وسوس لهما من الوجه الذي سُلّط عليهما. والله أعلم.

وقوله[٣] تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ . ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.[٤] ذكر الله تعالى الاجتباء والتوبة والهدى عقيب العصيان ليُعلمَ[٥] أن في ضمن عصيانه معنى لطيفاً أوجب اجتباءه بعد ذلك ولم يُسقط هذا العصيان قدر آدم، وقد ذكرنا معنى الاجتباء.[٦] ثم حكم بقبول التوبة وقَطعَ بدوامه على الهدى ليُعلم أن نور الهدى لم يُظلِم بعصيانه. والعصيان هو ترك المأمور والإقدام على المنهيّ سواء كان ناسياً أو عامداً.[٧] والنسيان جائز المؤاخذة عندنا خلافاً للمعتزلة. وإنما يُعاتَب الناس على ترك مراعاة أسباب العلم. وقوله ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي ترك الصوابَ. وقيل: من لم يعرف وجه تأويل الآية فَلْيَكِلْ علمَه إلى الله تعالى وليحمله على ما يُوافق قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾،[٨] وقوله تعالى:[٩] ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾.[١٠]

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾،[١١] فالسَّوْأة[١٢] العورة. وأشار[١٣] أنه لم يَبدُ لغيرهما حيث قال ﴿لَهُمَا﴾. قيل: هذا كان لا يقع بصر كل واحد منهما على عورته بنور[١٤] يحجُب أبصارهما عن عوراتهما/ [١١ظ]. والحكمة في إجراء الله تعالى عليه هذه الزلة ليُظهر افتقاره إلى الله تعالى

---

١ هو أبو الحسن علي بن سعيد، الرُسْتُغْفَني.
٢ ي: فيها.
٣ ل ي: قوله.
٤ سورة طه، ٢٠/١٢١ - ١٢٢.
٥ ي: ليعرف.
٦ انظر: «فصل في تفضيل الأنبياء»، ورقة ٤و.
٧ ي: عامدا أو ناسيا.
٨ سورة آل عمران، ٣/٣٣.
٩ ي - قوله تعالى.
١٠ سورة طه، ٢٠/١٢٢.
١١ سورة طه، ٢٠/١٢١.
١٢ ي: والسّوأة.
١٣ ل: أشار.
١٤ ي: انور.

وحياءه وخَجَله،[١] ويُتمّ اضطراره ويَعلم أن لا ملجأ منه إلا إليه، كما روي أنه لما عَرِي هرب فنودي: «يا آدم أفرارا مني؟» فقال: «لا، بل حياء منك يا ربّ».[٢] ثم عاتبه على ذلك تعظيماً لخطر الأمر والنهي كيلا يُصرَّ مذنب على ذنبه بل يتوب ويستغفرَ.

وأما[٣] إضافة الإخراج من الجنة إلى الشيطان بقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾،[٤] إنما كان لقصده ووسوسته لآدم عليه السلام حتى أفضى ذلك إلى خروجه من الجنة، فأضيف إليه عقوبة له وتقبيحاً لشأنه، وإن كان خروج آدم من الجنة بأمر الله تعالى حيث قال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾.[٥]

وأما قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾[٦] أي تتعب، فإن من فاتته راحة ووقع في العناء عُدّ ذلك شقاوة دنيويّة. وجاء في الخبر: يا ابن آدم لا تشبَع حتى يَعرَق جبينك. وجاء في التفسير: قوله ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي تَتعَب بالكسب لزوجك وأولادك. وفيه دليل أن الإنفاق على الزوج لا على المرأة.

فإن قيل: لما ابتدأت حوّاء بقِرْبان الشجرة فما بال آدم خُصّ بذكر العصيان دون حوّاءَ.

والجواب أن حوّاء لم تكن في /[١٢و] مثل حال آدم في العصمة والكرامة، فلم يَحْسُن ذكرها مع ذكر آدم، إذ لا يُشبه فعلها فعله. ولأن العصيان لم يكن مقصودا بالذكر لذاته بل لإظهار الاجتباء بعد ذلك كما قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ﴾،[٧] ليُعلم أن معاملة الله تعالى مع أنبيائه تخالف سائر العباد، وتلك الزلة لم تُسقط من قدر آدم عليه السلام. ولأن حوّاء لم تقدر على

---

١ ل ى: وخجلته.

٢ انظر: تفسير ابن كثير، ١/٨٠، ٣/١٦٨. قال ابن كثير: هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل إعضال بين قتادة وأبيّ بن كعب رضي الله عنه.

٣ ل: فأما.

٤ سورة البقرة، ٢/٣٦.

٥ سورة البقرة، ٢/٣٨.

٦ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ (سورة طه، ٢٠/١١٧).

٧ سورة طه، ٢٠/١٢٢.

تحمل أعباء العتاب الوارد على آدم. ولهذا خاطب الله تعالى آدم وحده بذكر العتاب حيث قال: «أفرارا منّي يا آدم؟»[١] وإن كانت متقدّمة[٢] العتاب عليهما بقوله[٣] تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.[٤]

ثم اعلم أن إبليس إنما كفر من حينِ استكبر وقت السجود أو حينَ أصرَّ بعصيانه لمّا رأى صورة آدم عليه السلام، لا أنه كان كافراً من الأصل كما يقوله الأشعرية. وتأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥] أي صار. وكذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾.[٦] وهذه مسألة الموافاة[٧] أن عندنا يصير السعيد شقيًّا بكفره والشقي سعيدًا بإيمانه. وقالوا: إن مَن مات على الكفر ـ والعياذ بالله ـ يبيّن أنه كان كافراً من حين وُجِد، ومن مات على الإيمان يبيّن أنه كان مؤمناً من حين وُجِد.[٨] وكذلك المحبة والعداوة على هذا الخلاف. وعندنا ما دام هو مؤمناً فهو حبيب الله، فإذا كفر صار عدوّ الله. والله الموفق للرشاد.[٩]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى قوله ﴿جَعَلَا لَهُۥ /[١٢ظ] شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.[١٠] صرف أهل التأويل هذا الشرك إلى آدم وحوّاء، وهو قوله ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وفسّروه أن حوّاء لما حملت جاءها إبليس وقال لها: إن كان لك ولد فسمِّيه بعبد الحارث واسمي

---

١ تقدم قريباً، انظر: تفسير ابن كثير، ١/٨٠، ٣/١٦٨.
٢ ى: مقدمة.
٣ ل: لقوله.
٤ سورة الأعراف، ٧/٢٢.
٥ سورة البقرة، ٢/٣٤.
٦ سورة الكهف، ١٨/٥٠.
٧ مسألة الموافاة: هي بمعنى أن الله تعالى يوالي عباده، ويعاديهم على ما يوافونه به عند الموت من خير أو شر لا على أعمالهم قبل ذلك. والإنسان إنما يكون عند الله مؤمناً أو كافراً باعتبار الموافاة وما سبق في علمه أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به.
٨ ل: من حين وجد الإيمان.
٩ ل ـ والله الموفق للرشاد.
١٠ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٨٩ ـ ١٩٠).

الحارث؛ فسمّت ولدها بعبد الحارث وأجاز ذلك آدم عليه السلام وهذا شركهما. قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا وحش من القول. والتأويل عندنا أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم﴾ خطاب لجميع الخلق: أنكم خُلقتم من نفس واحدة، آدمَ ومن زوجها حوّاءَ. فأول[١] الخطاب لجميع أولاد آدم عليه السلام وآخره ذكر آدم وحوّاء عليهما السلام.[٢] ثم كان من عادة مشركي العرب أنهم يسألون الله تعالى أن يجعل أولادهم ذُكورا، فإذا وُلد لهم[٣] ابن سَمَّوه عبد العُزَّى وعبد مَناف وعبدَ وُدٍّ. فعيّرهم الله تعالى بذلك أن عند السؤال يرجعون إلى الله تعالى ولا يستعينون بالأصنام وعند الولادة يُشركون بتسمية أولادهم عبدَ العُزَّى. ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: إن المراد من الآية مشركو العرب[٤] إلا قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾.[٥] وتحقيقه أن في الآية إنكاراً على مشركي العرب بعبادتهم الأصنام تقليداً لآبائهم وما بعد هذه الآية يدل عليه.[٦] فذكر سَفَههم [من] أنكم اتّبعتم[٧] آباءكم تقليداً وينتهي الكل إلى نفس واحدة وخُلقتم منها[٨] جميعاً وهو آدم عليه السلام. /[١٣و] فهلّا اتّبعتم ذلك النفس الأول وهو[٩] لم يشرك بالله ولم يعبد صنماً. ولو كان تأويل الآية ما ذكر أهل التأويل لكان للمشركين في الآية احتجاج؛ فإنهم يقولون: إن آدم عليه السلام أشرك ونحن أيضاً نشرك. والدليل على بطلان تأويلهم أنه قال: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾[١٠] أضاف إليهما، وعندكم كانت هذه التسمية[١١] من حوّاء لا من آدم، فكيف أضاف إليهما؟

---

١ ل: وأول.

٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٦/١٣٧.

٣ ل: بهم.

٤ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٦/١٣٩.

٥ سورة الأعراف، ٧/١٨٩.

٦ انظر: تفسير الطبري، ٩/١٤٨؛ وتأويلات القرآن للماتريدي، ٦/١٣٩؛ وتفسير ابن كثير، ٢/٢٧٥.

٧ ی: أنكم إن اتبعتم.

٨ ل: منهما.

٩ ل - هو.

١٠ سورة الأعراف، ٧/١٩٠.

١١ ی: كان هذا التسمية.

ولأنه قرئ «جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ» ولو كان التأويل ما قالوا [لكان] «جعلا له[١] شريكا» لا شركاء. ومما يدل على صحة ما أوّلناه قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾،[٢] ذكر بلفظ الجمع فدل أن المراد منه ذريته. وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾،[٣] أي سكونَ انتفاع لا سكون اعتمادٍ يكون إعراضا عن ذكر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾،[٤] تكلّف الناس في تعيين هذه الأمانة.[٥] فقال بعضهم: كلمة التوحيد، وقال[٦] بعضهم: جميع الفرائض، إلى غير ذلك من التأويلات. ثم اختلفوا في العرض. فقال بعضهم: هذه عبارة عن خلقهم بخلقة لا تحتمل الأمانة. وقال بعضهم: العرض كان على الحقيقة لكن على التخيير بين أن تقبل وبين أن لا تُقبَل، وإلا لم يُحتمل أن يكون عرض إيجاب ثم هم يَأبَوْن ذلك، مع أن الله تعالى وصفهم بالخضوع[٧] والطاعة بقوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.[٨] وقال بعضهم: /[١٣ظ] الحمل ههنا[٩] هو الخيانة في الأمانة، يعني لم تَخُن في هذه الأمانة السماوات والأرض والجبال. ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي خان فيها.[١٠] مثاله المودَع، إذا حفظ الوديعة على شرط الأمر لم تكن الوديعة في ضَمانه، فإذا[١١] خان فيها دخلت[١٢] في ضَمانه، فقد حمل ضمانها بالخيانة، فكذا هذا. والحمل في القرآن ذكر بمعنى[١٣] الوزر. قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ

---

١ ي: لجعلا له.
٢ سورة الأعراف، ١٩١/٧.
٣ سورة الأعراف، ١٨٩/٧.
٤ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الأحزاب، ٧٢/٣٣).
٥ ل: هذه الآية.
٦ ي - وقال.
٧ ي: بالخشوع.
٨ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (سورة فصّلت، ١١/٤١).
٩ ي: هنا.
١٠ ي: خان فيه.
١١ ي: وإذا.
١٢ ي: دخل.
١٣ ل: في معنى.

أَثۡقَالِهِمۡ﴾.[١] قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاشتغال بتفسير هذه الأمانة فضل تكلّف لا يُحتاج إليه لأنها مبهمة لا تُعلم[٢] إلا بالخبر الوارد من الله تعالى بطريق القطع واليقين ولم يوجد.[٣]

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾،[٤] ليس هذا كإباء إبليسَ، فإن الله تعالى قرن ذلك بالاستكبار بقوله: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾،[٥] وقرن إباء هذه الأشياء بالإشفاق بقوله: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾[٦] ليعلم أنه إباء عجز وضعف، لا إباء عناد وتكبّر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾.[٧] قال الحسن: ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة ما تُحمّل.[٨] والأحوط أن يُصرَف هاتان الصفتان[٩] إلى من خان في هذه الأمانة وضيّعها وهم المنافقون والمشركون. ولو صُرف إلى جنس الناس كان المراد منه بيان أصل الخلقة لا بيانَ الصفة القائمة بهم. يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا /[١٤و] جَهُولٗا﴾ أي مجبولاً على طبع الظلم والجهل، فانتفيا[١٠] بحمل الأمانة بحيث لولا الأمانة لبقيت ظلمة الظلم والجهل في طبعه. فمن أدّى الأمانة منهم لم يُسَمَّ ظالماً ولا جاهلاً. ولا يقال: إن كلمة[١١] «إنّ» للتعليل والمعنى أن جذب الأثقال إلى نفسه ظلم وجهل؛ لا يجوز أن يقال هذا،[١٢] لأن هذا إنما يصح أن لو جذب إلى نفسه مختاراً بحيث يمكنه الدفع عن نفسه؛ والله تعالى حمّله[١٣] الأمانة شاء أو أبى ووُعِد الاستطاعة عند الأداء.[١٤]

---

١ سورة العنكبوت، ١٣/٢٩.
٢ ى: لا يعلم.
٣ تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٩٤/١١.
٤ سورة الأحزاب، ٧٢/٣٣.
٥ سورة البقرة، ٣٤/٢.
٦ ى ـ بقوله وأشفقن منها.
٧ سورة الأحزاب، ٧٢/٣٣.
٨ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٩٥/١١.
٩ ى: أن نصرف هاتين الصفتين.
١٠ ل: فانتفيتا.
١١ ى: ولا يجوز أن يقال كلمة.
١٢ ى ـ أن يقال هذا.
١٣ ى: حمّلها.
١٤ قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (سورة الكهف، ٢٩/١٨)؛ وقال: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان، ٣/٧٦).

قال الشيخ الإمام أبو الحسن البَشَاغَري[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم الأمانة في الحقيقة إقامة كل عمل لله تعالى وإمساك كل شيء له، كما قال: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾،[٢] وقال في الأعمال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات. فإذا رأى نفسه مستقلاً في شيء من ذلك أو صرفَه إلى غير مالكه فقد خان. ولأن الأمانة تقتضي مراعاتها من غير الانتفاع بها، فإذا رام الأعواض أو نظر إلى الأغيار في أفعاله فهو لم يُؤَدّ حق الأمانة. ولأن الأمانة تقتضي كتمانهَا من أعيُن الخَوَنَة فإذا أطْلع على علمه أشدّ الخائنين ـ وهو النفس ـ أو أعطى للنفس حظّها بوقوف الناس عليه فينظرون إليه بعين الجلال فقد نقض /[١٤ظ] عهد الأمانة؛ كما قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل منقَبَة باطنة إذا أحسّ بها الناسُ جعلتها كالريح هبَّتْ بها فذَرَتْها. وقال بعض أصحاب المعاني:[٤] الأمانة هي[٥] رؤية التصرف لله في خلقه، والتبرّي من حول نفسه وقوتها، ورجوعه[٦] إلى الله تعالى بقلبه وهو معنى كلمة التمجيد. وقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.[٧] قال ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: عهد الله شيئان، شهادة أن لا إله إلا الله والتبرّي من الحول والقوة. ومعنى آخر في الأمانة[٨] أنها تقتضي حفظها من غير اختلاط[٩] بغيرها، ألا ترى أن المودَع إذا خلط الأمانة بغيرها بحيث لا تُعرف[١٠] بعينها، أو تعذّر تمييزها وإن عُرفت كان ضامناً لها. فحقيقة الأمانة تمييز صفات الله تعالى من أوصاف العبد، فلا يُضيف أوصافه إلى نفسه ولا أوصاف نفسه إلى ذات الله تعالى إلا بجهة المِلك، فإذا[١١] فعل هذا[١٢] فقد انتفى عنه الظلم والجهل.

---

١ ى: أبو منصور.
٢ سورة النحل، ١٦/٥٢.
٣ سورة الكهف، ١٨/١١٠.
٤ ى ـ المعاني.
٥ ى: هو.
٦ ل: ورجوعها.
٧ سورة البقرة، ٢/٤٠.
٨ ل: من الأمانة.
٩ ى: من اختلاط.
١٠ ى: لم تعرف.
١١ ل: وإذا.
١٢ ى ـ هذا.

وقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾[1] يعني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعنى الحمل هنا[2] هو القبول. وهذا يقتضي أن العَرْض لم يكن عرض تخيير، إذ لو كان للتخيير لكان الأولى أن يختار ما هو الأيسر؛ كما كان يفعل رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ. روَت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ما خُيّر بين أمريْن إلا اختار أيسرهما.[3] وكما فعل لقمان حين خُيّر بين النبوّة /[١٥و] والحكمة فاختار الحكمة لأنها أيسر، ولأنه عرف أنه لو كان أهلاً للنبوّة لأُوحي إليه من غير تخيير كما في سائر الأنبياء فإذا خُيّر اختار الحكمة.

قال محمد بن علي الترمذي:[4] إن آدم لفَرْط اشتياقه تحمَّل الأمانة ولكن نسي الاستعانة بالله؛ فأورثت رغبته في قبول الأمانة نوراً تناسل منه الأنبياء والمؤمنون، وأورث ترك الاستعانة بالله ظلمة تناسل منها[5] المنافقون والمشركون. قال الشيخ الإمام: لا ينبغي أن يوصف آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالظلم[6] بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾،[7] ولا يجوز إخراج ذريته صنفين بعلّة في آدم. إذ ما خرج من صُلبه من المشركين أكثر من المؤمنين، ولكن الله تعالى خلق ذريته من نسله غير موصوفين بالكفر والإيمان على ما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كل مولود يولد على الفطرة**».[8] ثم هدى من هدى فضلاً وحَرَم من حرمَ عدلاً، فهدى من علم منه أنه يختار الهدى وحَرَم من علم منه أنه يختار[9] الضلالة.

---

١ سورة الأحزاب، ٢٧/٣٣. ٢ ل ـ هنا.

٣ انظر: صحيح البخاري، المناقب ٢٣، الأدب ٨٠، الحدود ١٠؛ وصحيح مسلم، الفضائل ٧٧.

٤ هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشير الحكيم الترمذي. محدّث، حافظ، باحث، صوفي. من أهل «ترمذ» نفي منها بسبب تصنيفه كتابا خالف فيه ما عليه أهلها، فشهدوا عليه بالكفر. من تصانيفه: نوادر الأصول من أحاديث الرسول، والفروق، وغرس الموحدين. توفي سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٥٦/٧؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ٣١٥/١٠.

٥ ي: منه. ٦ ل ي: بالظلمة.

٧ سورة آل عمران، ٣٣/٣.

٨ مسند أحمد بن حنبل، ٢٣٣/٢، ٢٧٥، ٣٥٣/٣ وصحيح البخاري، الجنائز ٩٢؛ وسنن أبي داود، السنة ١٧.

٩ ل: من يختار.

ولا يُظنَّ بآدم أنه نسِي الاستعانة وقت قبول الأمانة، إذ الاستعانة في الأمانة أعظم الأمانة على ما ذكرنا قبل هذا. فكيف كان حاملاً للأمانة وقد[١] ضيّعها؟ فعُلم أن الوجه فيه ما قلنا. والله الموفق للصواب.[٢]

❑❑❑❑❑❑

١ ل: فقد.

٢ ل - والله الموفق للصواب.

ذكر نوح النبي[١] المرسل[٢] صلوات الله عليه

/[١٥ظ] اختصّه الله تعالى بلطائفَ من طول العمرِ وتحمل أذى القوم ووصْفِه بكونه شكوراً بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾.[٣] قيل: إنه كان يَذْكر مع كل حركة وسكون «الحمد لله»، وكان في طُول مُقاساته من قومه[٤] لا يدعو عليهم بالهلاك حتى أيس من إيمانهم وإيمان ذرياتهم، بقوله تعالى: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[٥] فحينئذ دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.[٦] تلا رسول الله عليه السلام هذه الآية فقال: «رحِم الله أخي نوحاً لو ترك واحداً ما كان يضرّه».[٧] والمعنى فيما ذكر النبي عليه السلام ما أشار إليه الفقيه أبو الحسن رحمه الله:[٨] كان الأَولى من نوح عليه السلام أنه لما بَجّله الله تعالى بالتخيير في قومه أن يُفوّض أمرهم إلى الله تعالى من غير أن يُشير عليه بالهلاك. فإن من تأذّى من عبد إنسان فشكى إلى سيده فقال صاحب العبد: «سلّمته إليك فافعل به ما شئتَ»، فحقه أن يفوض أمر عبده إليه فَرَحاً منه بما رأى من تقريبه. فتمنى نوح عليه السلام بعد هلاك قومه أن يكل أمرهم إلى الله تعالى فاستحيا منه. مع أنه لم يَدْعُ عليهم من غيظٍ هائج من هوى وشهوة.

---

١ ل ـ النبي.
٢ ى ـ المرسل.
٣ سورة الإسراء، ٣/١٧.
٤ ل: مع قومه.
٥ سورة هود، ٣٦/١١.
٦ سورة نوح، ٢٦/٧١.
٧ لم أجده فيما لديّ من المراجع.
٨ هو أبو الحسن علي بن سعيد الرُسْتُفَغْنِي.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾.[١] ليس أنه أراد تخليصه مع كونه كافراً بل دعاه إلى الإيمان ثم إلى الركوب معهم.

دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[٢] /[١٦و] وإنما امتنع الابن[٣] عن الركوب لامتناعه عن شرطه وهو الإيمان بالله وإلا لم تَلْحَقْه مشقة في نفس الركوب. فلما امتنع الابن أيقنَ نوح بهلاكه فرجع إلى وعد الله تعالى إياه[٤] بإعطاء أهله فقال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾.[٥] قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.[٦] وقُرِئ: «إنه عَمِلَ غيرَ صالح»،[٧] بيّن أن أهليّة الأنبياء من جهة الدين لا من جهة النسب. ثم شدّد عليه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.[٨] فلما لحقه هذا التهديد خفّ عليه أمر ابنه وطلب منه العصمة عما يوجب العتاب والعقاب،[٩] فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾،[١٠] فصار حاله مع ابنه كحال إبراهيم مع أبيه أنه لما تبيّن أنه عدو لله تبرّأ منه،[١١] فابتلاه[١٢] الله تعالى بهلاك ابنه نفياً للتهمة والميل، إذ[١٣] الأصفياء من عباد الله تعالى تُوافق[١٤] أسرارهم قسمة الله تعالى في خلقه، وإن كانت على خلاف طبائعهم. والله الموفّق للصواب.[١٥]

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ سورة هود، ٤٢/١١.
٢ سورة هود، ٤٢/١١.
٣ ى ـ الابن.
٤ ى ـ إياه.
٥ سورة هود، ٤٥/١١.
٦ سورة هود، ٤٦/١١.
٧ انظر لقراءات الآية: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ٩٢/٥.
٨ سورة هود، ٤٦/١١.
٩ ى: العقاب والعتاب.
١٠ سورة هود، ٤٧/١١.
١١ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ١١٤/٩)، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة البقرة، ١٢٤/٢).
١٢ ل: وابتلاه.
١٣ ى: إذا.
١٤ ل: موافق.
١٥ ل ـ للصواب.

ذكر خليل الله إبراهيم النبي المرسل صلوات الله عليه

وصفه الله تعالى في كتابه بأوصاف تدل على علو شأنه وشرف مكانه، وجَعَله[١] للناس إماماً واتخذه لذاته خليلاً.[٢] فالإمامة تقتضي اتباع الخلق إياه في أفعاله ومقاماته. والخُلة تقتضي جذب أسراره /[١٦ظ] عن النظر إلى غير الله تعالى وإقامتها إلى مرضاة الله تعالى. جعل النار له بستاناً[٣] والبَعوض جُنداً وأعواناً، وأنزل الصلوات والبركات في أهل بيته فقال الله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.[٤] ثم أمر حبيبه بذكر أوصافه وأحواله مع أبيه وقومه فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾،[٥] وقال الله تعالى:[٦] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾.[٧] ثم أخبر عن إنكاره على عُبّاد الأنوار من النجم والقمر والشمس فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا

---

١ ل: جعله.

٢ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (سورة النساء، ١٢٥/٤).

٣ يشير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء، ٦٩/٢١).

٤ سورة هود، ٧٣/١١.

٥ سورة مريم، ٤١/١٩.

٦ ى ـ قال الله تعالى.

٧ سورة الأنعام، ٧٤/٦.

جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾،[١] حتى تبرّأ عن ذلك كله بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.[٢]

واختلف وجوه أهل التأويل في الآية، فمنهم من أجراها[٣] على ظاهرها[٤] وقالوا: إنه كان ذلك[٥] من الخليل في حال صباه حين خرج من الغار فرأى الكوكب والقمر والشمس أولَ ما رأى فقال ذلك. ولكن هذا لا يصح من وجوه.

أحدها أن الأنبياء كانوا معصومين عن الكفر والشرك[٦] عارفين بالله وتوحيده /[١٧و] في حال صِباهم كما كانوا بعد بلوغهم. ولا يجوز أن يشركوا بالله شيئاً[٧] طَرْفَةَ عينٍ[٨] في حال من الأحوال عند أهل السنة. فلا يجوز أن يرى الخليل الكوكب والقمر ربًّا وإن كان في حال صباه. ثم الآية تدل على أنه كان في حال[٩] مخاطبةِ قومه ومُحاجّته إياهم بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[١٠] وقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾[١١] إلى آخر الآية. وكذا نظم الآية يدل على أن هذه المحاجّة كانت بعد محاجّة الله وقومه في عبادة الأصنام. فإنه بدأ بذكر محاجّته أباه[١٢] بقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾،[١٣] ثم عطف عليه قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.[١٤] والدليل على بطلان ذلك التأويل قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[١٥] منه على التحقيق للكوكب لقال: «إني بريء مما أشركتُ». وكذا أخبر أنه لما أفل القمر قال الخليل: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ

---

١ سورة الأنعام، ٦/٧٥ ـ ٧٦.
٢ سورة الأنعام، ٦/٧٨ ـ ٧٩.
٣ ل: من أجراه.
٤ ل: على ظاهره.
٥ ى ـ ذلك.
٦ ى: عن الشرك والكفر.
٧ ل ـ شيئا.
٨ ل: طرفة عين شيئا.
٩ ى ـ من الأحوال عند أهل السنة فلا يجوز أن يرى الخليل الكوكب والقمر ربا وإن كان في حال صباه ثم الآية تدل على أنه كان في حال.
١٠ سورة الأنعام، ٦/٧٨.
١١ سورة الأنعام، ٦/٨٠.
١٢ ل: المحاجّة مع أبيه.
١٣ سورة الأنعام، ٦/٧٤.
١٤ سورة الأنعام، ٦/٧٥.
١٥ سورة الأنعام، ٦/٧٨.

﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.[١] فلولا أنه عرف ربّه الذي هداه وهو الذي خلقه كما قال في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[٢] وإلا لم يقل: «لئن[٣] لم يهدني ربّي».

والتأويل الصحيح ما أشار إليه الشيخ الإمام أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ذلك منه كان على وجه التعجب والإنكار عليهم لكن في صورة تقريرهم على ما هم عليه تمكيناً[٤] لهم على سماع كلامه[٥] /[١٧ظ] إلى وقت يسهل له إلزام حجته عليهم[٦] وهو حال أفوله؛[٧] وكذلك في كل طائفة من عُبّاد[٨] الشمس والقمر،[٩] فألزم عليهم في حال أفولها. إذ المعبود هو القديم غير المدرَك والمكيَّف والطالع والآفل.[١٠]

قال الشيخ رضي الله عنه: إنما رد على عبدة الأنوار حين الأفول لا حين الظهور لتكون حجته أظهر والردُّ عليهم ألزمَ، كما فعل مع نُمْرُود حين عارضه على حجة الإحياء والإماتة تَرَك ذلك وذكر حجة بُهت بها[١١] وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.[١٢] وتأويل آخر - والله أعلم - قوله:[١٣] ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾[١٤] أي[١٥] هذا صُنعُ ربّي، إضماراً في الكلام. والإضمار في الكلام[١٦] جائز كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[١٧] أي أهل القرية.

---

١ سورة الأنعام، ٧٧/٦.
٢ سورة الشعراء، ٧٨/٢٦.
٣ ل - لئن.
٤ ل: ترغيبا.
٥ ى: كلامهم.
٦ ى: عليهم إلزام حجته.
٧ ى: أفول.
٨ ل: من عبادة.
٩ ل: القمر والشمس.
١٠ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ١٢٢/٥.
١١ ى - بها.
١٢ سورة البقرة ٢٥٨/٢.
١٣ ى - قوله.
١٤ سورة الأنعام، ٧٦/٦، ٧٧، ٧٨.
١٥ ى - أي.
١٦ ى - في الكلام.
١٧ سورة يوسف، ٨٢/١٢.

قال الشيخ أبو بكر بن إسحاق[١] الكلاباذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[٢] إن نظر الأنبياء عليهم السلام لم يكن إلا للاعتبار، وذلك النظر يوجب لهم الكشوف، وذلك الكشوف يوجب لهم جذبهم عن رؤية العالم. فكذلك الخليل صلوات الله عليه، حين نظر إلى الكوكب والقمر والشمس[٣] كان نظره نظر اعتبار.[٤] وسياق الآية دليل عليه حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ /[١٨و] وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾.[٥] قال أهل التأويل: قوله «وليكون من الموقنين»[٦] عطف على فعل محذوف وتقديره ـ والله أعلم ـ: «ليُشاهدنا وليكون من الموقنين». فلما نظر إلى الكوكب نظرَ مُعتبِرٍ كُشف له فغاب سرّه عن العالم، كما قال بعض أهل الحقيقة: «ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله فيه»، فالخليل أولى بذلك. فلما ظهر الكشوف وغاب عن الإحساس بالكوكب قال: «هذا ربّي» إشارة إلى شهود الله في سرّه، ولكن الكشوف ينقضي فيعود إلى حال العلم أو يزول ذلك بأفول الكوكب فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.[٧] ثم لما[٨] رأى القمر[٩] ازداد له الكشوف على قدر زيادة القمر على الكوكب وشاهد فيه اللطف والربوبية استعظم ذلك فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. ثم لما أعيد إلى حالة العلم من المشاهدة أظهر الافتقار إلى الله تعالى فقال: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ بعد إكرامي بالكشوف ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[١٠] بالميل إلى صورة الكوكب والقمر كما ضل من اتخذهما معبوداً. ثم لما رأى الشمس ازداد له الكشوف لزيادة ما في

---

١ ل: أبو بكر بن أبي إسحاق.

٢ هو أبو بكر محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب البخاري الكلاباذي، محدّث، صوفي، من أهل بخارى، من آثاره: التعرف لمذهب أهل التصوف، وبحر الفوائد الخ. توفي سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م. انظر: الجواهر المضية للقرشي، ٢٧٢/٢؛ وتاج التراجم لابن قطلوبغا، ص ٨٧؛ والفوائد البهية للكنوي، ص ١٦١.

٣ ى: الشمس والقمر.

٤ ى: الاعتبار.

٥ سورة الأنعام، ٧٥/٦.

٦ ى ـ قال أهل التأويل قوله وليكون من الموقنين.

٧ سورة الأنعام، ٧٦/٦.

٨ ى ـ لما.

٩ ل ـ القمر.

١٠ سورة الأنعام، ٧٧/٦.

الشمس من النور والضياء، فأخبر عن شهود قلبه بعين سرّه آثار ربوبيته وظهور عظمته فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾،[١] /[١٨ظ] أي هذا الكشوف بالشمس أكبر من الكشوف بالكوكب والقمر إذ[٢] يقال: إن الشمس من آيات الله[٣] الكبرى. ثم لما أفلت[٤] الشمس صرَّح بالبراءة عن الشرك فقال: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾،[٥] أي مُنزّه عن الميل إلى صورة هذه الأجرام واتخاذها معبوداً لنفسه كما فعلتم أنتم. بل كل هذا عَلَمٌ على ربوبيته وطريق لمعرفته ودليل على وحدانيته. فجاوزتُ هذه العلامات ووجّهتُ إلى ربّ الأرض والسماوات فقال:[٦] ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾،[٧] وهو معنى كلمة التوحيد وهو التبري عن الشرك بالله والإقرار بوحدانية الله.

وما يُروى في الخبر[٨] أنه كَذَب ستَّ كَذَباتٍ.[٩] قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الخبر الواحد في القصص مردود، إذ حكمه العمل دون العلم وهذا في الأحكام، ولا عمل في القصص فبقيت الشهادة والخبر الواحد لا يوجب الشهادة.[١٠] قال الشيخ:[١١] ولو صح الخبر فتأويله أني تكلمتُ بسِتّ كلمات لو وقف الناس على ذلك لَعدُّوها كذباً عليّ وأنا في الحقيقة صادق كقوله: «سارة أختي» أي[١٢] هي أخته من حيث الدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾،[١٣] أو من جهة البشرية؛ وكذلك ما سواها من الكلمات يحتمل كل واحد منها تأويلاً صحيحاً.

---

١ سورة الأنعام، ٧٨/٦.
٢ ل: أو.
٣ ل: إنه من آيات الله.
٤ ى: لما أفل.
٥ سورة الأنعام، ٧٨/٦.
٦ ل: وقال.
٧ سورة الأنعام، ٧٩/٦.
٨ ى: من الخبر.
٩ روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يَكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات». مسند أحمد بن حنبل، ٤٠٣/٢؛ وصحيح البخاري، الأنبياء ٨، النكاح ١٢؛ وصحيح مسلم، الفضائل ١٥٤.
١٠ قارن بما ورد في تأويلات القرآن، ٣٠٨/١٠، ٢٦٧/١٢ ـ ٢٦٨.
١١ ل + أبو منصور.
١٢ ى: إذ.
١٣ سورة الحجرات، ١٠/٤٩.

/[١٩و] وقال الشيخ أبو منصور: إن الكلام خبري لا عقلي وما كان من جنس السمعي يحتمل نسخه[١] وتبدله، فيجوز أن يكون معناه وقت الحاجة والاضطرار غير معناه وقتَ الاختيار، كما في إجراء كلمة الكفر حالة الاضطرار. وقال[٢] الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٣] فصار التكلم بالاثنين عند الاضطرار كالتكلم بالواحد.

وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[٤] ليس على وجه الإنكار لكسر[٥] الأصنام خوفاً من الكفار، ولكن أراد بذلك بطلان قولهم[٦] ودعواهم في اتخاذهم الأصنام معبوداً. ألا ترى أنه لم يُحِلْ ذلك إلى شخص يجوز منه الكسر، بل أضاف إلى صنم كبير ليتأملوا أنه لا يصلح الفعل منه فينكروا ذلك عليه[٧] ويُلزموا الحجة على أنفسهم أنّ من لا يتصور منه الفعل كيف يصلح لكونه معبوداً. دليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.[٨] والدليل على أنه لم يكن على جهة الإنكار خوفا منهم بل رداً وإلزاماً عليهم أنه لما رآهم تحيّروا شدد عليهم القول فقال:[٩] ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[١٠] فمن يخاف أحداً لا يخاطبه بهذه[١١] الشُّنْعَة. وكيف يخافهم /[١٩ظ] في هذه الحالة وهو - صلوات الله عليه وسلامه - في عين العقوبة لم يضطرب قلبه حتى لم يَسْتَعِنْ بجبريلَ عليه السلام في حالة الإلقاء في النار التي أوقدوها[١٢] لمّا تبدّى[١٣] له جبريل عليه السلام في الهواء فقال: «هل لك من حاجة؟» فأجابه: «أمّا إليك فلا، حَسْبي الذي لم يزل

---

١ ي - نسخه.
٢ ل: قال.
٣ سورة النحل، ١٦/١٠٦.
٤ سورة الأنبياء، ٢١/٦٣.
٥ ي: لكبير.
٦ ي - قولهم.
٧ ي: عليه ذلك.
٨ سورة الأنبياء، ٢١/٦٤.
٩ ل: قال.
١٠ سورة الأنبياء، ٢١/٦٦ - ٦٧.
١١ ي: بذا.
١٢ ل: أوقدها له.
١٣ ل: تبدّا، ي: تبدء.

حسبي».[١] فهم[٢] في حال كشوفهم يرون الأشياء بحقه[٣] تحت قدرة الله تعالى فلا يخافون ولا يرجون غير الله.

وقوله تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٤] لم يكن تعللاً عن خوف الكفرة[٥] ولكن تنفساً على ما أهمه من اشتغالهم بغير الله تعالى فأَضْناه ذلك الهم فصار سقيما* كما قال عليه السلام في صفة أولياء الله تعالى: «إذا رأيتَهم خِلْتَهم مَرْضَى وما بالقوم من مرض»،[٦] يعني المرض المعتاد من الآلام والأوجاع. ولهذا صدّقوه ولم يُنكروا عليه لما رأوا في ذاته من آثار الضعف ولكن لم يعرفوا وجه ذلك. وتأويل أهل الظاهر لقوله[٧] «إني سقيم» أي سأسقَم، تكلّف بعيد لا حاجة إليه إذ عُرف[٨] معنى سقمه في الحال على الوجه الذي بيّنا. قال الشيخ: والأصل في حال الأنبياء أن أفعالهم وأقوالهم تكون[٩] بانتظار الوحي فلئن صح ما قال في الأصنام والسقم[١٠] فبالوحي كان ذلك ـ والله أعلم بحقيقته ـ ولكن هذا أوفق بحال الأنبياء عليهم السلام.

وقوله تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١١] لم يكن ذلك ذهاباً /[٢٠و] عن غَيبة[١٢] بقطع مسافة، كذهاب مخلوق إلى مخلوق. ولكنه عبارة عن جميع[١٣] الأقوال التي كانت متوجهة إلى

---

١ انظر: تفسير الطبري، ١٧/٤٤ ـ ٤٥؛ وتفسير ابن كثير، ٣/١٨٤.
٢ أي الأنبياء عليهم السلام. ٣ ل ـ بحقه.
٤ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ.﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨٨ ـ ٩٠).
٥ ى: الكفار.
* تبدأ بعد هذه الكلمة النسخة المرقمة ٦٥٨٤ بمكتبة مغنيسا م.
٦ انظر: الفتح الكبير للنبهاني، ٢/٢٣٣.
٧ ى: قوله. ٨ ل: إذا عرف.
٩ م: يكون. ١٠ م ـ والسقم.
١١ سورة الصافات، ٣٧/٩٩. ١٢ ل ى: عن غيبته.
١٣ ى: عن جمع.

خطاباتهم، والصرفِ إلى الله تعالى بوجهه وقلبه ولسانه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.[١] وقد يجوز لقائل أن يقول إذا قصد الكعبة: «إني ذاهب إلى ربّي» لاختصاصها بالإضافة إلى الله تعالى. ولكن عندنا ما كان سبيله سبيل الحال قولاً وفعلاً من الأجلّاء عند الكشوف والاختصاصِ بنوع كرامة، هم مخصوصون بذلك في أحوالهم وأوقاتهم. لا يجوز لغيرهم أن يُعبروا عن ذلك إذا لم يكونوا[٢] على تلك الحالة ومحلاً لتلك الكرامة. ولأن هذه كلمة جارية فيما بين الناس عند اليأس عن المخلوقين والرجوع إلى الله تعالى: «إني تبت إلى الله تعالى،[٣] ورجعت إليه، وذهبت إليه». وإنما يريدون بذلك قطع هممهم عن الخلق وصَرْفَها إلى الله تعالى على[٤] جهة الخلوص.

وقوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[٥] مع أنه وبَنيه معصومون عن ارتكاب الكبائر والصغائر[٦] فضلاً عن عبادة الأصنام. لكن هذا بيان مِنّة الله تعالى على نفسه أنك أخرجتَني من صلب رجل يعبد الصنم وعصمتَني بفضلك عن الاتباع له /[٢٠ظ] عند شدة الدعاء منه والتهديدِ على تركه، فأنا[٧] أستديم ذلك وأستمدّ منك الهداية والعصمةَ. كما قال الشيخ أبو القاسم الحكيم:[٨] إن الأجلّة خوفهم في حالة الأمن[٩] والسلامة أكثر من خوف السَّفَلَة في الهلاك. واستدل بهذه[١٠] الآية وبقول

---

١ سورة الأنعام، ٦/٩١.
٢ ى م: إذا لم يكن.
٣ ى - إلى الله تعالى.
٤ م: هممهم على؛ ى: عن.
٥ سورة إبراهيم، ١٤/٣٥.
٦ ى: الصغائر والكبائر.
٧ ى: وأنا.
٨ هو أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل، المعروف بالحكيم السمرقندي الحنفي، من القُضاة. أخذ الفقه والكلام عن أبي منصور محمد الماتريدي ولقب بالحكيم لكثرة حكمته وموعظته، وصحب أبا بكر الورّاق ومشايخ بلخ في زمانه وأخذ عنهم التصوف. تُوفي سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م. انظر: الفوائد البهية للكنوي، ص ٤٤؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ٢/٢٣٧.
٩ ل م - الأمن.
١٠ ل م: هذه.

يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.[١] والسَّفلَة يلحقهم الاغترار والغفلة عن أنفسهم وعن منّة الله تعالى وفضله وعدله[٢] وجبروته.

وقوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴿[لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ]﴾،[٣] والمراد[٤] منه كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله؛ فإنه نفي الألوهية عن غير الله تعالى وإثبات الألوهية لله تعالى وهو معنى قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فإنه[٥] التبرّي عن الأصنام والشركاء. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ في[٦] معنى قوله «إلا الله» الإقرار بألوهيته. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[٧] ليس استثناء عن معبوديهم،[٨] بل هذا ابتداء إلزام التوحيد عليهم وإبطال دعوتهم: لو تدبروا أن المستحق للعبادة من يقدر على خلق الأشياء لا من هو منحوت الخلق ومُبتَذَل في أيديهم. وفيه دليل أنه معبود لم يزلْ، وخالق /[٢١و] لم يزل، وقادر لم يزل، ومحمود ومشكور[٩] لم يزل. ومعنى المعبود في الأزل[١٠] أنه المستحق للعبادة لا كونُه مفعولَ فعل العبادة،[١١] إذ لا مدح في هذا[١٢] بدليل أن الأصنام قد عُبدوا ولم يستحقوا بذلك مدحاً.

وقوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾، اعلم أن الخليل لم يشكّ في قدرة الله تعالى على الإحياء، ولهذا لما خاطبه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[١٣] لئلا يُظن بالخليل أنه سأله[١٤] عن شك وارتياب، ولكن إنما سأله ليشاهد بعينه ما شاهد بقلبه سكوناً واطمِئناناً[١٥] فيما حاجّ نُمْرُودَ في الإحياء والإماتة حيث

---

١ سورة يوسف، ١٢/١٠١.
٢ ى: وعدله وفضله.
٣ سورة الزخرف، ٤٣/٢٦ ـ ٢٨.
٤ ل م: فالمراد.
٥ م ـ مما تعبدون فإنه.
٦ م ـ في.
٧ ى ـ في معنى قوله إلا الله الإقرار بألوهيته وقوله إلا الذي فطرني.
٨ ل: عن معبودهم.
٩ ى: ومحمود مشكور.
١٠ م: الأزال.
١١ م: العباد.
١٢ ى: فيها.
١٣ سورة البقرة، ٢/٢٦٠.
١٤ ل م: سأل.
١٥ ل ى: اطمأنانا، م: اطمينانا.

قال له:[١] ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فقال اللعين: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾،[٢] ولبَّس على قومه بأن أخرج شخصين من السجن وخلّص أحدهما وقال: «هذا كان[٣] كالميت فأحييتُه بأن خلّصتُه[٤]»، وقَتل الآخرَ وقال: «إن هذا[٥] كان حيًّا فأمَتُّه بأن قتلتُه». فخاف الخليل على ضعفة قومه أنهم يظنون أن الإحياء والإماتة من الله تعالى على هذا النهج، فسأل من الله تعالى أن يُريه[٦] كيفية الإحياء ليطمئنّ قلبه على ثبات قومه ويقينهم[٧] وتصديقهم بالإحياء والإماتة. وألزم الكافر المعاند[٨] العاتي[٩] من ساعته بحجة أخرى أظهرَ من ذلك /[٢١ظ] بأن قال:[١٠] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾.[١١] وصح برهان إبراهيم وظهر. ونظير هذا ما خاف موسى على ضعفة قومه حين ألقى السحرة حِبالهم وعِصِيَّهم ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ.﴾[١٢] على قومه أنهم ربّما يظنون أن هذا من جنس ما أتى به موسى فيشكّون في إيمانهم فثبّت الله تعالى قلبه بقوله: ﴿[قُلْنَا] لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.[١٣]

فإن قيل: الانتقال من دليل إلى دليل[١٤] لا يُحمد في دأب النظر. قلنا: إنما يكون هذا انتقالاً من دليل إلى دليل آخر[١٥] إذا[١٦] لم يصح دليله الأول فيتركه وينتقل[١٧] إلى دليل آخر، بل هذا ضمُّ دليلٍ هو أظهر إلى دليل هو أخفى وأدقُّ لتأكيد الحجة والإلزام على الخصم، ومثل هذا جائز.

---

١ ل ى - له.
٢ سورة البقرة، ٢٥٨/٢.
٣ ى - كان.
٤ ى: أخلصته.
٥ ل م - إن هذا.
٦ ل: أن يرده.
٧ ى: على يقينهم.
٨ ى - المعاند.
٩ ل - العاتي.
١٠ ى - بأن قال.
١١ سورة البقرة، ٢٥٨/٢.
١٢ يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (سورة طه، ٦٦/٢٠ - ٦٧).
١٣ سورة طه، ٦٨/٢٠.
١٤ ى م + آخر.
١٥ ل ى - آخر.
١٦ جميع النسخ: إن.
١٧ ى: انتقل.

ثم سؤال الخليل ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[١] لم ينصرف إلى طلب[٢] كيفية الإحياء، إذ الإحياء ربوبية وصفات الربوبية مُنزّهة عن الكيفية. ثم سؤال ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[٣]وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ مثلُ سؤال الخليل، لأنه لا يُظن به[٤] أنه سأل[٥] سؤال شك ومع ذلك أراه الله تعالى في ذاته حين[٦] أماته /[٢٢و] مائةَ عام. ورأى الخليل[٧] في غيره مع سلامته في ذاته.[٨] وذلك أن الخليل سأل ذلك في وقت الانبساط ومشاهدة آثار اللطف والربوبية فعامله الله تعالى باللطف في الإجابة. والذي مرّ على قرية إنما[٩] سأله في وقت القبض والهيبة فعامله الله تعالى[١٠] بالقهر والجبروت. وبيان التفرقة من حيث دلالةُ الحال والمقال. أما دلالة الحال فإن الخليل إنما سأل بعد نصر الله تعالى إياه على خصمه بإظهار حجته وإدحاض حجة خصمه. والآخَرُ إنما سأل بعد المرور على القرية الخَرِبَة والأجساد الفانية التي ظهرت آثار القهر[١١] والجبروت عليها. ولهذا اختلفت عباراتهما[١٢] في وقت السؤال حتى قال الخليل عليه السلام: «ربّ أرني»؛ سأله[١٣] باسم الربوبية ـ وإنه يوجب اللطف والبقاء ـ وقال: «أرني»، استمدّ من آثار بِره ولطفه في إراءة آياته. وقال الآخر: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾،[١٤] ذكر اسم الله وإنه[١٥] يوجب الهيبة والفناء، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾ وإنه في صورة التعجب والاستبعاد. فلما اختلف الحال والمقال فيما بينهما اقتضى إجابة سؤال الخليل صلوات الله عليه مع بقاء[١٦] ذاته

---

١ سورة البقرة، ٢/٢٦٠.
٢ ى ـ طلب.
٣ ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٩).
٤ م: لا يطريه.
٥ ى ـ أنه سأل.
٦ م: حتى.
٧ م: أرى الخليل؛ ى: أرى للخليل.
٨ م ـ في ذاته.
٩ ل: إنه.
١٠ ل ـ الله تعالى.
١١ ى: القرية.
١٢ ى: عبارتهما.
١٣ ل ـ سأله.
١٤ سورة البقرة، ٢/٢٥٩.
١٥ ل: فإنه.
١٦ ى ـ بقاء.

مقرونة بآثار اللطف والربوبية، وإجابةُ سؤال الآخر في فناء ذاته مقرونة /[٢٢ظ] بآثار القهر والهيبة حتى أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه.[١]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[٢] المراد من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ الآباء الذين[٣] عبدوا الأصنام لا عينُ الأصنام بدليل تذكير الكناية في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾، وكذا العداوة من الجماد لا تتصور.[٤] وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد ذكرنا معنى[٥] الاستثناء قبل هذا.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾،[٦] فالعبد وإن جل قدره يرى نفسه مقصِّراً في حق الله تعالى فيعُدّ ذلك خطيئة، ولا وقوف للعباد عليها بل ذلك سرّ بينه وبين الله تعالى، وليست[٧] مع ذلك كخطيئاتنا بل لو وُجدت ذلك منا كانت منقَبة سَنِيّة. ثم ذكر بلفظة الطمع تنبيها على أن ليس للعبد التحكّم على الله تعالى بالعفو والمغفرة. ولهذا فوض الخليل عليه السلام أمر العصاة من قومه إلى الله تعالى بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ يعني علمتُ أنك تُجازي من يتبع الأنبياء، ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فلا أعلمُ كيف حاله ولكن أعلم ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٨] لو شئتَ غفرته ورحمت عليه.

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾،[٩] يحمل ذلك على حسن المعاشرة مع والده، كما قال النبي عليه السلام: «أحسِنوا إلى الوالدَيْنِ /[٢٣و]

---

١ يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٩).

٢ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ.﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٧٥ - ٧٧).

٣ ل: إلا بالذي؛ ى: إلا بالذين.

٤ ل: لا يتصور.

٥ ى: وقد ذكرنا مع.

٦ سورة الشعراء، ٢٦/٨٢.

٧ م: ولبتيت.

٨ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٣٦).

٩ سورة الشعراء، ٢٦/٨٦.

الكافرَيْن في الدنيا»[١] أو كلاماً هذا معناه. وقال الله تعالى:[٢] ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.[٣] وهكذا يليق بحال الأنبياء الأبرار بالآباء الكفار[٤] أن يستغفروا ويسألوا لهم النجاة من الله تعالى وإن علموا أن الله تعالى لا يغفر لهم، كما روي عن النبي عليه السلام أنه قيل له: «هل أنت شافع لأبويك؟» فقال:[٥] «إني شافع لهما أعطيتُ أو مُنعتُ وما أرجو لهما».[٦] وإنما فعلوا[٧] ذلك ليكون* حرمانهم عدلاً من الله تعالى لا بسبب امتناع أبنائهم عن السؤال. على أنه عليه السلام سأل المغفرة لأبيه مع إضمار سؤال سبب الهداية كأنه قال: «اِهْدِ أبي واغفر له إنه[٨] كان من الضالّين»؛ ولأنه وعد أباه الاستغفار، بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.[٩] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[١٠] فكان يسأل المغفرة على رجاء أنه ربّما يؤمن فإذا مات على الكفر تبيّن أنه عدو لله تبرّأ منه. والحكمة فيه أن تُعْلَم أن الأنبياء وإن جلّ قدرهم فسؤالهم ليس بعلة للإعطاء، وإنما يُحْرَم المدعوُّ له لهوانه لا لسقوط قدر الداعي. والله الموفّق.

---

١ لم أجد الحديث بهذا اللفظ، ولكن روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هاجر إلى رسول الله ﷺ رجل من اليمن فقال له رسول الله ﷺ: «هجرت الشرك ولكنه الجهاد، هل باليمن أبواك؟» قال: نعم. قال: «أذنا لك؟» قال: لا، قال: «ارجع إليهما فاستأذِنْهما، فإن أذنا لك فجاهِدْ وإلا فَبِرَّهما» سنن أبي داود، الجهاد ٣١؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٣٨/٨.

٢ ل: قال الله.

٣ سورة لقمان، ١٥/٣١.

٤ ى: الكبار.

٥ ل م: قال.

٦ عن ابن مسعود، سئل رسول الله ﷺ عن أبويه فقال: «ما سألتهما ربّي فيعطيني فيهما وإني لقائم يومئذ المقام المحمود». قال البالي: أخرجه الحاكم وصحّحه وأقرّه ابن حجر والسيوطي، ومعنى المقام المحمود هو الشفاعة. سبل السلام لمحمد بن عمر البالي، ص ٥٨، ١١٥.

٧ ى: جعلوا.

* إلى هنا تنتهي نسخة (لاله لي ى) بمكتبة سليمانية المرقّمة ٢٤٢٥.

٨ ل: فإنه.

٩ سورة مريم، ٤٧/١٩.

١٠ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة، ١١٤/٩).

ذكر يعقوب النبي المرسل صلوات الله عليه

خصه الله تعالى بالبشارة به قبل وجوده، بقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ /[٢٣ظ] وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.[١] وهذه رتبة سنيّة دلت على أنه كان مصفًّى عن شوائب النظر إلى غير الله تعالى نظرَ هوىً وميل طبعٍ وشهوة على حسب عادات البشر، وكان نظره[٢] في كل شيء نظر تفكرٍ واعتبار. فالاعتبار من العبور، وهو أن يَعْبُرَ عما وقع عليه بصر الرأس إلى ما يلوح له في بصر القلب. وقال الشيخ الحكيم أبو القاسم [السمرقندي] رحمه الله: العبرة تصوير الغائب والفكرة تغييب الشاهد. ثم إنه صلوات الله عليه لما نظر إلى بنيه نظر تفكر واعتبار كُوشِفَ في يوسفَ صلوات الله عليه بمزيد لطف من الله تعالى، فعرف تخصيص الله إياه فخصه بزيادة محبة لم يكن ذلك بميل طبع ونظر شهوة، كما خص النبي عليه السلام عائشةَ رضي الله عنها من بين سائر النساء لتخصيص الله تعالى إياها.

ثم الابتلاء والمِحَن في طريق المحبة من سنن الله تعالى الجارية على عباده، كما قال عليه السلام: «إذا أحب الله تعالى عبداً صبّ عليه البلاء صبًّا وسحّه عليه سحًّا».[٣] فكان ما أصاب يعقوب في أمر يوسف عليهما السلام

١ سورة هود، ٧١/١١.
٢ م: فكان نظرهم.
٣ انظر: المغنى للعراقي بذيل إحياء علوم الدين، ٣٠٦/١، ١٣٢/٤ قال العراقي، سنده ضعيف؛ وكنز العمال للهندي، ٣٣٦/٣؛ واللآلئ المصنوعة للسيوطي، ٣٩٩/٢.

من البلاء والمحن من خصائص المحبة لا من طريق العتاب والعقوبة. ولله تعالى أن يبتلي عباده ابتداء إما عدلاً منه وإما فضلاً، إذ الربوبية /[٢٤و] غير معلولة. فربّما يكون من الله تعالى في حق الأنبياء في حال الابتلاء من خفايا اللطف ما يقصر عنه إدراك العباد، كما قال عليه السلام في مواصلته الصيام: «إني أبِيتُ عند ربّي يطعمني ويسقيني».[١] وقد جاء في الخبر أن الجوع طعام الله في الأرض يُشبع به أبدان الصديقين. ومعنى ذلك أنه يُودِع في الجوع ما يصير[٢] غذاء لعباده الصديقين. والذي يدل على صحة ما ذكرنا من تخصيص الله ليوسف عليه السلام بزيادة الكرامة، قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾.[٣] فلما عرف ذلك أمره [أبوه] بإخفاء تلك الرؤيا بقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾.[٤] قال النبي عليه السلام: «استعينوا على إنجاح [قضاء] حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».[٥] وليس في نص الكتاب ما يدل على أن يوسف عليه السلام عصى أباه وقصّ على إخوته رُؤياه وإن نقلته الحشوية في قِصصهم ذلك. لكن حُكْم الله الجاري وقضاؤه النافذ ظهر في ضمن قصد الإخوة بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾. وقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.[٦] ليس هو على الضلال المتعارف بل هو عبارة عن كونه مغلوباً في محبته بحيث[٧] لا يقدر على التسوية بيننا وبينه. إذ الضلال عبارة عن كونه مغلوباً، كما اعتذر موسى عليه السلام /[٢٤ظ] عند فرعون من قتله القبطي قال: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.[٨] يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مغلوباً بحيث لا يظهر أثره في اللبن.

---

١ صحيح البخاري، الصوم ٤٩، ٥٠؛ وصحيح مسلم، الصيام ٥٧ ـ ٥٨؛ وسنن الترمذي، الصوم ٦٢.

٢ م: ما يصبر.

٣ سورة يوسف، ٤/١٢.

٤ سورة يوسف، ٥/١٢.

٥ الموضوعات لابن الجوزي، ١٦٤/٢؛ تفسير ابن كثير، ٤٦٩/٢، ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٩٥/٨؛ واللآلئ المصنوعة للسيوطي، ٨١/٢؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ١٢٣/١ قال العجلوني: سنده ضعيف.

٦ سورة يوسف، ٨/١٢.

٧ ل ـ بحيث.

٨ سورة الشعراء، ٢٠/٢٦.

وقولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، دل هذا الكلام على أنهم طالبوه من الأب[1] مراراً في الاستئذان فامتنع عن ذلك حتى عاتبوه بقولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾[2] ليس على الكذب المحض فإنهم لم يقصدوا إهلاكه بل تغييبه عن أبيه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾،[3] وفيه طرف من النصح.

وقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا [غَدًا] يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾،[4] ما بال إجابة يعقوب إياهم في استئذانهم للرتع واللعب، وما بال أولاده وهم أنبياء في أحد الأقوال ويوسف نبي مرسل على كل حال؟ فأما السؤال في حق يوسف عليه السلام ساقط فإنه لم يُنقل أنه استأذن للهو[5] واللعب ولا اشتغل به. وأما استئذان أولاده لم يكن لِلَعِبٍ ولَهْوٍ محظور بل رُوي أنهم كانوا يترامَون ويتراكَضون وإنه مباح لا لوم[6] عليه. وأما إجابة يعقوب عليه السلام إياهم محمول على حسن المعاشرة والمجاملة معهم، كما نُقل[7] عن النبي عليه السلام مع عائشة رضي الله عنها في حال صباها وهو مشهور يأتي في بابه.

وقوله خبراً عن يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾.[8] كان هذا منه إظهاراً للشَّفَقَة[9] على ولده، والشفيق بسوء ظن[10]/[٢٥و] مُولَعٌ، وهذا راسخ في جبلة البشرية. ويجوز أن يكون ذلك بالوحي في مقام النبوّة وكأنه[11] كوشف بما يُبتلى بسبب تغييبهم يوسف عنه.

وقوله لبنيه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.[12] فيه نوع تنزيه لهم وإحالة

---

١ م - من الأب.
٢ سورة يوسف، ١١/١٢.
٣ سورة يوسف، ١٠/١٢.
٤ سورة يوسف، ١٢/١٢
٥ م: اللهو.
٦ ل: ولا لوم.
٧ ل: كما فعل.
٨ سورة يوسف، ١٣/١٢.
٩ م: إظهار الشفقة.
١٠ م: الظن.
١١ م: كأنه.
١٢ سورة يوسف، ١٨/١٢، ٨٣.

ما فعلوا إلى تسويل النفس من غير أن يكونوا فاعلين عن عقيدة أو عناد. وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾،[١] فقد وعد الله الصبر الجميل ووفّى به حيث لم يشتغل بالقول المذموم والفعل المحظور وتحمَّلَ تلك الأثقال حتى أذابه وأضناه، ولو شكى أو بكى[٢] كان إلى الله شكواه، ولم يتفحص عن الإخوة[٣] وحال يوسف بعد ذلك حتى أوحى الله تعالى[٤] إليه[٥] بعد سنين فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.[٦]

ذكر[٧] الشيخ أبو بكر الكلاباذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يعقوب علم أن حكمة الله تعالى في فراق ولده إكمال طبعه على مقام سرّه ليَصْفو ظاهره عن الميل إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كما صفا سرّه لله تعالى، فجاهد في ذلك حتى صفا ظاهره ولذلك[٨] لم يتفحص ولم يتحسس عن حاله. ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً علم أنه أُبين عن أبيه لتصفية طبع أبيه، فلذلك لم يُنْهِ خبره إليه إلى أن حان وقته في علم الله تعالى ووحيِه وصفا سرُّه وكمل حاله فتحسس[٩] يعقوب وأظهر يوسف حاله. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[١٠] وقال أيضاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما /[٢٥ظ] تَحزَّن[١١] يعقوب على ما فاته من المشاهدة في جمال يوسف من مكاشفات الحق فتنفس الصُّعَدَاء[١٢] وقال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[١٣] يعني على ما في يوسف. ولأن الجزع والشكوى إلى الله تعالى لا يبطل معنى الصبر بل هو تضرع وابتهال إلى الله تعالى، وهو محبوب إلى الله تعالى، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنين المريض تسبيح وتقلّبه

١ سورة يوسف، ١٢/١٨، ٨٣.
٢ م: وبكى.
٣ م: إلى الإخوة.
٤ م - الله تعالى.
٥ ل - إليه.
٦ سورة يوسف، ١٢/٨٧.
٧ م: وذكر.
٨ م: فلذلك.
٩ م: فحسّس.
١٠ سورة يوسف، ١٢/٨٦.
١١ ل: يحزن.
١٢ تنفّس الصعداء: تنفّس نفَساً طويلاً من تعب أو كرب.
١٣ سورة يوسف، ١٢/٨٤.

من جَنْب إلى جنب جهاد».[١] إلا أنه دون مقام الرضاء فمقام الرضاء أرفع من مقام الصبر وهو من تمام التسليم كما فعل الخليل بولده عند الذبح.

وحكي عن الشيخ أبي القاسم الحكيم [السمرقندي] أنه تُوفي له ولد فتجزّع الصبرُ؛[٢] فعزّاه الشيخ محمد بن الفضل البلخي،[٣] وكان من خيار عباد الله في ذلك الزمان وكان ضريراً، فجلس إلى جنبه وقال: يا أبا القاسم لا يُكتفَى منك بالصبر إنما تُطالَب بالرضاء، فانشرح صدره وطابت نفسه بهذا الكلام. قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: الصبر والرضاء لا يدفعان الشفقة والرقةَ، فربّما يرِقّ الشفيق[٤] على ولده وهو صابر على بلاء الله تعالى راضٍ بقضائه.

وكان الفقيه علي بن سعيد الرُسْتُفَغْنِي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: من سمع ظاهر حال إخوة يوسف مع أخيهم ولم يعرف معناه ربّما يفوت إيمانه وهو لا يشعر به، لأنه يعادي أولاد يعقوب ومعاداة[٥] الأنبياء عليهم السلام كفر. وكان يُشافه /[٢٦و] أهل مجلسه بهذا[٦] ويقول: لا يحل لكم الاستماع من قاصٍّ لا يعرف إلا الأخبار والقِصص، فإن الأخبار والقصص جُعلت لهذه الأمة لانتزاع العلوم لا لعينها، كقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.[٧]

وقول يعقوبَ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾؛[٨] إنما أدخل كلمة الشك لانتظاره الوحي من الله بالإذن في الاستغفار، فرجّاه متوقّعا لنزول الوحي.

---

١ انظر: كنز العمال للهندي، ٣١٣/٣؛ والمقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٣٨١، وقال السخاوي: إنه ليس بثابت؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢٠٤/٢.

٢ م: للصبر. تجزّع الصبر: أي تقطّع وتكسّر.

٣ هو أبو عبد الله محمد بن الفضل بن عبّاس البلخي الحنفي، صوفي شهير، من أجلّة مشايخ خراسان. أخرج من بلخ فدخل سمرقند، ومات فيها سنة ٣١٩هـ/٩٣١م. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢١/٧؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ١٢٨/١١.

٤ م: الشقيق.

٥ م: معادات.

٦ ل: لهذا.

٧ سورة هود، ١٢٠/١١.

٨ سورة يوسف، ٩٨/١٢.

فإن قيل: كيف[١] قطَعَ يوسفُ عليه السلام بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؟[٢] قلنا: ليس هذا نظير ذلك فإن يعقوب عليه السلام أخبر عن فعل نفسه وهو[٣] الاستغفار، ويوسف عليه السلام عن فعل الله وهو المغفرة. وإنما ذكر يوسف من غير الشرط لأن الغفران للمؤمنين[٤] محكوم عليه حتماً إما معجّلاً وإما مؤجَّلاً فقد علم أن الله يغفر لهم وإن لم يعلم وقت ذلك. والله الموفّق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١ م: فكيف.

٢ سورة يوسف، ٩٢/١٢.

٣ م ـ هو.

٤ ل ـ للمؤمنين.

ذكر يوسف النبي المرسل صلوات الله عليه

إن الله تعالى اختصّه بلطائف وكرامات ضُمّن فيها من الأعجوبات. منها حسن صورته الذي فاق بها أهل زمانه على ما قال عليه السلام: «أُعطي يوسفُ شطرَ الحُسن».[١] وأخرجه[٢] من الأصلاب الطاهرة، وآتاه الحكم والعلم والمعرفة بتعبير الرؤيا. ووصفه بأنه من عباده المخلَصين والمخلِصين.[٣] وقد ذكرنا معناهما قبل ذلك.[٤] وكذلك بشّره أبوه حين قصّ عليه رؤياه فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾.[٥] وقد علم صلوات الله عليه أن الدنيا دار مِحَنٍ وبلاء. وجعل[٦] مقدمة /[٢٦ظ] الكرامات محناً متواترة مِن صِباه إلى أن أُخرج من السجن. لكن جعل الله تعالى له في خلال تلك المحن من لوائح القرب وخصائص اللطف ما يَعجز عنه إدراك العباد؛ فقوّى بها سرّه على تحمّل تلك الشدائد ولم يقابل الإخوة حين أَلْقَوه في الجُب بل لام نفسه في تلك الحالة على ما روي أنه قال: «من خرج إلى

---

١ انظر: مسند أحمد بن حنبل، ١٤٨/٣، ٢٨٦؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٥٩؛ والمستدرك للحاكم، ٥٧٠/٢.

٢ ل: فأخرجه.

٣ يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة يوسف، ٢٤/١٢).

٤ م ـ قبل ذلك. انظر: «فصل في تفضيل الأنبياء»، ورقة ٤و.

٥ سورة يوسف، ٦/١٢.

٦ م: جعل.

اللعب كان سجنه الجُبّ»، فأُكرم في الجب بوحي الله إياه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾.[١] وبإرسال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وتوسيع الجب عليه وأنواع الكرامات بحيث لو تُرك إلى آخر عمره فيها لم يَضجَر ولم يسأم. ولكن لما كان في حكم الله تعالى إرساله إلى عباده وتمكينه في بلاده[٢] أخرجه من الجب بنوعٍ لطيفةٍ قيَّضَ الرَّكْب لإدلاء الدلو حتى خرج من الجب. وقد ارتاضت نفَسه من الجموح عن مجاري القضاء فوقع في أيدي الركب وبيع المزايدة والاسترقاق بالثمن البخس وإنه أشد على الكرام من كل غَرام. وهو في كل تلك الأحوال يرى نفسه تحت تصريف الله تعالى ومجرى تقديره.

وقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.[٣] لا يجوز صرف الآية على بيع الإخوة إياه بعد خروجه من الجب على ما ذكر[٤] في ظاهر القصة، إذ ليس في الآية دليل على ذلك، ولا تجوز الشهادة عليهم بلا دليل، بل فيه إشارة إلى أن ذلك البيع من /[٢٧و] السيارة، إذ سبق ذكرهم بقوله: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ ثم قال: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾،[٥] ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.[٦] والكناية في قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾[٧] راجعة إلى السيارة قطعاً، وكذا[٨] الكناية في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ﴾ وهذا هو الأشبه.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾،[٩] ليس المراد منه ما ذكر أصحاب الظواهر أنهم لم يرغبوا في شراه[١٠] لخوفهم أنهم يؤاخذون بذلك. بل المراد ما ذكر الفقيه أبو الحسن الرُّسْتُفَغْنِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: منّ الله عليه بأن يَبَّسَ على أصلاب الرجال في ذلك الركب شهواتِهم الباعثةَ على النظر

---

١ سورة يوسف، ١٢/١٥.
٢ ل: في بلاد.
٣ سورة يوسف، ١٢/٢٠.
٤ م: ذكرنا.
٥ سورة يوسف، ١٢/١٩.
٦ سورة يوسف، ١٢/٢٠.
٧ م: وشروه.
٨ م: فكذى.
٩ سورة يوسف، ١٢/٢٠.
١٠ م: شرائه.

إلى الغلمان وصرف[١] أعينهم عن النظر إليه تشهّياً واستحلاءً لئلا يلحقه عيبُ استمتاع الأعين منه مع كمال حُسن صورته. فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان»؛[٢] جعل للعينين[٣] حظًا من الزنا فصرف أعينهم عن نظر الشهوة إليه فهو معنى قوله ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. ثم لم يصرف نظر النسوة عنه بالشهوة حتى قال: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾؛[٤] لأن انقطاع شهوة النساء وإعراضهن عن الرجل نقص في حال الرجل، فعصمه عن ذلك[٥] النقص بأن ركّب فيه شهوة روحانية دلّ ذلك على كمال رجوليته. ثم أبان عصمته بقوله: /[٢٧ظ] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾.[٦] ودلالة أن تلك الشهوة كانت روحانية لأن نساء الأشراف قلّ ما يرغبن في مماليكهن بالشهوة الهوائية بل يأنفن من ذلك. فلما لم تصبر بل راودته واحتالت في ذلك حتى غلّقت الأبواب عُلم أنها كانت شهوة روحانية.

وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾،[٧] فيه دليل أن يوسف لم يمَلْ إليها بل فرّ منها حتى احتاجت إلى تغليق الأبواب عليه. ثم قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ ردًا لمراودتها، وذكّرها إحسان سيده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾. إني[٨] أراعي حق من اشتراني وآواني فأنت أولى بذلك مني. ويجوز أن يكون المراد من قوله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ هو الله تعالى فمثل هذا ظلم و[٩]﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.[١٠] وفيه دليل أن الزنا كان محرماً في كل حين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾،[١١] تكلّموا فيه من وجوه. قال[١٢] أصحاب الظواهر: إن يوسف همّ بها لقِربانها كما همت هي به، ونقلوا

---

١ ل + الله.
٢ مسند أحمد بن حنبل، ٤١٢/١؛ ٣٤٣/٢، ٣٤٤، ٣٧٢، ٤١١.
٣ م: للعين.
٤ سورة يوسف، ٢٣/١٢.
٥ م: عن هذا.
٦ سورة يوسف، ٢٤/١٢.
٧ سورة يوسف، ٢٣/١٢.
٨ ل: لأني.
٩ ل ـ و.
١٠ سورة يوسف، ٢٣/١٢.
١١ سورة يوسف، ٢٤/١٢.
١٢ في النسختين: وقال.

في كيفية ذلك أشياء لا يحلّ ذكرها، لكنه انصرف عن ذلك الهم لما رأى برهان ربّه. قالوا: رأى جبريل صلوات الله عليه على رأس الجدار، وقالوا: رأى يعقوب عاضًا[1] على شفته فامتنع عند ذلك. وهذا وحش من القول، يردّه العقل والكتاب، فإن الهم بامرأة الغير خيانة بالغيب وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾،[2] ولو همّ بها /[٢٨و] لكان هذا القول منه كذباً. وكذلك[3] أخبر عن النسوة أنهن قلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، وأي سوء أقبح من قصد الزنا. وكذا قالت امرأة العزيز وهي أعرف بحاله من غيرها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[4] وكذلك قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.[5] والفحشاء هو الزنا، والسوء هو القصد إلى الزنا. وقال بعضهم: همَّ بها همَّ نكاحٍ، وقال بعضهم: همّ بدفعها[6] عن نفسه، وقال بعضهم: همّ بالفرار عنها، إلى غير ذلك من الأقاويل في تأويل الهمّ من يوسف عليه السلام. وهذا[7] كله تكلّف وخروج عن مقتضى الآية، فإن قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ مقروناً بكلمة ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[8] يقتضي نفي الهمّ عند رؤية البرهان أصلاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾،[9] يقتضي نفي الركون عند تثبيت الله تعالى إياه. وكذا قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾،[10] فهذه[11] الصيغة دلالة ظاهرة على نفي الهمّ من يوسف عليه السلام فلا حاجة إلى تأويل الهمّ. لكنّ هذه الصيغة يشتمل[12] على فائدة زيادة[13] على النفي لأنه لو نفى الهمّ عنه مطلقاً لظنّ بعض الناس أن يوسف عليه السلام لم يكن فيه شهوة

---

١ م: عاصا.
٢ سورة يوسف، ٥٢/١٢.
٣ م: وكذى.
٤ سورة يوسف، ٥١/١٢.
٥ سورة يوسف، ٢٤/١٢.
٦ ل: همّ بها بدفعها.
٧ ل: هذا.
٨ سورة يوسف، ٢٤/١٢.
٩ سورة الإسراء، ٧٤/١٧.
١٠ سورة آل عمران، ١٥٩/٣.
١١ م: وهذه.
١٢ ل: يحتمل.
١٣ ل: يشتمل زائدة.

الرجال، وإنه منقَصة لا يجوز اتصاف الأنبياء به، فبيّن الله تعالى أنه لو تُرك وطبعَ البشرية /[٢٨ظ] لهمّ بها وإنما لم يَهُمَّ بها لأنه رأى البرهان.

وأما تفسير البرهان لا يجوز أن يكون رؤية جبريل عليه السلام أو رؤية[١] يعقوب في تلك الحالة فإنه مدحه بامتناعه عن الهمّ برؤية البرهان، وكل من رأى في تلك الحالة صورة ملك أو إنسان لامتنع عن الهمّ فلا يكون فيه مدحاً ليوسف عليه السلام ولا خصوصية له. لكن البرهان ههنا هو[٢] رؤية جلال الله وعظمته واطّلاعه على فعل العبد ونيته، وكثرةِ نعم الله عليه وشدة افتقاره إليه في كل لحظة، وقدرته على إهلاكه بأسرع مدة، وقبح مخالفة أمر الله. وهذا يوافق ما روي أن زَليخا غطّت وجه صنم لها في تلك الحالة فقال يوسف عليه السلام: «أنت تستحين من معبود باطل لا يرى ولا يشاهد ولا يثيب ولا يعاقب أفلا أستحيي من الله الجبار المهيمن القهار؟»[٣].

وقوله[٤] تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾،[٥] استبق يوسف عليه السلام للفرار منها[٦] واستبقت زَلِيخا[٧] لغلق الباب أو لأخذه وردّه. وهذا يؤكّد عصمة يوسف عليه السلام حيث جاهد في إزالة المعصية عن نفسه. وفيه دليل على أن المجاهدة بإزالة المعصية عن نفسه فضيلة.[٨] وقوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾،[٩] إنما قال ذلك لأنها أحالت بالذنب إلى يوسف فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾[١٠] وإلا لم يُفشِ سرّها بين يدي زوجها، لكنها لما اتّهمت يوسف عليه السلام افترِض عليه أن /[٢٩و] يُبيّن حقيقة الحال إزالة للتهمة عن نفسه كيلا يختلّ فائدة الرسالة.

---

١ م: ورؤية.
٢ م - هو.
٣ م: من اله جبار مهيمن قهار.
٤ ل: قوله.
٥ سورة يوسف، ١٢/٢٥.
٦ م - منها.
٧ م - زليخا.
٨ م - وفيه دليل على أن المجاهدة بإزالة المعصية عن نفسه فضيلة.
٩ سورة يوسف، ١٢/٢٦.
١٠ سورة يوسف، ١٢/٢٥.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾،[1] إنما اختار السجن على مراودة النساء إبانة لصدق ورعه عن محارم[2] الله تعالى حيث كان السجن أحب إليه من الوقوع في المعصية. والثاني أن هذا خرج جواباً لما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾،[3] هدّدته بالسجن فأخبر أن تحمّل مشقّة السجن أيسر عندي من ارتكاب هذه الفاحشة. والثالث عرف أنه في السجن مجذوب الله تعالى عن المصائب والمحن مستأنَس بذكر الله تعالى مستخلَصٌ من شرّ[4] الخلق فآثر السجن لهذا. وفي هذا[5] كله دليل على أن ابتداء المحن من الله تعالى جائز على عباده الأصفياء الأتقياء لطفاً وتقريباً لا معاقبةً[6] وتعذيباً، إذ هو صلوات الله عليه أُبتلي من وقت لم يكن سبق منه ما يوجب تعذيبه ومعاقبته وهو وقت صِباه، علم أن لله تعالى لطائف يُجريها على أوليائه في محنه كما يجريها في مننه. وفيه دليل أيضاً أن الدنيا ليست[7] بدار ثواب للأنبياء ولا بدار عقاب للأعداء، لأنها فانية والعقل يقتضي داراً أخرى هي باقية ليتميّز العدو من الولي، فيُكرم[8] الولي ويهان العدو. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.[9]

/[٢٩ظ] وقوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾.[10] فيه دليل على[11] أن أهل السجن كانوا يرجعون إليه في حوائجهم وفتاويهم، وهو عليه السلام كان يقدّم الدعاء إلى التوحيد في مقام رسالته نحو قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.[12] ولا ينظر إلى حالة المحنة بل يتمثّل أمر الله تعالى في تبليغ الرسالة.

---

١ سورة يوسف، ٣٣/١٢.
٢ ل: من محارم.
٣ سورة يوسف، ٣٢/١٢.
٤ م: مرشد.
٥ ل: وهذا.
٦ م: لا معاقبة هي.
٧ ل: ليس.
٨ م: ويكرم.
٩ سورة القصص، ٨٣/٢٨.
١٠ سورة يوسف، ٣٦/١٢.
١١ م - على.
١٢ سورة يوسف، ٣٩/١٢.

وقوله: ﴿وَقَالَ] لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.[١] وقول[٢] بعض الناس: «استعان بغير الله فعوقب بلبثه في السجن بضع سنين» كلام وَحْشٌ. قال الشيخ الإمام أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يَسْتَعن بغير الله وإنما استعمل الأسباب كاستعمال العبد في معاشه من المكاسب[٣] وفي الحرب من إعداد السلاح وغير ذلك مع اعتقاده أن الله هو المخرج له من السجن حيث يشاء.

والثاني أن مراده إظهار رسالته ودعوته إلى الملك بهذا الطريق فإنه صلوات الله عليه دعا الساقي إلى توحيد الله بقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾.[٤] ثم قال له: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٥] يعني دعوتي ونصيحتي وعلمي الذي علّمني الله تعالى من تعبير[٦] الرؤيا. ودليل ذلك أنه أخبر أنه أنساه الشيطان ذكر ربّه ولولا ذلك لم يتكلف الشيطان[٧] في إنسائه. وحقيقة الإنساء من الله تعالى لكن[٨] أُضيف إلى الشيطان لتكلّفه وسعيه في ذلك، ونظيره[٩]/[٣٠و] في قصة آدم[١٠] للإغواء. وما روي أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رآه في السجن وقال له: يقول الله تعالى: أما اسْتَحييتَ حيث استعنتَ بغيري،[١١] وما روي أيضاً[١٢] عن النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: «رحِم الله أخي يوسف لو لم يستعنْ بصاحب السجن ما لبِثَ في السجن طول ما لبِثَ»[١٣] لا نشهد[١٤] بصحتها، إذ ليس في القرآن ما يدل على صحتها؛ ولو صح لعله عوتب على ذكر لفظ يوهم السامعين أنه يستعين بغير الله لا أنه في قلبه مستعين

---

١ سورة يوسف، ٤٢/١٢.
٢ في النسختين: وقال.
٣ م: في المكاسب.
٤ سورة يوسف، ٣٩/١٢.
٥ سورة يوسف، ٤٢/١٢.
٦ م: في تعبير.
٧ ل - الشيطان.
٨ م: ليكن.
٩ م: نظيره.
١٠ م - في قصة آدم.
١١ لم أجده فيما لديّ من المراجع.
١٢ ل - أيضا.
١٣ نصُّ الحديث كذا: قال رسول الله ﷺ: «لو لبِثتُ في السجن ما لبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتُه». مسند أحمد بن حنبل، ٣٢٦/٦، ٣٣٢؛ وصحيح البخاري، التعبير ٩؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٣٨ والفضائل ١٥٢.
١٤ ل: لا يشهد.

بغير الله،[١] كيف وقد سأل من الله تعالى في ابتداء أمره فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾.[٢]

وقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾،[٣] أظهر السكينة والوقار في الخروج عن السجن لا كالضَّجِر القلِق إذا وجد الخلاص بادر إلى الخروج. والثاني ما ذكرنا من انتظار الوحي بالإذن بالخروج لئلا يكون مستبدًا برأيه. والثالث عَلِم استخلاص الملِك إياه فأحب أن لا يبقى أثر تهمة في تلك الحادثة. والرابع أراد أن يقرّر عصمته ونزاهته[٤] في اعتقاده حتى يعتمد الملك على دعوته إلى الله تعالى إذ الخائن متّهَم فيما يدّعي. والخامس أراد أن لا يبقى في قلب سيده منه أثر كيلا[٥] يشتغل برده، فإن المسجون لِحقّ إنسان إذا أخرجه السلطان لحاجته إليه وخَصْمُه كاره لخروجه يحتال لإعادته إلى السجن لحقّه/[٣٠ظ].

وما روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «رحمَ الله أخي يوسف لو كنتُ مكانه فجاءني[٦] الخروج من السجن ما مكثتُ منتظرا للعذر»،[٧] كان هذا إخباراً عن علوّ مقامه في فراغه عن المدح والذم من الخلق. ومقام يوسف عليه السلام وإن كان عاليا فمقام النبي عليه السلام من ذلك أرفع وأعلى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾.[٨] فإن قيل:[٩] هل لا عرّفهم نفسه لِيَعْظُم سرورهم وفرحهم وفيه صلة الرحم وإيصال خبره إلى أبيه؟ قلنا: لم يفعل ذلك من غير وحي، ولأنه[١٠] علم أن انقضاء المحنة لم يأت وقته ثم لما أتى قال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.[١١]

---

١ ل ـ لا أنه في قلبه مستعين بغير الله.
٢ سورة يوسف، ٣٣/١٢.
٣ سورة يوسف، ٥٠/١٢.
٤ م: براهينه.
٥ ل: لكيلا.
٦ م: فجاء لي.
٧ نصُّ الحديث كذا: قال رسول الله ﷺ: «لو لبِثتُ في السجن ما لبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتُه». مسند أحمد بن حنبل، ٣٢٦/٦، ٣٣٢؛ وصحيح البخاري، التعبير ٩؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٣٨ والفضائل ١٥٢.
٨ سورة يوسف، ٥٨/١٢.
٩ ل ـ فإن قيل.
١٠ م: وأنه.
١١ سورة يوسف، ٨٩/١٢.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾.[١] فإن قيل:[٢] كيف استجاز زيادة الحزن على أبيه وهو عالم أنه مهتمٌّ لفقده؟[٣] قلنا: إنما قال ذلك عن وحي من الله تعالى ولم يقله جُزافاً، وعَلِم أن الله تعالى أراد استكمال صفاء يعقوبَ عن ميل الطبع إلى أخيه.

وقوله عزّ وجلّ خبراً عن يعقوب: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾،[٤] دليل على أن لا بأس للوالد بعتاب الأولاد وتقريعهم وتعييرهم لأنه هو المؤدّب لهم. وفيه دليل أن العصمة لازمة للأنبياء لئلا يقع في الوحي وهن، فإن يعقوب اتّهمهم في المستقبل بفعلهم[٥] في الماضي. ولهذا قلنا بأن للحاكم أن يردّ شهادة الفاسق /[٣١و] وإن لم يظهر منه كذب لمكان ارتكاب المحظور.

وقوله: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.[٦] فإن قيل:[٧] كيف اعتمد على مواثيقهم وقد وكّل أمرهم عند إجابتهم إلى الله تعالى فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.[٨] والجواب أن الاشتغال بالأسباب الظاهرة قضاء حق العبودية، والاعتماد على الله تعالى في خلال تلك الأسباب قضاء حق التوحيد. وهذا حال الأنبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام: «اعقِلْها وتوكّلْ».[٩]

وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾[١٠] دليلُ عَطْفِه عليهم وخلوِ باطنه من بغضهم وعداوتهم وإحالةِ[١١] محنته إلى حكم الله تعالى وتقديره. ثم إنما نهاهم عن الدخول من باب واحد بمعانٍ.[١٢] أحدها أن عادة الناس في عام القحط أنهم يستثقلون الجمع الكثير[١٣] إذا دخلوا بلدتهم للامتيار، فإذا

١ سورة يوسف، ٥٩/١٢.
٢ ل - فإن قيل.
٣ ل: بفقده.
٤ سورة يوسف، ٦٤/١٢.
٥ ل: لفعلهم.
٦ سورة يوسف، ٦٦/١٢.
٧ ل - فإن قيل.
٨ سورة يوسف، ٦٤/١٢.
٩ سنن الترمذي، صفة القيامة ٦٠؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٧٨/١.
١٠ سورة يوسف، ٦٧/١٢.
١١ م: واحال.
١٢ م: لمعاني.
١٣ م: الكبير.

دخلوا [وهم] متفرّقون لا يهول[١] أهل البلدة بواحدة. والثاني[٢] أحبّ أن لا يَظفَر[٣] بهم أعداؤهم فيحتالون لإهلاكهم. والثالث[٤] أحبّ أن لا يَعينوهم إذا رأوهم في تلك الهيئة والشهامة والقوة والضخامة، كما روي: «إن العين حق».[٥] وهو في ذلك كله ناظر إلى حكم الله وتقديره، كما قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾.[٦] وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ﴾،[٧] فيه بيان[٨] أن الأب /[٣١ظ] إذا أمر الابن بشيء[٩] لا يعرف الابن وجه الحكمة والفائدة في ذلك الأمر يجب عليه الامتثال. وفائدته قضاء حاجة الأب وثواب برّ الوالد.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ﴾، أي ضمّه إلى نفسه ليخبره بباطن أمره فقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ المفقود ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾،[١٠] أي لا تحزن إن وُجد الصاع في رَحلك. فإن قيل: ما فعل يوسف من جَعْل السقاية في رَحْل أخيه يُعدّ خديعةً وتلبيساً فيما بين الناس؟ قلنا: الظاهر أنه فعل ذلك من طريق[١١] الوحي على ما قرّرنا، ولأنه لو أمسك أخاه من غير علة ولا سبب مجاهرةً لم يتركه الإخوة وجاهدوا كل الجهد في تخليصه لمكان العهود والمواثيق التي أخذها أبوهم عليهم، لكنه لما استثنى بقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾[١٢] أحبّ يوسف أن يحبسه على وجه لا يجدون إلى ممانعته سبيلاً، وهو أن جَعَلَ السقاية في رَحْل أخيه ثم سأل عن الإخوة: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ. قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ﴾،[١٣] يعني الذي أخذه جزاؤه.[١٤] وكان هذا حكم شريعة يعقوب

١ ل: لا يهون.
٢ م: والثانية.
٣ ل م: أن لا يفطر.
٤ م: والثالثة.
٥ صحيح البخاري، الطب ٣٦؛ واللباس ٨٦؛ وصحيح مسلم، السلام ٤١ ـ ٤٢.
٦ سورة يوسف، ٦٧/١٢.
٧ سورة يوسف، ٦٨/١٢.
٨ م ـ فيه بيان.
٩ ل: شيء.
١٠ سورة يوسف، ٦٩/١٢.
١١ م: بطريق.
١٢ سورة يوسف، ٦٦/١٢.
١٣ سورة يوسف، ٧٤/١٢ ـ ٧٥.
١٤ م ـ يعني الذي أخذه جزاؤه.

عليه السلام أن من سرق شيئاً يُحبس السارق بدَلَ المسروق، فلما حكموا بهذا أَخْرج الصاع من وعاء أخيه فتركوه بحكمهم فلم يقدروا على منعه، وقد طيّب قلب أخيه من قبلُ فلا يخاف[1] عنه بحبسه.

/[٣٢و] قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.[2] وقوله: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.[3] قال الشيخ أبو منصور: إن المنادي باسم السارقين لم يكن يوسف ولا كان هذا النداء بأمر يوسف، وإنما المؤذّن[4] بعض خَدَمه وهو لا يعرف حقيقة الحال، بل فُقِد الصاع بعد خروجهم من الدار[5] فنادى بهذا الاسم.[6] والدليل[7] على أن يوسف عليه السلام لا يُجوّز تسميتهم سارقا قوله حين قالت الإخوة: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾:[8] ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾،[9] ولم يقل: «أن نأخذ إلا[10] من سرق متاعنا»، فدلّ أنه لم يقل ولا أمر به. ويحتمل أن يكون هذا القول من المؤذّن على وجه الاستفهام، معناه ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.[11] ولأنهم أخرجوا الصاع بغير أمر الملك، ومن أخرج شيئاً من دار إنسان بغير أمر المالك فهو ضامن وإن لم يعلم المخرج بإخراجه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾.[12] قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: لا حاجة لنا إلى تحسين كلامهم بتوجيه السَّرَق على يوسف إذ لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء، فيجوز أن يكون ذلك القول منهم كَذِباً على يوسف. ولكن مع هذا /[٣٢ظ] ذكر أهل التأويل أن

---

١ م: ولا يخاف.
٢ سورة يوسف، ٧٦/١٢.
٣ سورة يوسف، ٧٠/١٢.
٤ ل: كان.
٥ ل: بهذا الدار.
٦ قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٣٩/٧ ـ ٣٤٠.
٧ م: فالدليل.
٨ سورة يوسف، ٧٨/١٢.
٩ سورة يوسف، ٧٩/١٢.
١٠ م ـ إلا.
١١ سورة يوسف، ٧٠/١٢.
١٢ سورة يوسف، ٧٧/١٢.

يوسف سرق صنماً في صباه عن قوم كيلا يعبدوه، فأرادوا ذلك. وقيل: إنه كان عند عمّته سنتيْن[١] في صغره، فلما أراد يعقوب[٢] أن يحمله من عندها لم تَصبر على فراق يوسف [و]احتالت[٣] حيلة يبقى يوسف معها فشدّت مِنْطَقة كانت[٤] عندها وأنها بَقيت من إبراهيم عليه السلام ميراثاً لها، فشدّت على وسط يوسف من غير أن يعلم يوسف عليه السلام، ثم نادت أن سُرقت المنطقة.[٥] فلما وجدوا على وسط يوسف أخذته بحكم شريعتهم، فبقي يوسف عندها إلى أن ماتت. فعامل يوسف مع أخيه ما عاملت عمّته معه ليبقي أخوه عنده كما بقي هو عندها. فلما سمع ذلك يوسف من إخوته أسرّها في نفسه تكرّماً ولم يُبدِها لهم منتظِراً لانقضاء وقت المحنة.

وقول يعقوب صلوات الله عليه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾،[٦] دليلُ أنه علم بطريق[٧] الوحي أن يوسف حي ولم يأكله[٨] الذئب ولكن لم يُظهر على بنيه ولم يكذّب صريحاً بل قال ذلك على وجه الترجي فقال: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾،[٩] والتحسّس هو الطلب بجميع الحواسّ، أمرهم بهذا مبالغة في الطلب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ [إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ]﴾،[١٠] هذا منه تذكيرهم بما سبق من سوء فعلهم ليجدّدوا الانتباه والاهتمام. وقوله: وأخيه، كأن /[٣٣و] أخاه شكا إليه من سوء معاملتهم معه بعد يوسف، أو لما رأى منهم تقريع أخيه عند خروج الصاع من رحله كأنهم اتّهموه[١١] بالسرقة وعنّفوا عليه ظنًّا وحسباناً. دليله ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، بحقيقة الحال. فلما سمعوا هذه المقالة بعد أمر أبيهم بالتحسّس من يوسف تأمّلوا وتفكروا فوقع في نفوسهم أنه يوسف، فقالوا:

---

١ م: سنين.
٢ ل - يعقوب.
٣ ل: احالت.
٤ م: هي كانت.
٥ م: هي المنطقة.
٦ سورة يوسف، ٨٧/١٢.
٧ م: من طريق.
٨ ل: لم يأكله.
٩ سورة يوسف، ٨٧/١٢.
١٠ سورة يوسف، ٨٩/١٢.
١١ م: اتهموا.

﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾، يعني من أمّي وأبي، أو هو الذي وفّى بحق الأخوّة. وقوله:[١] ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ بالجمع بيننا وتفضيلنا عليكم. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي يتّق عن الحرام ويصبر على الحلال، أو يتّق عن الجفاء على الغير ويصبر على الجفاء عليه، أو يتّقِ في النعم ويصبر في المحن. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾،[٢] مَن عامل معاملتنا لم يُحْرَمْ مثل هذا الجزاء. فلما عرفوا ذلك ندموا واعترفوا بما صنعوا فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.[٣] فلما اعترفوا جاملهم يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ يعني لا أُعيّركم اليوم بفعلكم،[٤] ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾.[٥] قيل: إنه دعا بالمغفرة، وقيل: هو إخبار عن المغفرة لكنه قطع القول بالمغفرة بالوحي من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾،[٦] قيل: كان ذلك القميص من الجنة أرسل [به] الله تعالى على إبراهيم حين ألقِي /[٣٣ظ] في النار ولهذا وجد رائحته من بعيد. ولا يُعتمد على هذا، فإن يعقوب لم يجد رائحة القميص بل قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾.[٧] وقال الشيخ أبو بكر بن أبي إسحاق الكلاباذي: إن هذا القميص كان[٨] ابتداءَ انكشاف محنة يعقوبَ، ومحنته كانت فَقْدَ ما يُشاهِد في صورة يوسفَ فلاحَ له في سرّه في لوائح ذلك الكشوف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾، فلم يعرف حَفَدته من حقيقة حاله فتوهّموا أنه يذكر[٩] ذلك من غلبة حبّ يوسف، فأضافوا ذلك إلى حبّه فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.[١٠]

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾،[١١] فإنما[١٢] فعلوا ذلك

---

١ ل ـ وقوله.
٢ سورة يوسف، ١٢/٩٠.
٣ سورة يوسف، ١٢/٩١.
٤ م: اليوم وبعد اليوم بفعلكم.
٥ سورة يوسف، ١٢/٩٢.
٦ سورة يوسف، ١٢/٩٣.
٧ سورة يوسف، ١٢/٩٤.
٨ م ـ كان.
٩ م: تذكر.
١٠ سورة يوسف، ١٢/٩٥.
١١ سورة يوسف، ١٢/٩٦.
١٢ م: وإنما.

بأمر يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾،[١] وهذا دليل أنه قال ذلك بالوحي[٢] حيث حكم بقوله ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، فقال يعقوب عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[٣] وهذا نوع تثريب للحفدة، وفيه دليل أنه يجوز للعبد أن يُظهر صدق حالته لنفي التهمة عن كلامه خصوصاً إذا كان مقتدًى به.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.[٤] فإن قيل:[٥] هلاّ ذهب هو بنفسه إلى أبويه قضاءً لحقوقهما؟ والجواب ما ذكرناه[٦] من صدق الأنبياء لانتظار الوحي، فالظاهر أنه[٧] إنما فعل ذلك عن وحي، ولأنه /[٣٤و] لو مضى إليهم لاختلّ أمر الملِك وضاعت الرعية بغيبته، وذلك حق عامٌّ. ولو أتوا إليه لا يختلّ حالهم بل يحسُن ويصلُح. ولأنه أراد أن يُبصر أهلُ مصر أباه وإخوته ويعرفون جاهه ومنزلته فيعلموا أنه لم يَصِر ملِكاً من[٨] غير أصل ولا ادّعى النبوّة من غير نسب. ولأنه أراد أن يُبصر يعقوب وجميعُ أهله نعم الله عليه بعد انقضاء المحنة فيفرَح يعقوب بما أنعم الله عليه فيشكرَه[٩] على ذلك. ولو ذهب إليه[١٠] لا يمكنه الإخبار على الوجه إذ ليس المعاينة كالخبر. ولأن حاله كونُه ولداً ويعقوبُ والداً إن كان يقتضي أن يذهب يوسف إليه فحالة كون يعقوب محبًّا ويوسف محبوبا يقتضي أن يذهب يعقوب إليه، إذ المُحِبّ هو الطالب والمحبوب هو المطلوب، فالشرط أن يذهب الطالب إلى المطلوب لا المطلوب إلى الطالب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾،[١١] قدّم إكرام الأبوين على الإخوة. وما يروَى أنه لم ينزل لأبويه عن السرير أو عن الدابة لا معنى له، فإن واحداً من عُرْض الناس[١٢] لا يستجيز من نفسه مثل هذا مع أبيه

---

١ سورة يوسف، ٩٣/١٢.
٢ م ـ وهذا دليل أنه قال ذلك بالوحي.
٣ سورة يوسف، ٩٦/١٢.
٤ سورة يوسف، ٩٣/١٢.
٥ ل ـ فإن قيل.
٦ ل: ما ذكرنا.
٧ ل ـ أنه.
٨ م: عن.
٩ ل: وليشكره.
١٠ م: ولو ذهب هو إليه.
١١ سورة يوسف، ٩٩/١٢.
١٢ عُرْض الناس: أي العامة.

فكيف النبي المرسل مع أبيه وهو نبي مرسل[١] أيضاً، والتكبر والتجبر ليسا من صفات الأنبياء خصوصاً /[٣٤ظ] مع الآباء. وما يروى أنه[٢] «بسبب هذا لم يخرج من نسله نبي» يكذّبه قول[٣] أهل التاريخ، فإنهم ذكروا أن كثيراً من الأنبياء خرجوا من نسل يوسف. وفي الآية دليل أن يوسف عليه السلام استقبلهم وتلقاهم خارج المصر وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.[٤] وإنما يصح هذا إذا رآهم خارج المصر، وأما لو رآهم على السرير في المصر لم يصح قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، وقد دخلوا مصر.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾،[٦] يعني أخذ بأيديهما ورفعهما على السرير مكرِماً إياهما، ولو جلس معهما محترِماً إياهما لم يبعد من الصواب. وما يروى في القصة أن أمه ماتت قبل هذا الوقت لم يبلغ تلك الرواية في الصحة والإتقان حدًّا يعارَض به[٧] ظاهر القرآن. فالأخذ بظاهر الكتاب أولى، ولو صح يحتمَل أنها كانت خالته والخالة تسمى أمًّا كالعم يسمى أباً.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾،[٨] قال بعضهم: إن السجود في ذلك الزمان كان جائزاً لغير الله تعالى للتواضع والإكرام لا للعبادة. وقال بعضهم: كان منهم نوع تواضع وتعظيم ليوسف فعُبّر عنه بالسجود أي بالخضوع[٩] والتواضع. وقال بعضهم: سجد إخوته أمّا لم يسجد أبواه. وهذا خلاف الكتاب فإن في رؤيا يوسف /[٣٥و] كان سجود أحدَ عشرَ كوكبا وَالشمس والقمرِ، ثم قال في هذا الوقت: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، فدلّ أن السجود كان من أحد عشر أخاً ومن أبويه: الشمس والقمرَ. وقيل: يحتمل أن يكون[١٠] السجود لله شكراً ليوسف، يعني لأجل يوسف خرّوا سُجّداً، وهذا تأويل بعيد.

---

١ ل: النبي المرسل.
٢ ل م: أن.
٣ م: نقل.
٤ سورة يوسف، ٩٩/١٢.
٥ ل ـ وقد دخلوا مصر.
٦ سورة يوسف، ١٠٠/١٢.
٧ ل ـ به.
٨ سورة يوسف، ١٠٠/١٢.
٩ م: الخضوع.
١٠ م: أن السجود له.

ثم ذكر يوسفُ نعم الله وإحسانه إليه بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾[١] ولم يذكر الخروج من الجُبّ كيلا يكون فيه شبهة التثريب على إخوته، فإن فيه تعريضاً بإلقائهم إياه في الجُبّ وقد وعدهم أن لا يكون عليهم بعد ذلك تثريب. ثم أضاف ما وقع بينه وبين إخوته إلى نَزَغات الشيطان بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾.[٢]وقد أضاف هذا إليهم قبل ذلك فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾،[٣] لأن في تلك الحالة لم يعترفوا بعدُ. فلما اعترفوا بقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾،[٤] أي ما كنا إلا خاطئين صرف عنهم إلى الشيطان. هذا كما أخبر الله تعالى عن آدم عليه السلام ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾،[٥] فلما اعترف آدم بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾،[٦] صرف إلى إبليس فقال:[٧] ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.[٨]

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.[٩] ذكر شكر[١٠] نعم الدنيا رَجاءَ /[٣٥ظ] أن يوصلها[١١] الله بنعم الآخرة ويبدّل الملك الزائل بالملك الباقي. وعرف أن ذلك لا يكون إلا بأن يتوفّاه على الإسلام فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي﴾.[١٢] عرف منة الله تعالى بهدايته إلى الإسلام ورأى نفسه في قبضة تصريفه فسأل التثبيت؛ كما قال ﷺ في كل وقت وحين: «يا مقلّبَ القلوب والأبصار ثبِّتْ قلبي على دينك».[١٣] والأشبه أن يكون الإسلام ههنا هو تسليمَ الكل إلى الله تعالى عند توفّيه لا عقد الإسلام الذي هو الإيمان والتوحيد. وقوله تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾،[١٤] فإن كان مراده من هذا الدعاءَ في الدنيا فهو أن يبلّغه درجة

---

١ سورة يوسف، ١٠٠/١٢.
٢ سورة يوسف ١٠٠/١٢.
٣ سورة يوسف، ٨٩/١٢.
٤ سورة يوسف، ٩١/١٢.
٥ سورة طه، ١٢١/٢٠.
٦ سورة الأعراف، ٢٣/٧.
٧ ل: قال.
٨ سورة البقرة، ٣٦/٢.
٩ سورة يوسف، ١٠١/١٢.
١٠ م: ذكر وشكر.
١١ م: أن يصلها.
١٢ سورة يوسف، ١٠١/١٢.
١٣ مسند أحمد بن حنبل، ٩١/٦، ٢٥١، ٢٩٤؛ وسنن الترمذي، القدر ٧، والدعوات ٨٩، ١٢٤.
١٤ سورة يوسف، ١٠١/١٢.

آبائه من العصمة والدعوة والمجاهدة لإعلاء كلمة الحق، وإن كان مراده في الآخرة فهو أن يجمع بينه وبينهم في دار القرب والأنس والكرامة، كما قال: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾،[2] حجة على الجاحدين لنبوّتك، فإنهم عرفوا أن محمداً لم يختلف إلى أهل الكتاب ولا قرأ بنفسه[3] لأنه كان أميًا،[4] ثم قص هذه القصة /[٣٦و] عليهم على حسب ما يجدونه في كتبهم من غير تفاوت، فدل ذلك أنه عن وحي الله تعالى إياه. ولهذا نقول: لا ينبغي أن يزاد في هذه القصة على ما نقله القرآن، فإنه حجة على أهل الكتاب ولو زدتَ فيه شيئاً ليس في القرآن ذكرُه ربّما يخالف ذلك[5] كتبهم فيتيقّنون بكذبه فلا يلزم[6] عليهم الحجة.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾.[7] وقال في أوّل السورة: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.[8] وقد ذكرنا بعض تلك العبر والآيات في تصاريف أحوالهم وما جرى منهم من التقلّب[9] في النعم والمحن والسفر والحضر والجدب والخصب والخطأ والاعتذار والتسليم والتوكل والاعتبار، فعلى مَن بعدَهم الاقتداءُ بهم في كل تلك الأحوال. والحمد لله على كل حال.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (سورة النساء، ٦٩/٤).

٢ سورة يوسف، ١٠٢/١٢.

٣ ل: ولا قرأ الكتب بنفسه.

٤ ل: كان أميًا بنفسه.

٥ ل: ذلك يخالف.

٦ م: فلا يكزم.

٧ سورة يوسف، ١١١/١٢.

٨ سورة يوسف، ٧/١٢.

٩ ل: في التقلب.

ذكر النبي المرسل الكليم موسى صلوات الله عليه وسلامه

إن الله تعالى اختصّ موسى عليه السلام فاصطفاه برسالاته وبكلامه[١] وأوجب ذلك خلوصه عن شوائب الأهواء النفسانية وهو معنى قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾،[٢] أي أخلصناك إخلاصاً.[٣] قاله ابن عبّاس رضي الله عنه:[٤] ولهذا سُمّي الصائغ فتّاناً لأنه يلقي الذهب في النار فيتميّز الغِش من الخالص. فالأنبياء لما خُلقوا للسّفارة بين الله وبين خلقه اقتضت الحكمة /[٣٦ظ] كونهم موصوفين بالصفات[٥] البشرية مطهَّرين عن معايبهم وخبائثهم لتَلْزم الحجة بهم على الخلق كما ذكرنا.

فأكثر الله تعالى ذكر موسى في كتابه في شرح أحواله وبيان مناقبه وفضائله فقال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾،[٦] أي ذا جاه. والوجيه عند الله من يتوجه إليه وجوهُ خلقه بالإقبال إليه، وذلك لجذب الله تعالى إياه وتصفيته عن العادات المذمومة والأخلاق الرديّة. ومن وصَفَه بالفَظاظة والضجَر والغِلظة فهو من الحشوية، فإنهم لا يعرفون صفات الأنبياء ولا يميّزون بين

---

١ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ (سورة الأعراف، ١٤٤/٧).

٢ سورة طه، ٤٠/٢٠.

٣ انظر: مفاتيح الغيب لفخرالدين الرازي، ٥١/٦.

٤ ل: قال.

٥ في النسختين: بصفات.

٦ سورة الأحزاب، ٦٩/٣٣.

الغضب وصلابة الإيمان، وبين الضجَر وبين الجِدّ في إقامة حقوق الله تعالى وبين مطالبة حظ النفس. ثم إنما أكثر الله ذكر موسى عليه السلام في القرآن لأن اليهود يطعنون على رسول الله بالحسد وكانت[١] طباعهم مجبولة على الحسد. فأثنى الله تعالى على موسى على لسان رسوله إزالةً لتهمة الحسد عنه وإلزاماً للحجة على اليهود في تسوية ذكر موسى على ما هي في التوراة من غير تفاوت، فيعرفوا أنه ينطق بوحي الله فتلزم الحجة عليهم. ولأن مجاهدة موسى مع الكفار كانت أشد، فإن الأنبياء غيرَ الخليل يجاهدون الكفار الذين لم يكونوا مدَّعين /[٣٧و] الألوهية[٢] لأنفسهم، وموسى عليه السلام جاهد أَعْتَى خلق الله وأشنَعهم دعوى وهو فرعون حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾،[٣] ثم زاد في عناده وطغيانه فأنكر أن يكون[٤] غيره إلهاً وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.[٥] ومن تابعه من قومه بالإيمان كان في أفهامهم بَلادة لا يعرفون حقائق الأمور بواحدة، حتى قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.[٦] وعبدوا العجل ثانياً، واتّهموا موسى في التوراة ثالثاً، وأبَوْا قبول الكتاب رابعاً إلى غير ذلك من مشاجراتهم مع موسى عليه السلام، فقصّ الله تعالى ذكره على نبيه ليتقوّى به على الصبر على جفاء قومه. ولهذا قال عليه السلام حين سمع ما يكره: «رحِم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر[٧] من هذا فصبر».[٨] ولأن في أحواله من وقت ولادته إلى حين مماته من الأعجوبات ما يكون دلالة ظاهرةً على كمال قدرة الله وجميل لطفه مع أنبيائه وأحبّائه في السلامة عن الآفات ودفع المخاطرات على ما نطق ببعضه القرآن وشرح جملتَه أهلُ النقل من[٩] أحوال موسى عليه السلام.

---

١ م: وكان.
٢ في النسختين: للألوهية.
٣ سورة النازعات، ٢٤/٧٩.
٤ ل: بأن يكون.
٥ سورة القصص، ٣٨/٢٨.
٦ سورة الأعراف، ١٣٨/٧.
٧ م: بأكبر.
٨ مسند أحمد بن حنبل، ٣٨٠/١، ٣٩٧، ٤٣٦؛ وصحيح البخاري، الخمس ١٩؛ وصحيح مسلم، الزكاة ١٤٠ - ١٤١.
٩ م: مع.

وقوله خبراً عن موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾،[١] إنما قال ذلك حين قتل القبطيَّ. لِم سمَّى فعله ظلماً وإنه قتل كافراً ظالماً من آل فرعون، وقتلُ فرعون /[٣٧ظ] وأتباعه من أفضل الحسنات؟ والجواب أنه لم يسمّه ظلماً لعين القتل وإنما سمّاه ظلماً لتفرده بذلك في خلال الأعداء، فأراد بالظلم الإضرار على نفسه. وقد يقال في العادات إذا باشر الإنسان فعلاً يُخاف منه عليه الهلاك «قد[٢] ظلمتَ نفسك». والثاني أنه[٣] استعجل العقوبة قبل[٤] الوقت فإنه لم يأته أمر من الله[٥] تعالى بقتلهم ومقاتلتهم فسمّاه ظلماً لهذا. والثالث لعله فعل ذلك ميلاً إلى وليه ونُصرة لشيعته لا لإظهار دين الله تعالى ونَصره ملتّه، فعدّ ذلك من نفسه ظلماً. والرابع لعله تبيّن له أن المستنصر كان ظالماً ولم يكن مستحقاً للنصرة، دليل ذلك قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾،[٦] عزم أن لا يكون بعد هذا ظهيراً للمجرمين.[٧] ثم امتُحن بهذا المستنصِر في اليوم الثاني ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾.[٨] قيل: إنما امتحن بذلك لأنه ترك الاستثناء في قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يقل:[٩] «إن شاء الله» وإن كانت[١٠] عقيدته ثابتة بأن لا يكون شيء إلا بمشيئة الله تعالى، ولكن الأدب كان إجراء هذه الكلمة على لسانه. ففيه دليل أن العبد يعاتَب بخلل الظاهر[١١] وإن كان في الباطن على الصواب. ولكن الأصوب أن لا يُجعل هذا[١٢] عقوبة /[٣٨و] من غير دليل، فللّه أن يمتحن عباده بما شاء ابتداءً من غير سابقة ذنب ولا زلّة. وإنما لم يذكر موسى قوله «إن شاء الله» تأكيدا لعزمه فإن الاستثناء لا يستحسَن في العزائم والعقود. فلا يصح أن يقول: «أصوم غداً إن شاء الله».

---

١ سورة القصص، ١٦/٢٨.
٢ ل: فقد.
٣ م ـ أنه.
٤ م ـ العقوبة قبل.
٥ ل: من الله أمر.
٦ سورة القصص، ١٧/٢٨.
٧ م: لمجرم.
٨ سورة القصص، ١٨/٢٨.
٩ م: فلم يقل.
١٠ ل: فإن كانت.
١١ م: الطاهر.
١٢ ل: هذه.

وقوله تعالى خبراً عنه: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.[١] أضافه إلى الشيطان لإلقاء الوسوسة في قلبه، وإنما ألَقى الوسوسة[٢] في قلبه لأمرين أحدهما رَجاء أن يخوّفه من غير الله فيشتغل قلبه بذلك. والثاني رجاء[٣] أن يُقتصّ منه فيَهلك فلا تظهر[٤] منه معالم الدين كما ظهر. وهذه الوسوسة بهذه النية سمّاه من عمل الشيطان لا نفسِ الفعل الذي باشره لأنه قتل الكافر وأنه ليس بعصيان.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾،[٥] هذا خوف طبع البشرية الذي[٦] جُبل عليها الآدميّ لا خوفُ الاعتقاد. ثم موسى إن خاف من فرعون وأتباعه خاف من القضاء والقدر أن يُجرَى على أيديهم، فهو خافَ من الله تعالى بواسطة اختيار العباد.[٧] والدليل على أن قتل القبطي لم يكن ظلماً قوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[٨] سمّاهم ظالمين في طلب القصاص من موسى عليه السلام، فدل أن نفس الفعل من موسى لم يكن ظلماً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾.[٩] قال[١٠] الشيخ أبو منصور رحمه الله: /[٣٨ظ] هذا ردٌّ على المتقشّفة[١١] إنهم يحرّمون طيبات الدنيا وما فيه من[١٢] راحة النفوس وهذا موسى عليه السلام استراح بالظلّ.[١٣]

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.[١٤] دليل على جواز إظهار الحاجة والفاقة عند الله تعالى ولا يكون ذلك شكاية من الله[١٥] بل هو مندوب إليه، وإنما المذموم إظهار ذلك عند الناس على وجه الشكاية. وفي

---

١ سورة القصص، ١٥/٢٨.
٢ م - الوسوسة.
٣ ل - رجاء.
٤ م: فلا يطهر.
٥ سورة القصص، ٢١/٢٨.
٦ م: التي.
٧ م: اختياره للعباد.
٨ سورة القصص، ٢١/٢٨.
٩ سورة القصص، ٢٤/٢٨.
١٠ م: فقال.
١١ ل: المتفسّقة.
١٢ م - من.
١٣ قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٨/١١.
١٤ سورة القصص، ٢٤/٢٨.
١٥ م - من الله.

الآية دليلٌ أن التوكل لا ينافي السؤال[١] باللسان من الله تعالى فإنه تعبّد وتضرّع إلى مولاه، والله تعالى يحب من عبده ذلك. فإذا جاز لنبي مرسل مِثل موسى عليه السلام أن يسأل الله تعالى حاجته فلغيره أولى. ولقد كانت طائفة من الأخيار يتركون السؤال عن الله[٢] تعالى قصداً ولكن لم يكن ذلك منهم تحريماً للسؤال، وإنما ذلك حالة بهم أقعدَتهم عن السؤال فلم يقدروا في تلك الحالة على تسوية الباطن مع استعمال الظاهر، كما وصفهم النبي عليه السلام: «إن لله تعالى عباداً أسْكَتهم خشيته من غير عِيٍّ ولا بُكْم» إلى أن قال: «إذا رأيتَهم خِلْتَهم مرضَى وما بالقوم من مرض».[٣] فهذه صفةُ الضعفاء من الأصفياء إذ خشية رسول الله عن الله أبلغ من خشية كل أحد، على ما قال عليه السلام: «أنا أعلَمُكم بالله وأخشاكم لله»[٤] ومع ذلك لم تسكته ولم تُمْرضه.[٥]

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾،[٦] فيه دليل أن العقود الموقّتة /[٣٩و] إلى آجال يجوز ولا يكون فيه تطويل الأمل، فإن مثل هذه العقود جائز على احتمال الحياة إلى تلك المدة. فهما عقدَا[٧] إلى مدة ثماني حجج أو عشر حجج ولكن لم يقطعا القول بأنهما يعيشان إلى تلك المدة. ولأن شُعيباً عليه السلام كان نبيًا مرسلاً فمن الجائز أنه عرف من طريق الوحي أنهما يعيشان إلى تلك المدة. والاعتماد على الوجه الأول. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾،[٨] دليل على أنه يجوز الاقتصار بشهادة الله تعالى على سائر[٩] العقود دون عقد النكاح.

---

١ م: لا ينافي في السؤال.
٢ ل: من الله.
٣ ل: من مرضى. لم أجده مرفوعاً فيما لديّ من المراجع، ولكن هذه العبارة وردت في تفسير الطبري على لسان فتًى مخاطِبا أيوب عليه السلام في وصف أولياء الله، تفسير الطبري، ٦٧/١٧؛ وانظر أيضًا: الجامع الصغير للسيوطي، ٣٧/٢.
٤ مسند أحمد بن حنبل، ٦١/٦، ١٢٢؛ وصحيح البخاري، الإيمان ١٣، الأدب ٧٢، الاعتصام ٥.
٥ في النسختين: لم يسكته ولم يمرضه.
٦ سورة القصص، ٢٧/٢٨.
٧ م: حواجر عقدا.
٨ سورة القصص، ٢٨/٢٨.
٩ م: شهادة الله تعالى في سائر.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، فيه دليل أنه لا بأس بنقل المرأة إلى غير بلدها برضاها إذا كانت بالغة وبرضا أبيها إذا كانت صغيرة، وأنه يجوز المسافرة للمرأة إذا كان معها مَحرَم. وقوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾،[١] يحتمل أن يكون ناراً حقيقة ويُحتمل أن يكون نوراً ولكن أُرِي لموسى بصورة النار. وقد قال أهل التحقيق: إن المرئي[٢] نور حقيقةً ولكن لما كان موسى طالباً للنار أُلبِس على ذلك النور كسوةُ النار لتَنبعِث[٣] نفس موسى عليه السلام إلى طلب ذلك فيصل إلى النور في أدنى مدة. فسمع: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾،[٤] قال أهل التأويل: إن الله تعالى قَيّض في تلك الشجرة ملَكاً بلّغ كلامه إلى موسى عليه السلام. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: هذا تكلّف بل الله /[٣٩ظ] تعالى أن يُسمع كلامه موسى ممن[٥] شاء وكيف شاء.[٦] قال المصنّف: إن أنطقَ الشجرة لم يبعُد.

وتكليم الله تعالى غير مكيَّف ولا مدرَك ولا موقَّت، وسماع موسى مدرَك مكيَّف موقّت. كلّمه تكليم ربوبية إكراماً لموسى عليه السلام. وتعيين المكان والوقت لتخصيص موسى عليه السلام. فإن قيل: فهلاّ ظهر بواسطة جبريل عليه السلام كما ظهر لسائر المرسلين، ومعلوم أن وساطة جبريل أفضل فإنه مقام المرسلين؟[٧] والجواب أن هذا التكليم لم يكن وحي إرسال وإنما كان وحي نبوّة في مقدمة رسالته. وإنما الإرسال قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾،[٨] فهذا كان بجبريل.[٩] ومناداة الله ربوبية لا يكيَّف ولا يوقَّت ولا يدرَك، وإنما الكيفية والوقت والإدراك والابتداء والانتهاء لسماع موسى عليه السلام. وفي لطفه عزّ وجلّ إيصال سماع النداء ذا صوت وذا وقت وذا

---

١ سورة القصص، ٢٨/٢٩.
٢ م: إن المريّ.
٣ ل: لينبعث.
٤ سورة القصص، ٢٨/٣٠.
٥ م: ممّ.
٦ قارن بما ورد في تأويلات القرآن، ١١/٣٣.
٧ م - ومعلوم أن وساطة جبريل أفضل فإنه مقام المرسلين.
٨ سورة طه، ٢٠/٤٣.
٩ م + ومعلوم أن وساطة جبريل أفضل فإنه مقام المرسلين.

علة بمناداة[1] ربوبية منزَّهة عن أوصاف الحدث والصوت والوقت والعلة، جعلَ موسى عالماً بكلامه حتى تيقّن بحقيقة ما نودي.

واختلف الناس في أن سماع[2] موسى لكلام الله كان بواسطة أم بغير واسطة. والاختلاف راجع إلى أن نفس الكلام هل هو مسموع أم لا؟ واختيار الشيخ أبي منصور[3] رَحِمَهُ اللهُ أن نفس الكلام /[٤٠و] ليس بمسموع بل المسموع هو الصوت فحسب.[4] ولكن سماعَ أصوات وحروف تدل على معنى الكلام يسمّى سماعَ الكلام. دليله قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾.[5] وكذا قراءة كلام الله وحفظ كلام الله، ونفس الكلام ليس بمقروء ولا محفوظ[6] [و]لا يَحُلّ هذه المواضع. بل هو صفة قائمة بذات الله تعالى لا يقوم[7] بلساننا ولا بقلوبنا وآذاننا، وإنما تقوم[8] بها دلالات تدلّنا على كلامه. والأصل في معرفة هذه الحقائق قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾،[9] نفى تكليم الله تعالى للبشر إلا بهذه الطرق الثلاثة: إما بالوحي[10] أو بواسطة الحجاب كالشجر،[11] أو بواسطة الرسول. والتكليم إذا كان بطريق الوحي لا يدخل فيه السماع لأنه عبارة عن إيقاع معنى خفِي في القلب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾،[12] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾.[13] وإن كان التكليم بطريق الحجاب كانت واسطة الصوت والحرف لازمة كما إذا كان بطريق الرسول. وإن كان التكليم بطريق إرسال الرسول كانت الوسائط فيه أكثر: الإرسال، والرسول، واختيار الرسول،

---

١ ل: لمناداة.
٢ ل: في سماع.
٣ م: أبو منصور.
٤ قارن بما ورد في كتاب التوحيد للماتريدي في نفس الموضوع، ص ٨٥ ـ ٩١.
٥ سورة التوبة، ٦/٩.
٦ م ـ ليس بمقروء ولا محفوظ.
٧ م: لا تقوم.
٨ ل: وإنما يقوم.
٩ سورة الشورى، ٥١/٤٢.
١٠ م: الوحي.
١١ ل ـ كالشجر.
١٢ سورة القصص، ٧/٢٨.
١٣ سورة الأنعام، ١٢١/٦.

وخلقُ الصوت والحرف في الرسول. فلو سمّى أحد تكليم الله موسى تكليماً بغير واسطة لا يبعُد، على معنى أنه لم يكن فيه واسطة /[٤٠ظ] كتاب ولا رسول. ولا يكون المراد أنه كلّمه بغير واسطة الصوت والحرف كما يقال: كلّم السلطان فلاناً بغير واسطة، أي بغير واسطة كتاب ولا رسول لا بغير واسطة صوت ولا حرف. وحق هذه المسألة كتب الكلام. وهذا المختصر لا يحتمل أكثر من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾،[١] قال بعضهم: هذا من الله تعالى تقرير على موسى أنها عصاه، وهي غير مجوّفة حيث توكّأ عليها وهَشّ بها على غنمه فيبني عليه ما يُظهر فيها من المعجزة، فلا يشكّ أنها عصاه جُعلت حيّة حقيقة فلا يشتبه عليه متى رأى عِصِيّهم وحِبالهم يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعَى.[٢] ويُحتمل أن يكون هذا من الله تعالى إظهار ما في ضمير موسى من الاستعانة بما ضُمّن من المنافع في العصا ليُطهّر[٣] سرّه عن النظر إلى من سواه. وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾،[٤] فيه دليل أن لا بأس بإضافة الشيء[٥] إلى نفسه بحكم اليد ردًّا على من جعل هذا زلّة من موسى عليه السلام كيف وقد أضاف الله تعالى اليمين[٦] إلى موسى بقوله[٧] ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾،[٨] فإذا جاز من الله تعالى أن يضيف اليد إلى موسى لِم لا يجوز من موسى أن يضيف العصا إلى نفسه؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾،[٩] [يكون] تطهيراً لسرّه عن النظر إلى منافعه وتقريراً لأمر معجزته/ .[٤١و] ويحتمل أن يكون هذا

---

١ سورة طه، ١٧/٢٠.
٢ اقتباس من الآية ٦٦ من سورة طه ٢٠: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.
٣ م: ليظهر.
٤ سورة طه، ١٨/٢٠.
٥ م: السيئ.
٦ م: اليمن.
٧ م: لقوله.
٨ سورة طه، ١٧/٢٠.
٩ سورة طه، ٢٠/٢٠.

ابتداء محنة لموسى من غير أن يكون منه نظر إلى منافع العصا أو اعتمادٌ عليها.

وقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾[1] يعني خاف وفرّ منه. وقد ذكرنا أن مثل هذا الخوف خوف طبع وذلك جائز من الأنبياء، إذ هم جُبلوا على خلقة البشرية. ويجوز أن يكون خوفه من الله تعالى بالنظر إلى تلك الأعجوبة، إذ كان يعرف أنه لا صنع لأحد في جَعْل العصا حيّة فخاف من الذي جعلَها حيّة، لا من الحيّة. بخلاف الخليل عليه السلام لم يَخَفْ من نار نُمْرُود لأن ذلك كان باختيار نمرود وصُنْعه. وهو كان عدوّ الله والخليلُ حبيبَ الله، فأيقنَ[2] الخليل أنه لا يسلّط عدوّه على خليله. بخلاف موسى عليه السلام فإنه رأى صُنع الله في تغيير العصا حيّة من غير واسطة فهاب قهر الله وخاف تغيير حاله كتغيير حال العصا حيّة. ولأن الخليل كان في نهاية الحال وهو حال الرسالة.[3] وقد مضت عليه التجارب فصار مرتاضاً بكليّته. وموسى كان في بداية[4] حال النبوّة ولم يبلُغ حال الرسالة.

وقوله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، يحتمل أن يكون هذا مَنْع الخوف من موسى لا أن يكون خائفاً فنهاه عنه، ويكون معناه أُثْبُتْ على يقينك. ويجوز أن يكون خائفاً بحكم طبع البشرية على ما ذكرنا. ويحتمل أنه خاف /[٤١ظ] أن لا يميل طبعه إليها بعد ذلك، فأمّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.[5]

وأوفقُ ما في الباب أنه لما كان من حكم الله تعالى أنه يذهب إلى فرعون ويستقبله في دعوته الأهوال قدّم أسباب الفراغ من خوف المخلوقين، وإن كان اعتقاده على الخوف من الله تعالى يقوّي[6] اعتقاده بالفراغ عن الخلق ليزداد قوة على الدعوة. وقال بعضهم: إن العصا لم

---

١ سورة القصص، ٣١/٢٨.
٢ م: فأتقن.
٣ ل: حالة الرسالة.
٤ م: ابتداء.
٥ طه، ٢١/٢٠.
٦ م: فقوى.

تنقلب حيّة لكنه عمل عمَل الحيّات.[١] وهذا فاسد، لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾،[٢] ولأنه لو كان كما قالوا لأشبَهَت[٣] سحر السحَرة فإنه كان عصا وحبلا ويعمل عمل الحيّات[٤] من السعي.

قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفرق بين السحر والمعجزة أن السحر يتلاشى عند الامتحان والمعجزة تزداد تأكّداً[٥] بالامتحان. وقال أيضاً: إن السحرة لما عملوا السحر غايَتَه عرفوا أن ما أتى به موسى ليس في حد السحر،[٦] وفرعون لما لم يكن يعرف السحر فلم يفرّق بين السحر والبرهان، فعدّه من جملتهم فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.[٧]

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾،[٨] دليل أن حَمْل الرسالة إلى المرسل إليه لا يكون وَهَناً في إعلاء كلمة الله تعالى بل هو إلزام الحجة عليهم وتيسير المحجة لبعضهم. وفيه دليل /[٤٢و] أنه لا بأس بنقل العلم إلى منازل السامعين إذا لم يكن للناقل فيهم طمَع، خصوصاً إذا كان السامع عاتِياً معانِداً فإنه لا يختلف إلى العلماء، فالعالم يأتي إليه مبلّغاً إليه أمر الله ونهيه، وليس في ذلك إذلال نفسه لأن الذل في الطمع والهوى والشهوة. وفي امتثال أمر الله تعالى وإلزام حجّته عِزُّ الدارين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾،[٩] رد على الجبرية[١٠] حيث أثبت له فِعل الطغيان. وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾،[١١] دليل على استحباب الاستعانة بالله في كل الأمور، وهو ردّ على المعتزلة حيث زعموا أن العبد

---

١ م: الحيّاة.
٢ سورة طه، ٢٠/٢٠.
٣ ل: لاشتبهت.
٤ م: الحياة.
٥ م: تأكيدا.
٦ م: في جدّ سحر.
٧ سورة طه، ٢٠/٧١.
٨ سورة طه، ٢٠/٢٤.
٩ سورة طه، ٢٠/٢٤.
١٠ الجبرية: هم القائلون بالإجبار والاضطرار في الأعمال وإنكار الاستطاعات كلها، منهم جهم بن صفوان والنجّار وحفصُ الفَرْد. انظر: الملل والنحل للشهرستاني، ١/١٠٨ - ١٠٩؛ والفرق المفترقة لأبي محمد العراقي، ص ٦١.
١١ سورة طه، ٢٠/٢٥.

أُعطي جميع ما يحتاج إليه في إقامة الأمور.[١] وما قالت الحشوية: «إن موسى كان ضَجِراً سيء الخلُق» كلام فاسد وجهل[٢] بأحوال المرسلين، بل هذا الدعاء منه[٣] لاستمداد النور في صدره. فإنه عليه السلام وإن كان منشرح الصدر بنور الله كما أن كل مؤمن فهو[٤] منشرح الصدر ولكن سأل الله تعالى[٥] من زيادة الشرح ما يكفيه في مقام الرسالة ويؤيّده في الوفاء بحقها. وكيف يستجيز المسلم أن يسمّي صلابة موسى عليه السلام في دين الله ضجَراً وسوء خلُق وإنهما يَنشآنِ من غلبة الهوى،[٦] والصلابة تنشأ[٧] من نور الإيمان وكذا ينشأ[٨] منه اللين والرفق في أوانه أيضاً.[٩] كما عامل موسى مع قومه عند خطابهم بجهلهم /[٤٢ظ] [قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾،[١٠] وكذا عند قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾،[١١] فأما الهوى ينشأ منه الضَّجَر وسوء الخلق والغلظة في حال والمداهنة والتملقُ في حال، وكلاهما مذمومان.

وقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾،[١٢] لما علم أنه صار مأموراً لمخاطبة[١٣] الأغبياء العُتاة[١٤] أحبّ أن يكون لسانه جارياً في البيان بحيث يُلزم الحجة على الجاحدين. وما يُنقل أنه كان على لسانه لُكْنة من جمرة أصابته وقت صباه لا حاجة إلى ذلك. وفيما ذكرناه كفاية. وطَعْن فرعون بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾،[١٥] نوع افتراء ومكابرة كما في سائر الأنواع، وأراد أنه لا يبين الحجة. ومعنى الكلام كما حكى الله تعالى عن

---

١ م: الأمر.
٢ م: وهو جهل.
٣ م - منه.
٤ م: وهو.
٥ م - الله تعالى.
٦ م: هي.
٧ في النسختين: ينشا.
٨ م: نشأ.
٩ ل: أيضاً منه.
١٠ سورة الأعراف، ١٢٩/٧.
١١ سورة الأعراف، ١٣٨/٧.
١٢ سورة طه، ٢٧/٢٠ ـ ٢٨.
١٣ م: بمخاطبة.
١٤ م: العتات.
١٥ سورة الزخرف، ٥٢/٤٣.

مُحاجَّة موسى معه،[١] قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾،[٣] أمره بالمجاملة[٤] ليتقرّر ذهن فرعون وعقله على حاله فيتمكّن من التدبر والتأمل في دعواه فتلزم[٥] الحجة عليه. ولو خاشنه هاج منه الغضب وأنه يستر العقل فلا /[٤٣و] يمكنه التفكر. ولأنه لو خاشنه في الابتداء ربّما يقول: إنك متى عرضتَ عليّ على وجه الرفق فلم أقْبَلْه حتى تُخاطِبني بهذا؟ فقطع حجّته بذلك. ثم ذكرَ هذا القول اللين تفسيرَه في آية أخرى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ. وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ.﴾.[٦]

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.[٧] استعان من الله تعالى ليعطيه ما يكفيه من أسباب دعوته في رسالته. وقيل: إن هارون كان أفصح بياناً منه وأكثر جاهاً ومحبّة في قلوبهم وإن كان موسى أفضل عند الله تعالى.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.[٨] حقيقة الخوف من الله، لكن لمّا كان فرعون في قسمة الله تعالى قائماً على الطغيان تفكّرا[٩] أن المشيئة[١٠] لله لا ندري[١١] أيسلّطه علينا أو يُسلّطنا عليه. والربوبية غير معلولة، والله غني عن طاعات العباد. وفيه دليل أن ما في الغيب مستور عن علم العباد. وقال بعضهم: كان هذا الخوف منهما خوف الطبع لا خوف الاعتقاد، فإنهما لما سمعا الله تعالى يصفه بالطغيان وأمرهما بالملاينة معه فسألا على نظم ما سمعا فآمنهما الله تعالى بقوله: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾،[١٢] أي معكما بالنصرة والإيواء. وفي ذلك تنبيه

---

١ م ـ وأراد أنه لا يبين الحجة ومعنى الكلام كما حكى الله تعالى عن محاجة موسى معه.

٢ سورة الشعراء، ٢٣/٢٦ ـ ٢٥.

٣ سورة طه، ٤٤/٢٠.

٤ م: بالمحاملة.

٥ ل: فيلزم.

٦ سورة النازعات، ١٨/٧٩ ـ ١٩.

٧ سورة طه، ٢٩/٢٠.

٨ سورة طه، ٤٥/٢٠.

٩ م: نفكرا.

١٠ في النسختين: المشيّة.

١١ م: لا يدرى.

١٢ سورة طه، ٤٦/٢٠.

أن الله تعالى غَيْب عن الخَلق وليس /[٤٣ظ] بغائب عنهم فيطمئنّ قلوبهم بذكره وينتبِه[١] أسرارهم بالطاعة.[٢] جعل لطائف نعمه في خلال محنه ليعلم أن الدنيا ليست[٣] بدار تمييز بل هي دار صبر وشكر. قال الشيخ الحكيم أبو القاسم السمرقندي:[٤] الصبر بداية والشكر نهاية. وقال أيضاً: الصبر أرض الهدى والشكر سماء الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾،[٥] علّمهما كيف يخاطبان المتمرّد العاتي فلا يبتدئان الخطاب من أنفسهما بل من الله تعالى. كان الفقيه الإمام أبو الحسن الرُّسْتُفَغْنِي[٦] يُقسّم الأمر بالمعروف على مراتب، فقال: يأمر السلطانَ وينهاه بذكر كلام الله تعالى فيقول: إن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا، فإنه لا يستنكف من قبول أمر الله ورسوله وإن كان لا يعمل به. ويأمر والديه بالحكاية عن عالم من العلماء، ويأمر الأستاذ[٧] في ضمن السؤال، ويأمر المؤذّن وإمام المسجد خالياً عن القوم، ويأمر الأشراف[٨] والأغنياء بذكر نعيم الجنة، ويأمر[٩] الأوساط بالرغبة والرهبة على حسب ما يوجب الحال تعليماً لا تعظيماً. وكان ﷺ مائلا إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله عليه السلام: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه وما دخل الخُرْق في شيء إلا شانه»،[١٠] فإن الأمر بالمعروف لإقامة الحق لا للانتقام بانتهاك الحرمة.

وقوله /[٤٤و] خبراً عن موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾،[١١] دليل أن تخليص المبتلى وإعانته مقدَّم على الدعوة إلى توحيد الله تعالى لغنى[١٢] الله

---

١ م: ويتننه.
٢ ل: باطلاعه.
٣ ل: ليس.
٤ م - أبو القاسم السمرقندي.
٥ سورة طه، ٤٧/٢٠.
٦ م - الرستفغني.
٧ م: وبأمر الأستاذ.
٨ م: وبأمر الأشراف.
٩ م: وبأمر.
١٠ انظر: مسند أحمد بن حنبل، ٥٨/٦، ١١٢، ١٢٥؛ وصحيح مسلم، البر والصلة ٧٨؛ وسنن أبي داود، الجهاد ١.
١١ سورة طه، ٤٧/٢٠.
١٢ م: لعيز.

وكرمه وحاجة العبد إلى ذلك. فإن بني إسرائيل كانوا محبوسين بسبب[١] موسى عليه السلام كيلا يَظهر موسى من بينهم، فنسبهم إلى أبيهم وهو يعقوب عليه السلام إشعاراً لحرمتهم[٢] وإعلاءً لدرجتهم. واسمه إسرائيل ومعناه «عبد الله». وقد ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام في مواضع على التطويل والاختصار مع توفير المعنى، وذلك أظهر دليل على أنه[٣] يُخبر[٤] عن الله تعالى. وقد ذكرنا أن الحذف والاختصار والتطويل والتقدم والتأخر والوقت والمكانَ كلَّ ذلك في سماع الخلق والدلالة على كلام الله تعالى، وكلامه صفة أزلية لا يحاط ولا يكيَّف ولا يزاد ولا يحذَف. تعالى[٥] الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾،[٦] دليل على أنه لا يسلَّم على الكافر ومع ذلك لا يُخلَى الكلام عن السلام ولكن يصرَف إلى من هو أهل له. وكذا في هذه الشريعة السلام على أهل الذمة أو على قوم فيهم مؤمنون وكافرون.

وقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾،[٧] أجابهم مع إلزام الحجة عليهم أن ربّنا من خلقَ كل شيء وهدى من هَدَى، /[٤٤ظ] هذا معنى الآية. ثم فصَّل خلقه فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾،[٨] أراد هذه الآيات،[٩] وهي أسباب السعادة، إلزاماً للحجة عليه وبياناً أن الهداية من الله تعالى منّة وفضل[١٠] على من يشاء من عباده.[١١] وحال السحرة دليل على أن أسباب الشقاوة لا تمنع

١ م: لسبب.

٢ م: بحرمتهم.

٣ أي النبي محمد عليه السلام.

٤ م: لخبرهم.

٥ م - تعالى.

٦ سورة طه، ٢٠/٤٧.

٧ سورة طه، ٢٠/٤٩ - ٥٠.

٨ سورة طه، ٢٠/٥٣.

٩ أي أراد الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ (سورة طه، ٢٠/٤٧) هذه الآيات، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/٥٣ - ٥٤).

١٠ في النسختين: وفضلا.

١١ م - من عباده.

السعادة وحالُ موسى وفرعون دليل على[1] أن أسباب السعادة لا تمنع الشقاوة. وحُكي أن بعض القُصّاص قال عند أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] في السحرة: إن قوماً هم أشقياء أصحابُ النار في الغداة صاروا سعداء أصحابَ الجنة في المساء؟ فقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القصَصَ حرام على من لم يُحسن مثل هذا. وهذا مذهب أبي حنيفة أن السعادة تتغير بالشقاوة والشقاوة تتغير بالسعادة.[3] وذلك لا يُوجب تغير القضاء والقدر إذ الإسعاد غير السعادة والإشقاء غير الشقاوة، وهي مسألة التكوين والمكوَّن.

وقوله تعالى خبراً عن السحرة: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾،[4] دليل أن مجرّد الإيمان صالح لمغفرة الذنوب ونيل الدرجات، فإنهم نالوا بعد إيمانهم درجة الشهادة فلا يُحرَمون ما دونها من الدرجات، وإن كانت تُنال أيضاً بالأعمال ولكن تُنال فضلاً لا تعليلاً، ولله أن يمنَّ على عباده بما شاء:[5] إما بالهداية للإيمان،[6] أو بتوفيق الطاعات، أو بإدخال الجنة، أو برفع الدرجات. وكل ذلك بفضل الله ورحمته لا علّةَ لشيء من ذلك، خلافاً للمعتزلة.

وقوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ /[٤٥و] عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾،[7] لا يجوز الاستفهام من الله تعالى لكن هذا النظم لاستخراج ما في ضميره.

---

١ م - على.

٢ هو أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، إمام الحنفية، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخزّ ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. وكان قوي الحجة، من أحسن الناس منطقاً. من آثاره: الفقه الأكبر، والعالم والمتعالم، والرد على القدرية الخ.. توفي ببغداد سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م. انظر: الأعلام للزركلي، ٤/٩؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ١٠٤/١٣.

٣ انظر: شرح العقائد للتفتازاني، ص ١٦٣.

٤ سورة طه، ٧٣/٢٠.

٥ م: بما يشاء.

٦ في النسختين: بالإيمان.

٧ سورة طه، ٨٣/٢٠.

وموسى عليه السلام يعتقد أن الله تعالى عالم بما في ضميره لكن ائتمر[1] بإظهار ما طالبه تعبّداً ورجوعاً إلى أوصاف نفسه بالعجز والافتقار. وحفظُ الباطن للاعتقاد وحفظ الظاهر للتعبّد والاعتبار.[2]

وقوله: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾،[3] ليس فيه[4] إعلام بمكان القوم لكن على سبيل الاعتذار:[5] أني لم أترُكهم مستخفًّا بهم ولكن طلبُ رضاك أزعجَني من بينهم فتقدَّمتُهم. [هذا] إبانة منه جلّ جلاله أن مقصود موسى في جميع أحواله[6] مع قومه طلب رضاء الله تعالى، فعرَّفه الله تعالى بما أراه من التنبيه أن رضاءه في مخالطته مع قومه والأولى بحاله انتهاؤه معهم. وفيه دليلٌ أن الانبساط في التقرب[7] من غير إطلاق المقرَّب ممنوع. قال الشيخ الحكيم: بصدق التواضع يُضيئ جوهرُ العبودية.

وقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾[8] يا موسى، إبانة أن الكفر بقضاء الله وقدره. وقال بعضهم: إن موسى عوتب بهذا التحزين لعجلته على قومه إذ ظاهر النظم يوجب ذلك. وقال بعضهم: عوتب لاتّكاله في حفظ قومه على أخيه، ورووا في ذلك خبراً لا يعتمد على سنده. والصحيح ما قلنا: إن محن الأنبياء يجوز أن تكون[9] مبتدأةً[10] /[٤٥ظ] لا جزاءً على فعلهم. ثم أضاف الإضلال إلى السامريّ لأنه هو المتكلِّف لذلك السبب، وضلالُه بإضلال الله والكل غير معذورين لصحة اختيارهم في تعيين[11] أحد الجائزين. وعِلم الله تعالى وقضاؤه لا يجبرانه[12] على الفعل أصلاً.

---

١ في النسختين: ايتمر.
٢ م: والاعتباد.
٣ ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/٨٤).
٤ ل: منه.
٥ ل: الاعتزاز.
٦ م: أعماله.
٧ ل: في التقريب.
٨ سورة طه، ٢٠/٨٥.
٩ ل: أن يكون.
١٠ في النسختين: مبتداه.
١١ م: في تعين.
١٢ م: لا يختبر انه.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾،[١] فيه دليل أن الغضب لله تعالى عند رؤية المعاصي فرض وإن كانت[٢] المعاصي بقضاء الله وقدره، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك لا ينافي الأمر والنهي والغضب والعقوبة من الله تعالى فكذا من العباد. وفيه إشارة إلى سرّ القدر الذي لم يؤذَن بالتفكر فيه ولا بالبحث عنه. قال مُطَرِّف بن عبد الله:[٣] كلّنا في ذات الله أحمَق؛ يعني إن نظرْنا إلى قضائه نتوهّم أن العبد معذور فيما يفعل، وإن نظرْنا إلى الأمر والنهي وإلى اختيار العبد ربما نظنّ[٤] أن العبد مستبِدّ بما يفعل. ففيه إفناء علم العبد وتحيّرُه عن درك[٥] الربوبية. بل الحق فيه أن نعتقد أن العبد غير مستغنٍ[٦] عن الله تعالى في سائر أحواله وأفعاله بل هو متقلّب في مشيئته؛ وأنه غير مجبور ولا مسخَّر كالحيوانات والجمادات، بل هو موفَّق في ضمن أسباب العبودية أو مخذول مطرود في ضمن أسباب الشقاوة. قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾.[٧] وقوله: /[٤٦و] ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾،[٨] أي ميّزنا الخبيث من الطيّب. وافتتان الذهب إدخاله في النار ليتميز الغِشّ من الخالص.

وقوله تعالى خبراً عن موسى: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ. أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾،[٩] هذه مخاطبات جرت فيما بينهما على أسباب العبودية التي أُمر العبد بها تعبّدا. ثم إنما عاتبه على ترك الاتّباع لأنه عرف أن هيبته في

---

١ سورة طه، ٨٦/٢٠.
٢ م: كان.
٣ هو أبو عبد الله مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير الحرشي العامري، زاهد، من كبار التابعين. ثقة فيما رواه من الحديث. ولد في حياة النبي ﷺ. ثم كانت إقامته ووفاته في البصرة. توفي سنة ٨٧هـ/٧٠٦م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٥٤/٨.
٤ ل: يظنّ.
٥ ل: عن مدرك.
٦ في النسختين: مستغني.
٧ سورة الأنعام، ١٢٥/٦.
٨ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (سورة طه، ٨٥/٢٠).
٩ سورة طه، ٩٢/٢٠ ـ ٩٣.

قلوبهم أكثر من هيبة هارون فقال: هل لا اخبرْتَني حين نشأت هذه الفتنة فأتصرّف[١] فعسى[٢] لا يقعون في الكفر؟ فاعتذر هارون بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾. كان هذا من غاية الصلابة والحمية في دين الله تعالى وترك المداهنة في الدين بحكم الأخوّة والوُصْلة. ويحتمل أنه وقع عنده أن أخاه قصّر في منعهم وزجرهم عن ذلك حتى قال هارون: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾. وهذا غاية الجهد والجدّ في المنع حتى بلغ إلى القتل. وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾،[٤] توقّياً من هارونَ عن شماتة الأعداء أنهم يروْنَه مقهوراً مستذِلاً معهم، «ولا تُسَوِّ بيني وبين الظالمين العابدين العِجلَ». فقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.[٥] بيَّن أنه لم يُخاشِن أخاه جَفْوة وقسوةً بل حمِيّة وصلابة،[٦] ثم أظهر شفَقَة الأخوّة وسأل المغفرة لنفسه أوّلاً ثم لأخيه، /[٤٦ظ] كأنه أحال[٧] ذلك إلى تقصير من جهته أيضاً في وقت المناجاة عند صيرورته[٨] مغلوباً في مناجاته ومشاهداته فخفّ عليه أمر قومه في القيام بأسبابهم. دلالة ذلك أنه لما سمع الله يقول: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾،[٩] ما[١٠] اضطرب في ذلك لاستحلائه مناجاة الله تعالى. فلما شاهد ذلك بعد انقضاء تلك الحالة ظهر عليه الاضطراب، فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه[١١] إلى غير ذلك

---

١ في النسختين: فانصرف.
٢ م: بنفس حتى يقعوا.
٣ سورة طه، ٢٠/٩٤.
٤ سورة الأعراف، ٧/١٥٠.
٥ سورة الأعراف، ٧/١٥١.
٦ م + به.
٧ م: كأنه كان في حال.
٨ م - إلى تقصير من جهته أيضاً في وقت المناجاة عند صيرورته.
٩ سورة طه، ٢٠/٨٥.
١٠ م - بأسبابهم دلالة ذلك أنه لما سمع الله يقول فإنا قد فتنا قومك ما.
١١ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٥٠).

من أمارات الضجر والقلَق فاستغفر لذلك لنفسه ولأخيه،[١] ليُعلم بذلك أن العبد وإن جلّ قدره ومنزلته[٢] في الباطن يعاتَب بتقصير في الظاهر. ونظير ذلك سهو النبي عليه السلام في صلاته ما كان لاشتغال قلبه بأشغال الدنيا ولكن غلبَ على قلبه رؤية عظمة الله تعالى فغُشيَ عليه في[٣] تلك الهيبة حتى وقع السهو. ومع ذلك لما وقع التقصير في الظاهر أمر بالسجدة[٤] جبراً لذلك ليقتدِي به مَن بعدَه. وإنما خصّ نفسه وأخاه بسؤال المغفرة لأنهم كانوا كفَرَة، ولا عفو ولا مغفرة للكافر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾،[٥] ثم ذكر قصة السامريّ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾،[٦] فيه دليلٌ أنه قد يزيِّن العمل السيّء للعبد فيُباشره فيَهلك بذلك، ودليلٌ أنه يجوز أن تصير أسباب البركة لبعض الناس أسباب الهلكة، فإن رؤية آثار أقدام الرسول من أسباب البركة، ولكن لما وصل إلى أهل الشقاوة صار أسباب الهلاك /[٤٧و] ليُعلم أن الله هو النافع والضارّ بأي سبب شاء. قال الله تعالى في الأسباب الضارّة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾،[٧] ليَروا النفع والضرّ من الله تعالى ويتحرَّزوا عن الاعتماد والسكون إلى غير الله تعالى ويخافوا من التسليط لا من التسلّط. وقيل: إن آثار قدَم الرسول لم يتغيّر لكن شُؤم الاختيار أثَّر[٨] في إشقائهم وإغوائهم، كما قالوا في الحجر الأسود أنه كان أبيَض مضيئاً لكنه اسودّ لكثرة مماسّة الكفَرة. وفيه تحذير عن صحبة الأشرار والفجّار. وقيل: إنهم حُجبوا عن تلك البركة كما قال الله: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.[٩] قال أهل الحقيقة: غارَ الله على حبيبه أن يأخذ الحظّ منه من ليس بأهله.

---

١ ل: وأخيه.
٢ م: وإن جل منزلته.
٣ م: فقوى.
٤ انظر: صحيح البخاري، السهو ١ ـ ٣؛ وسنن النسائي، السهو ٢١ ـ ٢٢.
٥ سورة طه، ٢٠/٩٥.
٦ سورة طه، ٢٠/٩٦.
٧ سورة البقرة، ٢/١٠٢.
٨ م: أكثر.
٩ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٤٥).

وقوله تعالى: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.[١] قيل: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ كان موسى عليه السلام وكان[٢] مباركاً لوصوله إلى تلك النار، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أصحاب موسى أو الأسباب التي تركَها موسى حول النار، فدخل تلك البقعة المباركة. ويحتمل أنه لما قصد النار للاصطلاء بها ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، يعني ليس حظّك منها ما تقصده بل ما نريده[٣] لك من نيل الرسالة ومقام القربة ودرجة المكالمة. فما أكثرَ هذه البركَة[٤] من النار فهُنِّئ بتلك المقامات بهذا اللفظ.

/[٤٧ظ] وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[٥] دفع التشبيه والتعطيل كيلا يتوهّم أن مكاناً أحاطه أو زماناً أدركه. ثم ناداه بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[٦] قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾،[٧] فهذا حجاب اللطف يُوصل سماعَ موسى بكلام الله تعالى، وسماعه محدود موقّت مدرك، وكلامه [تعالى] منزّه عن هذه الأوصاف؛ فقد جعل للوقوف على كلامه لموسى وغيره من رسله حجاباً من صفتهم حتى وقفوا على كلامه في حجاب سماعهم ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.[٨]

وقوله عز وجل: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾،[٩] صفّى أسرار رسله عن غيره حتى لا يخافوا غير الله، فلم يَخَفْ موسى الحيّة ولكن خاف اللهَ فيما باشر من قتل القبطيّ فظن أن الله سلّط عليه الحيّة[١٠] عقوبة على فعله فآمنه الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يخافون عند رؤية آياتي. وقيل: إن المراد من هذا[١١] أن رسلي آمنون يوم القيامة عن عذابي كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

١ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (سورة النمل، ٨/٢٧).
٢ ل: كان.
٣ م: بل ما تريده.
٤ م + لك.
٥ سورة النمل، ٨/٢٧.
٦ سورة القصص، ٣٠/٢٨.
٧ سورة الشورى، ٥١/٤٢.
٨ سورة الأنعام، ١٠٣/٦.
٩ سورة النمل، ١٠/٢٧ ـ ١١.
١٠ ل: سلط الحية عليه.
١١ م ـ من هذا.

يَحْزَنُونَ﴾.[١] وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾،[٢] قيل: هذا استثناء منقطع والمعنى «لكن من ظلم». وقيل: «إلا» بمعنى «ولا» يعني: «لا يخاف لديّ المرسلون ولا يخاف من ظلم ثم تاب» لأني غفور رحيم.

وقوله تعالى: /[٤٨و] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾،[٣] أمره بإدخال اليد في الجيب[٤] ليكون ظهور البرهان من الغيب فيصير الجيب حجاباً، كما وضَع النبي[٥] عليه السلام أصابعه في الماء القليل حتى خرج من أصابعه من الماء مقدار ما وسّع جميع العسكر.[٦] وكذلك أظهر الحيّة من عصا موسى[٧] وإن كان قادراً بأن يسخِّر حيّة من الحيّات لموسى ولكن جعل عصا موسى حجاباً لآيته وقهره. وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾،[٨] أي بَرَصٍ تنزيهاً لموسى عما يوجب النقص والآفة.

وقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾.[٩] قال بعضهم: رأت في المنام ذلك، وقال بعضهم: أُلهمت فعلمت، وقال بعضهم: أتاها[١٠] ملَك فأخبرها بذلك. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: لا حاجة لنا إلى تعيين ذلك الطريق لكن عَرفتْ وجه الصواب في ذلك الإلهام إما من جهة الاستدلال أن الإهلاك[١١] من فرعون أغلب وجوداً من الهلاك في الإلقاء في الماء فاختارت ذلك، أو من حيث أن الله تعالى أزال الشك عن قلبها وعرّفها أن هذا الإلهام من الله تعالى كما يعرِّف الأنبياء عند بلوغ الوحي أنه من الله تعالى

---

١ سورة يونس، ٦٢/١٠.
٢ سورة النمل، ١١/٢٧.
٣ سورة النمل، ١٢/٢٧.
٤ ل: في الجنب.
٥ م: رسول الله.
٦ انظر: صحيح البخاري، الوضوء ٣٢، ٤٦؛ المناقب ٢٥؛ الأشربة ٣١؛ وسنن الترمذي، المناقب ٧.
٧ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ. قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ. قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ. فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ.﴾ (سورة طه، ١٧/٢٠ ـ ٢١).
٨ سورة النمل، ١٢/٢٧.
٩ سورة طه، ٣٨/٢٠.
١٠ م: اتاها.
١١ في النسختين: الهلاك.

بلا دليل منفصل.[١]

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، ألبسه الله تعالى من نور محبّته بحيث لا يصبر عنه من رآه ولا يحتمل قلب المحبّ والعدوّ[٢] إهلاكه وجعل ذلك سبباً لحفظه وصيانته. قال الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾،[٣] أي لتُغذّى وتربّى[٤] حتى أن فرعون حين رآه خاف أن يكون هذا المولود هو الذي يغيّر عليه مُلكه /[٤٨ظ] فأراد قتله فشفعت امرأته وأطمَعَته في نفعه واتّخاذه ولداً، ونظر فرعون أيضاً فأحبّه وطمع فيه فامتنع عن قتله. وقد وعد الله أمّ موسى أن يُرَدّه[٥] إليها بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.[٦] وقوله:[٧] ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾،[٨] ليس هذا بلام تعليل، لأنهم لو علموه عدوًّا لقتلوه لكنه لام إخبار عن عاقبة الأمر لمحمد عليه السلام ويسمّى لام العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.[٩] هذا الكلام[١٠] فيه خشونة وقد قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾،[١١] ولكن الوجه أنهما[١٢] أُمرا بذلك فلا بدّ لهما من الامتثال. وليس في هذا الكلام خشونة من حيث الظاهرُ فإنهما لم يصرّحا بأن العذاب نازل[١٣] عليك ولكن على من كذّب وتولّى، وهو لا يُقِرّ بأنه مكذّب ومتولٍّ[١٤] فيستمع بأن العذاب على من كذّب وتولّى. ثم يبيّن[١٥] له الحق بالحجة حتى يظهر عنده أنه هو الذي كذب وتولى، وهو المستحق لعذاب الله تعالى.

---

١ قارن بما ورد في هذه المسألة في تأويلات القرآن للماتريدي، ١٩٥/٩.
٢ م: قلب العدو والمحب.
٣ سورة طه، ٣٩/٢٠.
٤ ل - أي لتغذى وتربى.
٥ ل: أن يرد.
٦ سورة القصص، ٧/٢٨.
٧ ل - وقوله.
٨ سورة القصص، ٨/٢٨.
٩ سورة طه، ٤٨/٢٠.
١٠ م: هذا كلام.
١١ سورة طه، ٤٤/٢٠.
١٢ ل: لأنهما.
١٣ ل: ناول.
١٤ في النسختين: ومتولّي.
١٥ ل: تبين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾،[١] ما معنى المواعدة بالثلاثين ثم ضمّ العشرة إليه؟ قلنا: المقادير في الشرع مما لا يوقف عليه بالعقل، ولعل الحكمة في تفريقه التيسير على موسى فيكون أداء ثلاثين[٢] عليه أيسر، ثم إذا تمّ ذلك ضم إليه عشرة أيّام ليتمّ ما هو الموعود في علم الله تعالى. أو لأن الثلاثين هو الأصل وضمّ العشرة إليه بمنزلة الجبر لنقصان الثلاثين كسجدتي السهو /[٤٩و] بعد تمام الصلاة. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾.[٤] قال بعض الناس: اعتمد موسى على هارون في حفظ قومه فعوتب بضلالتهم.[٥] هذا وحش من الكلام أن مثل موسى عليه السلام يقطع النظر عن تأييد الله وتوفيقه ويعتمد على هارون في حفظ قومه. لكن هذا سُنّة الأنبياء وهو الاستخلاف عند غيبتهم عن قومهم والوصية له[٦] بحفظهم ومراقبتهم، كما كان من نبيّنا عليه السلام حين كان يخرج إلى الغزوات والأسفار. وما روي عن النبي عليه السلام أنه قال في آخر عمره لأصحابه حين قالوا: «ألا تستخلف علينا؟» فقال: «الله خليفتي عليكم»،[٧] عنى به أن الله تعالى يعيّن خليفتي فيكم. وقد ترك في أصحابه علامات يستدلّون بها على إقامة الخليفة بعده ليتألّفوا على إقامة الخليفة باستحسانهم

---

١ سورة الأعراف، ١٤٢/٧.
٢ م: إذا الثلاثين.
٣ نفس الآية.
٤ نفس الآية.
٥ م: بضلالهم.
٦ م: لهم.
٧ لم أجد حديثا بهذا النصّ، وإنما وردت بعض عباراته في حديثين؛ الأول ذكر رسول الله ﷺ الدجّال فقال: «إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حَجيجه دونَكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤ حجيج نفسه. والله خليفتي على كل مسلم، فمن أدركه منكم. .» انظر: صحيح مسلم، الفتن ١١٠؛ وسنن أبي داود، الملاحم ١٤؛ وسنن الترمذي، الفتن ٥٩؛ وسنن ابن ماجه، الفتن، ٣٣. والثاني عن حذيفة قالوا: يا رسول الله لو استخلفتَ علينا. قال: «إن أستخلف عليكم خليفة فتعصوه ينزل العذاب عليكم. . .» انظر: المستدرك للحاكم، ٧٠/٣؛ والمطالب العالية لابن حجر العسقلاني، ٢٥٦/٤؛ والموضوعات لابن الجوزي، ٢٩٨/١.

فتجتمع[١] عليه آراؤهم وتتّفق كلمتهم، إذ لو عيَّنه رسول الله ﷺ ربما خالفوا أمره فاستوجبوا المقت من الله تعالى. والظاهر من حال موسى عليه السلام أنه عيَّن أخاه للخلافة بطريق الوحي من الله تعالى فكيف يُعدّ ذلك زلّة منه؟ فالحاصل أن ظواهر الأنبياء مهذّبة مروَّضة مزكّاة عن الأرجاس والرذائل وبواطنهم ذا رياضة[٢] خفيّة هويّة مجذوبة عن أفكار الخلق.[٣] وبين ظواهرهم وبواطنهم برزخ لا يمتزجان. فموسى[٤] عليه السلام /[٤٩ظ] استخلف أخاه شفقة على قومه ونصيحة لأمّته كيلا يخلوا في تلك المدّة عن سائس وحارس وسلّم بباطنه أمرهم إلى الله تعالى إذ علم أن لله المشيئةَ فيهم يفعل بهم ما يشاء وهو العزيز الحكيم. ثم قال لأخيه: ﴿وَأَصْلِحْ﴾،[٥] مع علمه أنه نبي مرسل معصوم ولكن أبانه[٦] أن العبد ينبغي أن يستعين في كل نفس وخطرة ولحظة بالله تعالى ولا يأمنَ على حاله من التغيّر[٧] والانتقال. ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾،[٨] ليُعلم أن صلاح الرعيّة بصلاح الراعي فإنه هو الأصل. ولعلّ الله تعالى أجرى على لسانه ما علم أنه يظهر من قومه من سبيل الفساد، وهو عبادة العِجْل، فنهاه أن يتّبع سبيلهم إن لم يتبعوا سبيله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾،[٩] ينبئ في ظاهره عن المكان والوقت ولكنهما راجعان إلى موسى لا إلى الله تعالى، إذ هو خالق المكان والوقت؛ ولكن ليكون سماع موسى في مكان مقدّس مطهَّر كما قال: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.[١٠] وقول بعض الناس «أن نعلَيْه كانا من جِلد حِمار غير مدبوغ» تكلّف باردٌ. إنما أمره بخلع[١١] النعلين لتصل بركة ذلك المكان إلى قدَمه وبركة قدمه إلى ذلك المكان. وقيل:

---

١ م: فيجمع.
٢ ل ـ ذا رياضة.
٣ م ـ خفية هوية مجذوبة عن أفكار الخلق.
٤ م: وموسى.
٥ سورة الأعراف، ١٤٢/٧.
٦ م: اياته.
٧ م: من التغيير.
٨ سورة الأعراف، ١٤٢/٧.
٩ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.
١٠ سورة طه، ١٢/٢٠.
١١ م: يخلع.

أمر الله لموسى عليه السلام بخلع النعل كرامة له، ألا ترى أن المضيف إذا أراد أن يكرم ضيفه يأمره بالنزول[١] من مركبه وخَلع خُفّه، ويمنع عنه مركبه وسَرْجه وخُفَّه إذا أراد[٢]/[٥٠و] الركوب بعد نزوله كرامة له[٣] لا إهانة. فكذلك الله تعالى أراد إكرام موسى وكان ضيفاً بحضرته فأمره بخلع النعل كرامة له وأحبّ أن يكون سماع موسى في وقت صالح لسماعه. وتكليم الله وكلامه[٤] غير مكيّف ولا مدرك ولا محاط وسماع موسى مكيّف مدرك محاط.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾،[٥] لا يوجب تحديد كلامه ولا كونه خارج الحجاب، إذ كل هذا عن كلام الله منفِيّ.[٦] ولكن الحجاب لسماع موسى وضبطه جرياً منه على عجزه وضعفه.

فإن قيل: خُصّ موسى عليه السلام بتكليمه ولم يذكر لمحمد عليه السلام مثل هذه الكرامة؟ قلنا: لما كان الحجاب لازماً لسماع البشر فحجاب محمد أفضل من حجاب موسى. والمعنِيّ من لفظة الحجاب هو الواسطة، فحجاب محمد لغة العرب وهي أفضل اللغات وأحبّها إلى الله تعالى، وحجاب موسى عليه السلام لغة العبرانية؛ وحجاب محمد جبريل عليهما السلام المطاع الأمين ذو القوة المتينُ.[٧] وحجاب موسى الشجرة التي أخبر الله تعالى عنها قال: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾.[٨] ثم اعلم أن كل واحد من المرسلين اختصّ بنوع كرامة، وتخصيصه بنوع كرامة لا يوجب تفضيله على غيره، إذ التخصيص غير التفضيل. وسنذكر فضل محمد عليه السلام في ذكره إن شاء الله.

---

١ ل: النزول.
٢ ل: إذا أرادوا.
٣ م ـ له.
٤ ل ـ وكلامه.
٥ سورة الشورى، ٤٢/٥١.
٦ م: منتفي.
٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ. مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.﴾ (سوة التكوير، ٨١/١٩ ـ ٢١).
٨ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة القصص، ٢٨/٣٠).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.[١] روى بعض الناس عن جعفرَ الصادق[٢] وبعضُهم عن غيره أن موسى لما سأل الرؤية /[٥٠ظ] غضبت الملائكة عليه، فوثبوا من تحت العرش بأيديهم الحِرابُ، يقولون: «يا ابن عمران يا ابن النساء الحُيَّضِ ما جرأتك على الله تعالى أتشتهي رؤية ربّ العزة» إلى غير ذلك من الخرافات. وهذا الكلام من حقه أن لا يحكى لقبحه وفحشه، ولكني لما سمعت عن بعض المنتحلين إلى العلم عن مصنّف ذكر هذا في تصنيفه أوجب لي ذكره وبيان فساده. ووجه ذلك أن موسى من الأنبياء والمرسلين، وقد ذكرنا أن الظاهر من أحوالهم انتظار الوحي خصوصاً في هذا السؤال، فمن ظن أنه سأل من غير إذن الله تعالى فقد سوّى[٣] بينه وبين المجازِفين[٤] في أقوالهم وأفعالهم. والثاني أن الملائكة مأمورون في جميع أفعالهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾،[٥] وقال: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾،[٦] فكيف ينزلون غضبى[٧] بغير أمر الله. والثالث[٨] أن غضبهم عليه لو كان لكون[٩] السؤال محالاً فإذاً[١٠] هم لم يعرفوا ربّهم حيث أحالوا رؤيته، أو لم يعرف موسى ربّه حيث جوّز رؤيته، وكل ذلك باطل. قال البَشاغَري:[١١] سمعتُ الشيخ الإمام أبا بكر العِياضي[١٢] يقول: من أنكر الرؤية في الآخرة فقد زعم أن موسى لم يعرف ربّه ومن زعم هذا

---

١ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.

٢ هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بنّ الحسين السبط الهاشمي القرشي الملقّب بالصادق. سادس الأئمّة الاثني عشر عند الإماميّة. كان من أجلاّء التابعين. مولده ووفاته بالمدينة. توفّي سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٢١/٢.

٣ ل: وقد سوّى.

٤ م: المخازفين.

٥ سورة مريم، ٦٤/١٩.

٦ سورة التحريم، ٦/٦٦.

٧ م: غضبا.

٨ ل + وهو.

٩ م ـ لكون.

١٠ م: فإذ.

١١ م ـ البشاغري.

١٢ هو أبو بكر محمد بن أحمد بن العبّاس العياضي، عن الصيمري إليه انتهي علم الحساب وعلم الزيج وعمل الأشكال من كتاب إقليدس مع حفظه للمذهب وعلمه بالكتب. توفّي سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م. انظر: الفوائد البهية للكنوي، ص ١٥٦.

فقد كفر. وكان يشير إلى واحد من أهل عصره يعتقد هذا، ويقول: يطلَب[١] من السلطان أن يفرق بينه وبين امرأته.

فنقول، وبالله التوفيق: لم يكن هذا السؤال خطأً من موسى عليه السلام بل كان حكمة وصواباً عن إذن وإطلاق في مقام القرب والتكليم إظهاراً لمحبّته، واشتياقاً إلى لقائه، كما قال النبي عليه السلام: /[٥١و] «أسألك الشوق إلى لقائك ولذة النظر إلى وجهك»،[٢] وبياناً لاعتقاد الحق أنه يجوز أن يُرى بالبصر كما هو مذهب أهل السنة، وتعليماً لقومه حتى لا يسألوا بتلك اللفظة وهو قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾،[٣] فإنهم سألوا من موسى أن يُريهم الله تعالى ولا يقدر موسى أن يُريهم، وموسى سأل من الله تعالى أن يُريه. ولأنهم قالوا «جهرة»، والجهرة توجب الإحاطة وأنه يستحيل على الله تعالى. والثاني[٤] ليعلموا أن الدنيا دار معرفة وابتلاء وليست بدار رؤية وجزاء. ولكن جرت هذه المعاملة من الله تعالى مع موسى على صفة الجلال والعظمة والكبرياء فأوجبت الصَعْقَ لموسى والدَّكَّ للجبل[٥] من غير سائقة[٦] تُوجب ذلك على ما ذكرنا قبل هذا في قصة الخليل وعُزير عليهما السلام. قال البشاغري: سمعتُ[٧] الشيخ أبا الحسن الرُسْتُفَغْنِي يقول: إن الله تعالى لم يخيِّب موسى بواحدة، فإنه علق رؤية موسى باستقرار الجبل وكان استقرار الجبل محتملاً في ذاته، ولو كانت الرؤية محالاً في ذاتها لعلَّقها بما لا يتوهَّم وجوده، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.[٨]

وقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾،[٩] تعلّقت المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية

---

١ م: نطلب.

٢ مسند أحمد بن حنبل، ٢٦٤/٤؛ ١٩١/٥؛ وسنن النسائي، السهو ٦٢.

٣ سورة النساء، ١٥٣/٤.

٤ في النسختين: والثالث.

٥ يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (سورة الأعراف، ١٤٣/٧).

٦ م: سابقة.

٧ م: وسمعت.

٨ سورة الأعراف، ٤٠/٧.

٩ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.

على التأبيد بقوله:[١] ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، فنقول:[٢] التأبيد واقع على الرؤية التي سألها وهي التي في الدنيا فإنما[٣] خصّ الرؤية بدار الآخرة لأنها دار بقاء، فاختصّ برؤية الباقي من لا فناء[٤] له بخلاف الدنيا. على أن كلمة «لن» /[٥١ظ] ليست هي للتأبيد بل هي للتأكيد بدليل أنها ذُكرت مع التأقيت ولو كانت موضوعة للتأبيد لما صح قِرانها[٥] بالتأقيت؛ الدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾،[٦] ذكَر كلمة[٧] «لن» وقرَنه باليوم فعُلم أن المراد منه التأكيد لا التأبيد. ثم إن الله تعالى نفى عنه أن يبتدئ هو بالرؤية حتى يراه بجهده واختياره فقال: «لن تراني» أنت بصنعك واختيارك ولكن أُريك فضلاً وكرامةً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾.[٨] هذا نوع اعتذار من الله تعالى لموسى بالإشارة إلى حال الجبل فإنه مع شدّته وصلابته[٩] تلاشى عند التجلّي وزال عنه التمكّن والاستقرار، فكيف تَثبُت أنت يا موسى عند ذلك حتى تنظر إليّ.[١٠] ففيه إشارة إلى أن الرؤية في دار الآخرة تكون مغلوبة في إراءة الله تعالى والمعرفة في تعريف الله، فلا يصح دعواه «إني أنظر إليك[١١] وإني أعرف»، فإنه إذا أضاف رؤيته إلى نظره وصنعه عدَل عن التوحيد، كالمعرفة إذا فنِيَت في التعريف فهو يرى التعريف لا المعرفة. ولهذا الكلام زيادة شرح يطول ذكره. ثم اختصاص الجبل بالتجلّي لم يكن لعلّة أوجبَت ذلك بل لله تعالى أن يختصّ مكاناً على مكان ويُفضّل البعض على البعض من غير علّة، كالكعبة والحَرم وغير ذلك، خلافاً للمعتزلة.

---

١ م: لقوله.
٢ في النسختين: فيقول.
٣ م: وإنما.
٤ ل: ممن لا فناء.
٥ م: قراتها.
٦ سورة مريم، ٢٦/١٩.
٧ ل - كلمة.
٨ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.
٩ في النسختين + لما.
١٠ م: إليه.
١١ م - إليك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾،[١]/[٥٢و] هذا الشرط لموسى عليه السلام لا لعلم الله تعالى، فلو كان موسى[٢] مخطئاً في السؤال لردّ عليه قطعاً ولبيَّن[٣] خطأه فيه ليزول الاشتباه للسامعين وعوتب فيه؛ كما جاء لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾،[٤] فلما علق بشرط يُتوهَّم وجوده تبيَّن أنه لم يكن منفيًا من الأصل. وهذا من إحدى الأطوار لموسى عليه السلام فإنه من بدء حاله إلى منتهى عمره كان في فِتن ومحن تُعلِي[٥] مقامه درجة فدرجة، فهذا من ذاك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾،[٦] قال بعضهم: ظهر للجبل، وقال بعضهم: ظهرت آثار قدرته لا ذاته، وهذا يوافق قول المعتزلة. وقال[٧] الشيخ الإمام أبو بكر بن أبي إسحاق:[٨] إن بقاء الأشياء في الحجاب وبقاء كل صنف بحجاب آخرَ. فالأنبياء والملائكة تحت حجاب اللطف، والمؤمنون تحت حجاب الرحمة، والكفار تحت حجاب اللعنة،[٩] والجمادات تحت حجاب التسخير. إذا رُفعت تلك الحُجُب تفانتْ وتلاشتْ واضمحلّتْ، كما قال عليه السلام: «دُون الله سبعون حجابا»،[١٠] وقال عليه السلام: «إن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خشَع له».[١١] فموسى عليه السلام سأل الجذب عن الأغيار في ذلك الوقت بحيث لا يكون لسرّه نظر إلى غير الله لشُغله بالله فجذب سرّه بظهور آثار هيبته على الجبل

---

١ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.

٢ ل ـ موسى.

٣ م: وبيّن.

٤ سورة هود، ٤٦/١١.

٥ م: يعلى.

٦ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.

٧ م: قال.

٨ ل: أبو بكر بن إسحاق، سبقت ترجمته.

٩ م: حجات اللعنة.

١٠ انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١١٦/١؛ والمغني للعراقي، بذيل الإحياء للغزالي ١٠١/١ قال العراقي: إسناده ضعيف؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ٧٩/١؛ والمطالب العالية لابن حجر، ١٠٠/٣ قال ابن حجر: فيه ضعف؛ واللآلئ المصنوعة للسيوطي، ١٤/١ ـ ١٩ ذكر السيوطي لهذا الحديث طرقا متعدّدة وشواهد كثيرة، فقال: فهذه الطرق تقوي الحديث ويتعذّر معها الحكم عليه بالوضع.

١١ سنن ابن ماجة، إقامة الصلاة ١٥٢؛ وسنن النسائي، الكسوف ١٦.

حتى (خر موسى صعقا).[١] قال: التجلّي ليس عبارة عن التلألؤ والضياء وإنما[٢] هو عبارة عن الربوبية بلا كيفية، زعزَعَ[٣] الجبل عن الإمساك والتثبيت حتى صار دكًا. ثم قال: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[٤] ولم يقل: اندكَّ الجبل لئلا يتوهّم مُتوهِّم أن الجبل تلاشى في خلال تلألؤ نور لم يقم له /[٥٢ظ] بل يعتقد أن الله تعالى هو الذي جعله دكًّا ولو أمسكَه لثبَت على حاله. قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾،[٥] وهذا دليل أن التجلّي[٦] هو حقيقة الرؤية لا التوهّم والخيال إذ الجبل[٧] لا توهُّمَ له ولا خيال وهو لا يندَكُّ أيضاً بالتوهّم والخيال. ولو أعطى موسى الرؤية حقيقة وأبقاه[٨] الله تعالى مع ذلك كما في دار الآخرة لكان للطاعن فيه مجال: إنك ما أُعطيتَ الرؤيةَ حقيقة لجواز أنك تخيّلتَ شيئاً ولم يكن ذلك رؤية، لجريان الخيال على موسى بخلاف الجبل. والدليل على أن التجلّي كان[٩] حقيقة الرؤية قول النبي عليه السلام: «إنكم سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تَضامُّون في رؤيته»،[١٠] لم يرد به التشبيه والتمثيل[١١] بل أراد به التحقيق دون التشبيه كالمعرفة بدون التشبيه والتمثيل. وسُئل النبي عليه السلام: «هل رأيتَ ربّك ليلة المعراج؟» فقال: «نعم بقلبي».[١٢] ولو كان هذا السؤال محال لردَّ على السائل وأنكره عليه. وسنذكر هذا الفصل عند ذكر محمد عليه السلام. واختلفت الروايات في كيفية الاندكاك. قال بعضهم: انشقّ

---

١ هذا اقتباس من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

٢ م: إنما.

٣ ل: زعزعت؛ م: زعزعة.

٤ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.

٥ سورة فاطر، ٤١/٣٥.

٦ م: أن هذا التجلّي.

٧ م: وإذ الجبل.

٨ في النسختين: وبقّاه.

٩ ل: كانت.

١٠ مسند أحمد بن حنبل ١٦/٣، ١٧، ٢٦، ٢٧؛ وصحيح البخاري، مواقيت الصلاة ١٦، ٢٦؛ التوحيد ٢٤؛ وسنن أبي داود، السنة ١٩.

١١ م - والتمثيل.

١٢ وللاختلاف في الرؤية وكيفيّتها، انظر: مسند أحمد بن حنبل ٢٢٣/١؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٨٤؛ وسنن الترمذي، التفسير ٤/٥٣؛ وتفسير ابن كثير، ٢٥٠/٤؛ والمستدرك للحاكم، ٦٥/١.

بأربعة أجزاء في أربعة[١] أقاليمَ، وقال بعضهم: ساخ في الأرض فلم يستقرّ بعدُ، وقال بعضهم: صار ذَرًّا في الهوى. ولا حاجة بنا إلى معرفة كيفية ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾،[٢] يحتمل أن ذلك كان لضعف في طبع[٣] البشرية لأنه لا يحتمل الأهوال /[٥٣و] والأفزاع. والثاني يحتمل أن أثر التجلّي ظهر على الجبل وتعدى إلى موسى عليه السلام بواسطة الجبل فأثر فيه بالصعق كما أثّر في الجبل بالاندكاك. والثالث ما ذكرنا من معاملة الله تعالى مع عباده بالجلال والهيبة. والعظمة تُوجب[٤] الفناء والمحو والصعق كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ إلى آخر ما ذكرنا.[٥] والإغماء والصعق من حوادث البشرية لا من لوازم القهر والعقوبة. ألا ترى أن النبي عليه السلام كان يُغمَى عليه في كثير من أحواله.[٦]

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾،[٧] هذا من موسى تعظيم ما ظهرَ من آثار القدرة والجبروت، كما يقال عند الأهوال «سبحان الله» تنزيهاً له عن أن يفزَع العبد إلى غيره وبياناً أن الأهوال والأفزاع تخِفّ بذكر الله تعالى، كما قال النبي عليه السلام لأصحابه: «كيف أَنْعَمُ وصاحب القرن التقَم القرن ينتظر متى يُؤمر فينفخ». فتعاظم ذلك على أصحابه فقال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»[٨] إشارة إلى أن العبد إذا التجأ إلى الله لا يَهُوله شيء بل يطمئنّ قلبه بذكر الله. قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾.[٩]

وقوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾،[١٠] رجوع إلى الله عند رؤية الأفزاع لا عن ذنب

---

١ م: هي أربعة.
٢ سورة الأعراف، ٧/١٤٣.
٣ م: الطبع.
٤ م: يوجب.
٥ انظر: الورقة ٢١و - ٢٢ظ.
٦ ل: من أحوال.
٧ سورة الأعراف، ٧/١٤٣.
٨ انظر: مسند أحمد بن حنبل ١/٣٢٦؛ ٣/٧؛ وسنن الترمذي، صفة القيامة ٨؛ التفسير ٣٩/٧.
٩ سورة الرعد، ١٣/٢٨.
١٠ سورة الأعراف، ٧/١٤٣.

سبق منه. ولا يصح قول من قال: إنه تاب عن سؤال الرؤية في الدنيا لِما ذكرنا أنه كان عن إذن وإطلاق لأنه كان في مقام القرب والتكليم، فلا يجري عليه في تلك الحال ما يُؤاخَذ به.

فإن قيل: كيف لم يحتمل موسى الرؤية في الدنيا وقد احتمل سماع كلامه؟ قلنا: إن الكلام يليق بحال الابتلاء إذ فيه الأمر والنهي فلا بدّ من التثبيت عند الكلام ليتحقق معنى الابتلاء، بخلاف الرؤية فإنه محضُ /[٥٣ظ] كرامةٍ لا ابتلاً[١] فيه فاختصّ بدار الآخرة. ولأن الواسطة في الكلام جائزة أو واجبة على ما ذكرنا قبل هذا، فيتحقق[٢] في الدنيا، إذ هي للوسائط ولا واسطة في الرؤية، لأنها عبارة عن رفع الوسائط فلا يليق إلا بدار الآخرة، لأن الكلام[٣] من باب الصفات[٤] والرؤية من باب الذات فبانَ الفرق بينهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾،[٥] لم يُرِد به أنه لم يسبِقه أحد، لكن هذا عبارة عن جِدّة في هذا الأمر كمن يقول: «أنا أول من يفعل ذلك: لا أنتظر أحدا يتقدّمني فأتبعه». ويحتمل[٦] أنه لما لم يكن أحد تقدَّمه بهذا السؤال فكان هو أول سائل فقال: «وأنا أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا». ويحتمل أنه قال: «وأنا أول المؤمنين» أن العالم لا يقوم مع تجلّي ذاتك.[٧] والأحوط في هذا كله أن نقول: الله أعلمُ بما جرى على موسى من الله تعالى في جلال قدره ورفع[٨] منزلته ما أوجب الصعق والإفاقة والتنشيط[٩] والتخويف.[١٠] إذ لا ندري أيّ الحالين أجلى وأعذب له في المعاتبة أو في الملاطفة. والله عالم بسرائرهم خبير بضمائرهم يكرمهم بأنواع كراماته إن شاء في الأسباب

---

١ م: لابتلاء.
٢ م: فتحقق.
٣ م: ولأن الكلام.
٤ ل: في باب الصفات.
٥ سورة الأعراف، ١٤٣/٧.
٦ م: فاحتمل.
٧ م: ذلك.
٨ في النسختين: ورفيع.
٩ ل: والتبسيط.
١٠ ل: والتحزين.

التي يقف العباد عليها وإن شاء في الأسباب التي تتحيّر[١] العقول فيها، وهو العزيز الحكيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾،[٢] قال أهل التفسير: طرح الألواح للضجَر والغضب على فعل قومه. وهذا من غاية الصلابة في دين الله والشفَقَة على خلق الله. هذا كمن /[٥٤و] رأى ولده يغرق في الماء فيُلقِي ثِيابه ويطرح ما في يده، لا تهاوناً بذلك المطروح ولكن غايةً في الإشفاق وشغلاً بإنقاذه، فلا يكون ملوماً في ذلك. قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإلقاء ههنا عبارة عن الوضع لا عن الطرح. ويذكر الإلقاء ويراد به الوضع.[٣] قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾[٤] أي وضعها، ولا يقال «طرَحها». وقال: إنه أراد أن يأخذ برأس أخيه ولحيته ولو لم يضع الألواح عن يده لا يتفرغ لأخذ رأسه ولحيته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.[٥] فيه دليل أن أخذ شَعر الرأس يسمّى أخذ الرأس فإن الشعر يُجَرّ دون الرأس. ولهذا قلنا: إذا مسح برأسه ثم حلق[٦] شعر الرأس لا يعاد المسح لأنه وُجد مسح الرأس. ولو مسح لحيته ثم حلق[٧] لحيته[٨] يعاد غسل الذقن عند بعض العلماء لأن مسح اللحية لا يسمّى مسح الذقن.[٩]

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾.[١٠] قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه دليل أن الأنبياء يعملون باجتهادهم بدون الوحي، فإن هارون نهى موسى[١١] عن الأخذ[١٢] فلو فعل موسى بالوحي لما نهاه[١٣] هارون،

---

١ م: يتحير.
٢ سورة الأعراف، ٧/١٥٠.
٣ قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٦/٧٠ - ٧١.
٤ سورة النحل، ١٦/١٥.
٥ سورة الأعراف، ٧/١٥٠.
٦ ل: خلق.
٧ ل: خلق.
٨ ل - لحيته.
٩ انظر: المرجع السابق، ٦/٧١.
١٠ سورة طه، ٢٠/٩٤.
١١ م - موسى.
١٢ م: عن الأحد.
١٣ م: كما نهاه.

وهارون[1] نهاه أيضاً بالاجتهاد، إذ لو نهاه بالوحي لم يأخذ موسى وانتهى.[2]

قال المصنف ﷺ: ولو حملناه على جهة الوحي لم يبعُد وكان أعدلَ لما فيه من حكمة إظهار قبح فعلهم عليهم بإبانة مثل هذا الغضب على أخيه، ولو عبَّره[3] على السكينة والوقار لم يقع في قلوبهم موقع الاستفظاع.[4]

وقول هارون عليه السلام: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾،[5] أراد - والله أعلم - أن أخُوّتي كاملة معك من /[٥٤ظ] جهة الأمّ فلا تُعامِل[6] معي معاملة الإخوة من جهة الأب دون الأمّ. وأصل ذلك معاملة إخوة يوسف مع يوسف[7] وهم بَنُو[8] العَلَّات،[9] ومعاملة يوسف مع أخيه بُنْيَامِين وهما بنُو[10] الأعيان.[11] أو ذكر الأمّ على جهة الترفّق[12] لموسى «أن أمّي لا ترضى في قبرها لمعاملتك معي»، فذكّره شفقة أمّهما لكي يمتنع عن ذلك. قال عليه السلام: «يؤذي الميّتَ في قبره ما يُؤذيه في بيته».[13]

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾،[14] دليل على بقاء الشفقة على أخيه في حالة المخاشنة. سأل المغفرة لنفسه ولأخيه مخافة تقصير جرى

---

١ م: فهارون.
٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٧٠/٦ - ٧١.
٣ م: ولو عيره.
٤ م: موضع الاستظامة.
٥ سورة طه، ٩٤/٢٠.
٦ م: ولا تعامل.
٧ م - مع يوسف.
٨ في النسختين: بنوا.
٩ بنو العلّات: بنو رجل واحد من أمهات شتّى.
١٠ في النسختين: بنوا.
١١ ل: بنوا الأعيان له.
١٢ م: الترفيق.
١٣ انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي، ص ١٣٠؛ وتمييز الطيّب للشيباني، ص ٤٩؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢٥٥/١. قال العجلوني: رواه الديلمي بلا سند عن عائشة مرفوعاً، ويشهد له ما أخرجه أبو داود وابن ماجه وغيرهما عنها رفعته «كَسْر عَظْم الميّت ككسر عظمه حيّا».
١٤ سورة الأعراف، ١٥١/٧.

منهما في مراعات أسباب القوم حتى وقعوا فيما وقعوا. والثاني إبانة أن المستحق للمغفرة لم يبق إلا أنا وأخي لمعاينة كُفر قومه قبل أن يشعُر ببقاء طائفة لم يعبدوا العِجل، وما يروى أن طرفاً من اللوح انكسر وطار في السماء وذهب لا يُشهد[١] عليه لأنه من باب الآحاد، وإن صح فهو محمول على نسخ بعض الأحكام. وكما كانت الأوامر والنواهي بواسطة المكتوب كان النسخ أيضاً برفع المكتوب.

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾.[٢] قال بعض أهل التفسير: إن الله تولّى كَتبَة أشياءَ بيده، منها التوراة كتبها بيده.[٣] قال الشيخ أبو منصور: الكتابة هي الإيجاب كقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾[٤] أي أوجبنا وألزمنا. ويراد بها[٥] أيضاً المبالغة في العناية. فالله تعالى أبان بقوله ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ أن التوراة بأمره صار مكتوباً وبإذنه صار موجوداً.[٦] ومعنى قوله /[٥٥و] «صار موجودًا» أي الكتابة الدالّة على كلامه دون كلامه الأزلي القديم.[٧] وكلامه يستفاد من هذه الحروف المكتوبة.[٨] وهكذا المذهب في القرآن إنما يقع عليه البصر[٩] ويكون له الابتداء والانتهاء،[١٠] والحروف والهجاء [كلاهما] مخلوق وكلام الله تعالى منزَّه عن هذه الصفات. وقد ذكرنا شرح هذه المسألة في كتاب **شرح الأصول**.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾،[١١] دلّت الآية على أنه لم يكن منه ذنب، فإن مثل هذا[١٢] الإكرام والتقريب لا يجري عقيب الذنب. والاصطفاء يتضمَّن إعظام[١٣] القدر،

١ م: لا نشهد.
٢ سورة الأعراف، ١٤٥/٧.
٣ ل ـ كتبها بيده.
٤ سورة المائدة، ٤٥/٥.
٥ م: به.
٦ قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٦١/٦ ـ ٦٢.
٧ م: القديم الأزلي.
٨ ل: المكتوب.
٩ م: النظر.
١٠ ل: الانتهاء والابتداء.
١١ سورة الأعراف، ١٤٤/٧.
١٢ ل: هذه.
١٣ م: إعطام.

والعفو مَضَمَّن فيه، ولكنه عفو في شرف المنزلة وهو العفو عن القصور عن القيام بحق الربوبية، كما في قوله عليه السلام: «إني لأستغفر الله في كل يوم مائةَ مرّةٍ»،[١] لم يكن ذلك استغفاراً عن الذنوب والزلاّت بل كان لقصور[٢] عن الوصول إلى كُنه الربوبية، إذ لا كنه لها ولا إحاطة. فكان يعَلّى في كل يوم[٣] مائةَ درجةٍ. وروي أن موسى عليه السلام رأى كرامة أمّة محمد عليه السلام فسأل أن تكون أمّته، فقال الله تعالى ذاك أمّة محمد، فقال موسى:[٤] «اللهم اجعلني من أمّة محمد». فأخبر الله تعالى لهذه الأمّة بهذه الكرامات لموسى عليه السلام دفعاً لظنّ بعض الناس أن قدر هذه الأمّة أرفع من قدر موسى. فإن أدوَن منزلة المرسل أرفعُ منزلة النبي، وأدونُ منزلة النبي أرفع منزلة الصديق، وأدوَن منزلة الصديق أرفع منزلة الشهيد، وأدون منزلة الشهيد /[٥٥ظ] أرفع منزلة الصالحين وأدون منزلة الصالحين أرفع منزلة عامّة المؤمنين.

قال المصنّف: يجوز أن يَرَى الشريف الرفيع من هو دونه في دَعَة وراحة وسلامة من المخاطرات، ربّما يتمنّى ذلك ويقول: «طوبى لفلان»، من غير أن يتمنّى زوال ما عليه من الحالة الرفيعة. فكذلك موسى عليه السلام تمنّى ما خصّ الله تعالى هذه الأمّة من الشرف والكرامة، لكن من غير زوال النبوّة والرسالة. ويجوز أن يكون رسولاً ونبيًّا وأمّة لرسولٍ آخَر أفضلَ منه. ألا ترى أن هارون رسول ونبيّ وهو تَبَع لموسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.[٥] الشكر أرفع مقام العبودية. قال الشيخ الحكيم: الصبر أرض الهدى والشكر سماء الهدى، والصبر بداية والشكر نهاية. ولم يكن موسى في تقصير الشكر

---

١ مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢، ٢٦٠/٤؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٤١؛ وسنن أبي داود، الوتر ٢٦؛ وسنن الترمذي، التفسير ١/٤٧.

٢ م: عن القصور.

٣ م: يعلى كل يوم.

٤ ل - موسى.

٥ سورة الأعراف، ١٤٤/٧.

وكفران النعم حتى يؤمرَ بالشكر، ولكن أُمر به ابتداء فيأتَمِر[١] به كما كان يأتمر قبل هذا فيظهر للناس أن الوصول إلى الزيادة طريقة الشكر لا التمنّي. والشكر اغتنام الموجود واستعظامه من غير رؤية الاستحقاق لنفسه، بل بالمنّ والإفضال[٢] من الله تعالى. ومن تمنّى مقاماً أرفعَ من مقامه[٣] الذي هو فيه فليس بشاكر لمقامه،[٤] فأما من رغب إلى ذلك فهو شاكر. والفرق بين الرغبة والتمنّي أن التمنّي يكون بدون المجاهدة، والرغبة مع المجاهدة. ولكن ربّما يقع الاشتباه بين الرغبة والتمنّي فيُمتحَن بين الشكر والكفران. فكما استقام في مقام فعليه المجاهدة /[٥٦و] لمعرفة التمييز[٥] بين الرغبة والتمنّي. فإن شَكَر الموجود وانتظر المفقود فهو راغب وهو محمود، وإن استحقر الموجود وتمنّى المفقود فهو مستدرَج وممكور. فنبَّه الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام على استعظام الموجود من الرسالة، والكلام بإقامة الشكر منتظرا نَيل الزيادة وهي الرؤية لوقتها. والله أعلم بسرائرِ الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾. ظاهر هذا الكلام يوهِم أنه يَسخَط على حكم الله تعالى بإهلاك قومه ويبرِّئ نفسه من استحقاق الهلاك بفعل غيره. لكنه صلوات الله عليه أظهر بهذا الكلام مقام التوحيد والمشيئة[٦] لله تعالى في إهلاك نفسه وقومه، ولو شاء أن يهلِك من قبل لنفذت[٧] مشيئته، ولكنه شاء في هذا الوقت. وقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾،[٨] [فيه] إظهار التضرّع والابتهال والاستكشاف عن حقيقة الحال، أنك هل تُهلِكنا بما فعل السفهاء منّا أم لا تُهلكنا، إذ لك المشيئة في إهلاكنا ابتداء من غير سَفَه منّا؟ فأحبّ أن يخبره الله تعالى أنه يهلكه أو لا يهلكه فيطمئنَّ قلبه بوعد الله، فكأنه كوشف بآثار الرحمة فظنّ أنه يلي

---

١ ل: فتأتمر.
٢ م: والفضل.
٣ م: من مقام.
٤ م: بمقامه.
٥ ل: التميز.
٦ ل: إن المشيئة.
٧ م: لنفدت.
٨ سورة الأعراف، ١٥٥/٧.

أمره ويغفر له حتى قال في آخر كلامه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾،[1] يعني تقديرُك بالامتحان والابتلاء، لا على الفتنة المذمومة في عرف الناس. فهذا تسليم للحكم وفزعٌ[2] إلى الله تعالى، /[٥٦ظ] دليله قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾.[3] وقد أخبر الله تعالى عن ذلك لموسى عليه السلام حين قال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾.[4] وقد ذكرنا في بعض الفصول أن الفتنة هو الإخلاص، تخلُّص الخبيث من الطيّب. فالفتنة يزيل الخبيث والكَدِر كالذهب يُلقَى في النار فيزول عنه الخبث ويبقى الخالص. ولهذا سُمّي الصائغ فتّاناً، ويقال: فتَنتُ الذهب بالنار.

وفي قوله تعالى خبراً عن موسى عليه السلام:[5] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾،[6] دليل جواز إضافة تقدير الكل إلى الله تعالى، فإنه قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي بالفتنة و(تهدي بها) أي بالفتنة، وقد ذكرنا شرح هذا في كتاب **الأصول**. وهكذا العبادة والعبودة،[7] إن العبودة توجب تسليم الحكم والعبادة توجب تعظيم الأمر، وحسن الظنّ يوجب الثقة بالوعد،[8] وفي كل ذلك استقامة حال العبد. وفي دعوات موسى دليلٌ أن العبد وإن جلّ قدره فهو غير مستغنٍ[9] عن الله تعالى عِلماً منه أن خزائنه لا تَنفَد، وحاجة العبد لا تنقضي. فالدعاء لا بدّ له من صفوة الحال وصحة الفِعال[10] وصدق المقال. وفيه دليل أن سؤال المغفرة أهمّ من غيره،[11] إذ لا يُنال سائرَ المطلوبات بدون المغفرة.

---

١ سورة الأعراف، ٧/١٥٥.

٢ م - وفزع.

٣ سورة الأعراف، ٧/١٥٥.

٤ سورة طه، ٢٠/٨٥.

٥ م - خبرا عن موسى عليه السلام.

٦ سورة الأعراف، ٧/١٥٥.

٧ م: العبودة والعبادة.

٨ م: بالوعيد.

٩ في النسختين: غير مستغني.

١٠ م: الإفعال.

١١ م - أهمّ من غيره.

قال المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهكذا عادتي في دعائي عند طلب الحوائج أني أقدِّم سؤال المغفرة فأقول: «اللهم اغفر لي ذنبي وإسرافي في أمري»، ثم أسأل حاجتي. ولكن[١] لا ينبغي أن تَسأل المغفرة لأجل رجاء الإجابة فتجعل المغفرة وسيلة لحاجتك، كما نقول[٢] في الشكر: إنه لا يقصد به نيل الزيادة لكنه يرى الشكر فرضاً عليه فيشتغل به /[٥٧و] إقامة لحق العبودية. والزيادة وعد من الله تعالى بفضل[٣] الربوبية، وكذا كل وعد من الله تعالى بفضل الربوبية،[٤] وكذا كل طاعة لا يقصد بها نيل الثواب ولكن يؤدّي لحق[٥] الأمر. والثواب وعد من الله فضلاً وكرماً فينبغي أن يسأل المغفرة، لأنها أوجبُ شيء وأهمّ. وهو أحوج إليها من غيرها فيقدّم الأهمّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.[٦] وقال أبو مسلم الخَوْلاني:[٧] مهما قصدتُ طلب الحاجة استقبلَني ذكرُ النار، فأقول: هو أعظم مما أقصد طلبه فأصرف دعائي إلى الخلاص من النار وأترك ذلك المقصود فتُقضَى حاجتي من غير سؤال. وما يروى في بعض الأحاديث أن الله تعالى قضى له كذا وكذا حاجة أدناها المغفرة، فالمراد من ذلك الدنو يعني أقربها المغفرة لا الدنائة التي هي عبارة عن الخساسة، إذ المغفرة أعظم الحوائج وأهمّها. قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سؤال المغفرة من الأنبياء سؤال الستر واستدامة العصمة، وهو معنى قوله ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٨] يعني سُتِرتَ قبل الوحي وبعده فلم تُذنِب.

---

١ م: لكن.
٢ في النسختين: كما تقول.
٣ م: لفضل.
٤ م ـ وكذا كل وعد من الله تعالى بفضل الربوبية.
٥ ل: بحق.
٦ سورة ص، ٣٥/٣٨.
٧ هو عبد الله بن ثوب الخَوْلاني، تابعي، فقيه عابد زاهد، نعته الذهبي بريحانة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام. وفاته بدمشق وقبره بداريّا. توفي سنة ٦٢هـ/٦٨٢م. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٠٣/٤.
٨ سورة الفتح، ٢/٤٨. قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٢/٤.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾،[١] أجرى هذا الكلام على ما عَرف من تقدير الله تعالى أن إعطاء[٢] هذه الأموال والزينة تصير سبباً لضلالة قوم وطغيانهم، فإن طبع البشر مجبول على الميل إلى الأموال والزينة؛ فإذا رأوا فرعون وقومه ذا أموال وثروة وجاه وحُشْمَة ورأوا موسى عليه السلام وأتباعه /[٥٧ظ] في ضِيق عَيش وفاقة، فإنهم يظنون أن الحق مع فرعون ومَلَئِه دون موسى وأتباعه؛ كما أخبر عن بعض الكفّار ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾،[٣] وقال: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.[٤] وإليه الإشارة بقوله تعالى خبراً عن موسى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[٥] يعني لا تجعلْنا في الشدّة والبلاء بحال يتوهّمون من حالنا أنّا على الباطل.

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.[٦] سأل اللهَ تعالى إذهاب أموالهم[٧] ليتفرّغوا للتأمّل في حال موسى فيَعرفوا[٨] أنه على الحق فتَلزم[٩] الحجّة عليهم. فإن أرباب الأموال لطغيانهم وشغلهم بمكاسبهم لا يتأمّلون في دعاوِي الأنبياء ويكفرون في أول الوَهلة، ولم يكن أتباع الأنبياء في الأكثر إلا الفقراءَ ولا المعاندون لهم إلا الأغنياءَ. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.[١٠] والمُترَف كل غنيّ متنعّم أبطره الغِنى، فأحبّ موسى أن ترتفع الموانع عن النظر والإصغاء لكلامه وأن لا يفتتن بهم المؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.[١١] قيل: إنما سأل ذلك بعد ما علِم بطريق[١٢] الوحي أنهم لا يؤمنون حتى يروا

---

١ سورة يونس، ١٠/٨٨.
٢ م: أن أعطى.
٣ سورة مريم، ١٩/٧٣.
٤ سورة الكهف، ١٨/٣٤.
٥ سورة يونس، ١٠/٨٥.
٦ سورة يونس، ١٠/٨٨.
٧ م: الطمس.
٨ م: فيعرفون.
٩ م: فتلزمه.
١٠ سورة سبأ، ٣٤/٣٤.
١١ سورة يونس، ١٠/٨٨.
١٢ م: من طريق.

العذاب الأليم، كما أوحى إلى نوح عليه السلام ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾،[١] فصار دعاؤه مبنيًّا على قضاء الله النافذ في حقهم. وقيل: إنهم كانوا يحتالون في كشف البلاء بكلمة الإيمان ثم يكفرون بعد ذلك، فكان يثقل[٢] ذلك على موسى فسأل أن لا يجدوا السبيل /[٥٨و] إلى التهاون بكلمة الإيمان. ويحتمل أنه إنما سأل ذلك إذ عرف أن العذاب الأليم نازل بهم لا محالة، ولكن أحبّ أن يؤمنوا في تلك الحالة ويُقرّوا على أنفسهم بالضلالة فتطمئنّ قلوب أتباع موسى على الحق ويستقرّوا عليه. وقيل: إنما سأل هذه العقوبات ليؤمنوا بالاضطرار، فإنهم لم يؤمنوا بتلك[٣] الآيات البيّنات باختيارهم لما في طباعهم من الإعراض عن الإجابة والعناد والمكابرة فتُلجِئهم[٤] الضرورة على الإيمان بالله تعالى وإن كان لا ينفعهم ذلك، كما أخبر عن فرعون حين غرق، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.[٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[٦] ونظائره أراد به فلاح الآخرة ولكن ما داموا على سحرهم، وسحرة فرعون أفلحوا حين تبرّءوا من السحر وتابوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾،[٧] فيه دليل على حسن العِشرة مع خادمه[٨] ومماليكه حيث سمّاه «فتى» عطفاً وتقريباً. وفيه دليل أن استصحاب من يُعينه في السفر مندوب. وفيه دليل أن العزم على الأمر إظهاراً للمجاهدة من نفسه جائز مستحبّ بل هو فرض، وإن كان يعلم أن فعله بالقضاء والقدر فإن الإقدام على الأمر لما كان فرضاً كان العزم عليه فرضا أيضاً وهو معتقد في ذلك التوفيقَ من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾،[٩] والحقب ثمانون سنة. /[٥٨ظ] فلم يكن منه

---

١ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ (سورة هود، ٣٦/١١).

٢ ل: ينقل.

٣ م: بذلك.

٤ ل: فيلجيهم.

٥ سورة يونس، ٩٠/١٠ ـ ٩١.

٦ سورة يونس، ٧٧/١٠.

٧ سورة الكهف، ٦٠/١٨.

٨ ل: مع خدمه.

٩ سورة الكهف، ٦٠/١٨.

ضرب هذه المدة وَضع الأجل[١] ولكن تأكيدَ الأمر وإظهار الجِدّ والمبالغة.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾،[٢] قيل: تركا، وقيل: نسي الفتى الحوت ونسي موسى الاستخبار فأضيف إليهما. وقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾،[٣] أضاف الإنساء إلى الشيطان لسعيه ووسوسته لابن آدم، فإنه ألقى الوسوسة في الفتى وشغل خاطره عن تذكر ما عنده حتى نسي الحوت. والشيء[٤] المذموم يضاف إلى الشيطان في العرف والعادة مع العِلم بأن ذلك بخلق الله تعالى إظهاراً لعداوته وتجديداً للتعوّذ منه.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، دليل جواز إضافة الشيء إلى نفسه، خلافاً لمن يقول: إن الفتوّة تمنع[٥] إضافة الشيء إلى نفسه. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾،[٦] دليل على جواز إظهار الجزَع مما يلحق الإنسان لا على وجه الشكاية بل على وجه الحكاية.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾،[٧] دليل[٨] على أن خروج موسى كان لطلب العلم، وفيه فضل شرف العلم. ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى: «يا موسى ربّما أضع علماً عند من هو دونك فتحتاج إلى أن تتواضع له حتى استخرج[٩] ذلك العلم من ذلك العبد فأدفَعه إليك».[١٠] وفيه دليل أن التعلم في السفر ومفارقة الوطن أفضل من التعلّم في وطنه، لأن موسى عليه السلام كان نبيًا ومرسلاً[١١] يوحى إليه ما يحتاج،[١٢] ومع ذلك أُمر بالرحلة إلى من هو أعلم منه لأجل التعلم ليقتدي به مَن بعده فلا يتعظَّمَ عن

---

١ م: الأمل.
٢ سورة الكهف، ٦١/١٨.
٣ سورة الكهف، ٦٣/١٨.
٤ م: والنسيئ.
٥ م - تمنع.
٦ سورة الكهف، ٦٢/١٨.
٧ سورة الكهف، ٦٤/١٨.
٨ ل: ففيه وقيل، صح في الهامش.
٩ م: تستخرج.
١٠ انظر: تفسير الطبري، ٢٨٧/١٥؛ وتفسير ابن كثير، ٩٢/٣ - ٩٣؛ والدر المنثور للسيوطي، ٢٢٩/٤ - ٢٣١.
١١ م: نبيا مرسلا.
١٢ ل: في كل ما يحتاج؛ م: ما يحتاج إليه.

الاختلاف إلى العالِم وإن كان دونه /[٥٩و] في الرتبة والنسب وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾،[١] هذا إكرام من الله تعالى لذلك العبد بإضافته إلى ذاته، فإن المضاف إلى الله تعالى ذِكْراً معظَم مكرَّمٌ،[٢] ثم لم يسمّه بعينه ليعرف أن كل من أضيف إلى الله تعالى بهذه الخاصيّة فهو مكرّم معظّم. واختلف الناس في ذلك العبد. فقيل: هو الخَضِر عليه السلام، وقيل: كان يُوشَع بن نون، وقيل: غيرهما. والأحسن أن يُجرَى ذكره كما ذكره الله تعالى من غير تسمية ولا تعيين.

قال المصنف رحمه الله: وأي عبد كان هو كان أقلَّ حالاً من موسى عليه السلام في الفضل والشرف، ولكن الله تعالى امتحن[٣] الشريف الرفيع بالتواضع لمن دونه[٤] إبانةً لفضله بالتواضع، كما جاء في الخبر: «من تواضع لله رفعه الله».[٥] قال الشيخ الحكيم: بصدق التواضع يضيء جوهر العبودية. قال القاضي الإمام جمال الدين الرِّيغَذَموني[٦] رحمه الله:[٧] لما لم يكن ذلك[٨] العبد الصالح معيّناً لا يُطلق القول بأنه دون موسى في الفضل، إذْ[٩] يجوز أن يكون مثل موسى عليه السلام أو أفضل منه.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾،[١٠] خصَّه بإيتاء الرحمة وذلك بجعله أهلاً لتضمّن[١١] ما أُلقي إليه من وحي الباطن، فيَخلص[١٢] عن شَوب

---

١ سورة الكهف، ٦٥/١٨.

٢ م: ذكر مكرم معظم.

٣ م: يمتحن.

٤ م - لمن دونه.

٥ مسند أحمد بن حنبل ٣٨٦/٢؛ وصحيح مسلم، البر والصلة ٦٩؛ وسنن الترمذي، البر والصلة ٨٢.

٦ م: الربغدموني.

٧ هو أبو نصر أحمد بن عبد الرحمن بن إسحاق بن أحمد بن عبد الله الرِّيغَذَموني، البخاري، المعروف بالقاضي الجمال، من علماء وقضاة بخارى. توفّي سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م. انظر: معجم المؤلفين لكحّالة، ٢٦٤/١.

٨ م - ذلك.

٩ م: وإذ.

١٠ سورة الكهف، ٦٥/١٨.

١١ ل: لتضمنه.

١٢ م: فتخلص.

الخلل. ومع ذلك لم يتخلّص عن القيل والقال ليعلم أن الدنيا لا يخلو عن المحن[١] حتى يُخَطَّأَ[٢] في فعله مع أن فعله صواب عند الله، فيكتفيَ بعلم الله تعالى أن قوله وفعله صواب ولا يضطربَ لتلك المحنة. وقوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾، عبارة عن قطع دعاوي الخلق ورفع الوسائط من تلك الرحمة. /[٥٩ظ] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾، كذلك يدل على أن ذاك من غير تعليم الخلق واستنباطه واجتهاده، بل من الله تعالى وحياً وإلقاءً إليه بحيث لا يبقى معه ريب ولا تردّد. و«لدُنْ» عبارة عن إكرام وتقريب لذلك العبد.

وقوله تعالى خبرا عن موسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾.[٣] وفيه[٤] دليل على أن المتعلم لا ينبغي له أن ينظر إلى رفعة حاله بل ينظر إلى ما وضع الله تعالى فيه من شرف العلم فيتواضَع له للعلم فينال الرفعة. وفيه دليل على أن مقام الباطن يَجِلّ ويَشْرُف لمراعاة[٥] حدود الظاهر. ثم ليس في هذا أن موسى وإن امتُحن بتعلم ما عنده فذلك[٦] العبد الصالح لم يُمتحَن بتعلّم ما عند موسى، بل حصل له من موسى عليه السلام تقويم الظاهر ومراعاة الشريعة، وكل[٧] واحد مُمتَحَن بصاحبه. عَلِمَ العبد من صلابة موسى على المضيَّع لحدود الله تعالى حيث أنكر على كل خصلة من تلك الخصال. فعلم[٨] العبد أن مراعاة الظاهر واجبة حسْبَ مراعاة الباطن. وعلم موسى أن ما وراء ما علّمه الله تعالى عِلم لا يقف عليه موسى عليه السلام فيتحيّر عند ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾.[٩]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾[١٠] دليل أن ذلك العبد نبيّ حيث قطع القول بأنك لن تستطيع معي صبراً، ثم بيَّن عذره

---

١ م: من المحن.
٢ في النسختين: حتى يخطى.
٣ سورة الكهف، ٦٦/١٨.
٤ م - وفيه.
٥ م: بمراعات.
٦ م: وذلك.
٧ م: فكل.
٨ م: وعلم.
٩ سورة الفرقان، ٢٠/٢٥.
١٠ سورة الكهف، ٦٧/١٨.

فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾،[١] ونبّه موسى عليه السلام بهذا أني أَحطْتُ بما لم تُحِط به خُبرا.[٢] فلما خَرق السفينة نظر موسى /[٦٠و] إلى ظاهر فعله بخلاف ما يوجبه الشرع فأنكر عليه. وفي ذلك امتداح لموسى إذ الوقوف على السرائر لا مدخل للعباد فيها وإنما عليهم رعاية الظاهر. قال عليه السلام: «إنما أقضي بالظاهر والله تعالى يتولّى السرائر».[٣] فموسى عليه السلام لصلابته في أوامر الله ونواهيه أنكر عليه. وفيه دليل أن من رأى منكراً من غيره سواء كان أرفع حالاً منه أو أدونَ لم يجز له الإغفال عن الإنكار والتغيير[٤] عليه، حتى إن موسى لو أغفل ولم يغيِّره ربما كان يُؤاخذ به بظاهر شريعته؛ ولأنه لو سكتَ موسى ولم ينكر عليه ربما اتّهمه من في السفينة بالمداهنة، فأزال هذه التهمة عن نفسه بقوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾،[٥] أي شيئاً[٦] فظيعاً فيه إفساد[٧] مال الأيتام وإشرافُ القوم على الهلاك.

فإن قيل: هلاّ بيّن ذلك العبد معنى خَرق السفينة لموسى عليه السلام عقيب إنكاره؟

قلنا: إنما أخّر ذلك لأنه كان مأموراً بابتلاء موسى فموسى[٨] فيما خفي عليه من معنى ما فعل العبد الصالح رجع إلى مقام افتقاره إلى الله في استمداد العلم في كل حادثة. والعبد الصالح عرف بإنكاره أن مراعاة الظاهر لازم مع استقامة الباطن. وعند التأمّل يُعرف[٩] أن كِلاَ

---

١ سورة الكهف، ٦٨/١٨.
٢ م - خبرا.
٣ قال العراقي وابن حجر والشيباني والسخاوي والعجلوني في هذا الحديث: هو غير ثابت بهذا اللفظ، ولعلّه مرويّ بالمعنى من أحاديث صحيحة. انظر: المغني للعراقي، بذيل الإحياء للغزّالي ٢١٣/٤؛ والمقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٩١؛ وتمييز الطيّب للشيباني، ص ٣٤؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ١٩٢/١.
٤ ل: والتغير.
٥ سورة الكهف، ٧١/١٨.
٦ ل: شنيعا.
٧ م: إفاتة.
٨ م - فموسى.
٩ م: تعرف.

الأمرين على ما يوجبه الشرع؛ إذ المنع عن إهلاك مال الغير شريعة، وإصلاح مال الإنسان بإفاتة جزء منه حكمة ومصلحة. فلما قال له العبد: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن /[٦٠ظ] تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[١] علم موسى أن له فيه حكمة ومصلحة[٢] لم يطّلع عليه موسى، وكان قد نسيَ[٣] قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾،[٤] فاعتذر إليه بعذر النسيان وقوله: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ كيلا يظنّ به أنه عن عمد خالفَه ولا يعدَّه[٥] مُعانداً متعنِّتاً. ثم قال: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾،[٦] أخبر أن المؤاخذة بالنسيان إرهاق العسر، إذ الإنسان قلَّ ما يخلو عن النسيان. ولله تعالى أن يؤاخذ عبده بالنسيان وإن كان فيه إرهاق العسر عند أهل السنة، ولكن رفع عنه بفضله وكرمه.

وقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾،[٧] دليل أن المعترض على المصيب لا يُرَدّ ولا يُهجَر في بدء الأمر. ثم لما رأى موسى قتل الغلام لم يتمالك حتى أنكر عليه بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾،[٨] سَمّى خرق السفينة إمْراً وقتل الغلام نُكْراً، لأن إهلاك المال أخفّ من قتل النفس خصوصاً إذا رآه بريئاً[٩] من الموجب للقتل، فطالبه العبد بمراعاة شرطه أن يتبعه ولا يسأله فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.[١٠] وفيه احترام موسى حيث لم يذكر أنك أخلَفتَ الوعد بالصبر وترك عصيان الأمر كما قلتَ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾،[١١] لكن بيّن له أن ما قلتُ في ابتداء الأمر كان حقاً وصواباً: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، سواء كنتَ ناسياً أو ساهياً[١٢] أو ذاكراً، لأن جبِلّتك /[٦١و] لا

١ سورة الكهف، ٧٢/١٨.
٢ م ـ ومصلحة.
٣ ل: وقد كان نسي.
٤ سورة الكهف، ٦٨/١٨.
٥ م ـ لا يعدّه.
٦ سورة الكهف، ٧٣/١٨.
٧ سورة الكهف، ٧٤/١٨.
٨ سورة الكهف، ٧٤/١٨.
٩ في النسختين: بريا.
١٠ سورة الكهف، ٧٢/١٨.
١١ سورة الكهف، ٦٩/١٨.
١٢ م ـ أو ساهيا.

تحتمل ذلك[١] لأنك خُلِقتَ على الجِدّة والصلابة. فقال موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.[٢] [فهذا] دليل أن موسى عرف بطريق الوحي[٣] أنه ينتهي صحبته مع العبد في المرّة الثالثة وأن العبد في المرّة الثالثة مأمور بمفارقته. وفي ذلك[٤] دليل أن مفارقة الاثنين أحدِهما عن صاحبه جائز إذا تعذّر عليهما تحمّل أثقال كل واحد منهما كي لا يؤدِّيَ إلى التشاجر وتشويش الأمر وإن كان كل واحد منهما بحيث يرغب في صحبتهما.

وقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾.[٥] قال بعض أهل التأويل: إنهما سألا عنهم[٦] الطعام، والسؤال عند الحاجة مباح. لكن هذا التأويل ضعيف إذ لا يليق برفعة حالهما وفراغ أسرارهما عن العلائق الرغبةُ في الطعام على وجه يَحمِلهما على السؤال. ولكن قيل: إنهما استطعما أهلها بحالهما[٧] فإن حالهما[٨] يُخبر[٩] القوم أنهما محتاجان إلى الطعام؛ فإن من نزل من المسافرين على قوم ولم يروا[١٠] معه أسباب الطعام لزمهم بحكم المروّة أن يُطعموه. ويجوز أيضاً أنهما استطعما أهلها بالثمن فإن الاستطعام طلب الطعام لا غيرَ. وليس فيه أنهما طلبا مجّاناً بغير ثمن. والذي قال: ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾[١١] /[٦١ظ] لا ينفي أن يكون الاستطعام بالثمن، فإن الإنسان إذا وجد الطعام عند مساس الحاجة إليه عدَّ ذلك ضيافة وإن كان ذلك بثمنٍ غالٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.[١٢] فيه دليل أن عمارة الأبنية في الدنيا غير محظورة، وقد يصير ذلك من أعمال الآخرة إذا كان ذلك لابتغاء مرضاة الله تعالى كما فعله العبد الصالح. ثم أضاف

---

١ م: ذاك.
٢ سورة الكهف، ٧٦/١٨.
٣ م: بوحي الله.
٤ ل: وفيه.
٥ سورة الكهف، ٧٧/١٨.
٦ م - عنهم.
٧ م: بحالتهما.
٨ م: حالتهما.
٩ م: تخبر.
١٠ ل: على القوم فلم يروا.
١١ سورة الكهف، ٧٧/١٨.
١٢ سورة الكهف، ٧٧/١٨.

الإقامة إلى العبد دون موسى عليه السلام فلم يقل «فأقاماه»، فيحتمل أن الإقامة حصلت من العبد على الانفراد إذ[١] الأحوال تجري على يديه خاصّة لِيُظهر لموسى عليه السلام عِلم ما خفي عليه إذا بيَّن وجه الحكمة فيه. ويحتمل أن موسى كان مُعِيناً له وكان العبد هو المتولّي لذلك العمل فأُضيف إليه لهذا.

وقول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[٢] بناءً على أنه رأى هذا من أعمال الناس وقد جرت العادة في أخذ أجرة في مثل هذا العمل، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾،[٣] أي اشترطتَ عليهم الأجرة حتى تأخذ بعد العمل لا أنك[٤] تأخذه من غير شرط، إذ لا تستحق ذلك. وفيه دليل أن إجارة الأحرار للعمل لا بأس بها، وأن الكسب[٥] للحاجة لا يُورث الذلّ والنقص وإن كان الناس يعدّونه نقصاً وذُلاً فيعلم أن العزّ والذلّ غير منوطَين بحِسبان الناس وعاداتهم. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[٦] دليل أن العبد يخبر[٧] ذلك بأمر الله ووحيه وإلا /[٦٢و] لم يستجز[٨] من نفسه مخاطبة موسى عليه السلام بمثل هذا الخطاب فإن تبليغ الأمر وإلزام الحق واجب، لا يجوز تركه لاحتشام أحد.[٩]

وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾،[١٠] دليل أنه كان مأموراً بامتحان موسى عليه السلام إلى ذلك الوقت، فأراد أن لا يفارقه موسى إلا بعد تفريغ قلبه عن تهمته في فعله. وفيما أحوج موسى في بعض تلك الأحوال إلى العبد لا يدل على[١١] أن العبد أفضل من موسى عليه السلام، إذ يجوز أن يكون موسى عليه السلام أفضل من ذلك العبد فإن له مقام النبوّة

---

١ في النسختين: إذا.
٢ سورة الكهف، ٧٧/١٨.
٣ م - بناء على أن رأى هذا من أعمال الناس وقد جرت العادة في أخذ أجرة في مثل هذا العمل، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.
٤ م: لأنك.
٥ ل: وان اكتسب.
٦ سورة الكهف، ٧٨/١٨.
٧ م: يخير.
٨ ل: وإلا لم يستخبر.
٩ ل: الاحتشام أحد.
١٠ سورة الكهف، ٧٨/١٨.
١١ م - على.

والرسالة وهو صاحب شريعة، ويجوز أن لا يكون العبد على هذه الصفات.

فإن قيل: هلاّ قيل: إنه مرسل حيث أظهر على موسى أحكام تلك الأعمال، والنبي إذا عُدي إلى غيره بتعليمه ودعوته فهو مرسل؟

قلنا: إنما يصير مرسلاً لو أُمر بدعوة موسى إلى نفسه، بل هو معلّم لموسى علوماً لم يقف موسى عليها فيكون مبلِّغا لا داعيا. ولهذا لا يصير[1] النبيّ والرسولَ قومُ جبريلَ[2] وإن بَلَغهم[3] الوحي من الله تعالى، ولكن لما لم يدعهم إلى متابعته[4] لم يكونوا من قومه. ولكن على قياس ما ذكر القاضي الإمام الأجلّ جمال الدين [الرِّيغَذَموني] إن لم يكن هذا دليلاً على الرسالة فليس هو مناف للرسالة،[5] فلما لم يتعيَّن جاز أن يكون رسولاً وصاحب شريعة ولم يبلغنا اسمه ولا صفتُه، كما قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.[6] /[٦٢ظ] وبالله التوفيق.[7]

□□□□□□

١ م: لا يصبر.

٢ قوم جبريل: أي أنصار جبريل وأعوانه فيما أمره الله تعالى من الأمور.

٣ م: فإنه بلغهم.

٤ ل - إلى متابعته.

٥ ل: منافي الرسالة.

٦ سورة النساء، ٤/١٦٤.

٧ ل - وبالله التوفيق.

ذكر داود النبي المرسل صلوات الله عليه

إن الله تعالى اختصّ داود عليه السلام بذكر فضائلَ في القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾[1] وبإيتاء الزبور، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾،[2] وبالخلافة في الأرض كما خصّ آدم عليه السلام فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾،[3] وسمّاه أوّاباً فقال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.[4] ومن كان[5] قدره أجلّ كانت محبّته أعظمَ، ومن اصطفاه الله للسِّفارة بينه وبين خلقه واختصّه بالتأييد والعصمة لا يجري عليه من العصيان والطغيان[6] حَسبَ ما يجري على من سُلّط عليه الهوى والشيطان.

والإيمان بداود عليه السلام فرض لازم، ولا يصح الإيمان به إذا اعتقد في حقه نوعَ إزراء بتعاطي المحظور وارتكاب الكبيرة. وما ذُكر من حاله في القرآن فلا يوجب ذلك نقصاً في حقه وإزراءً بقدْره. وما ذكر في القصة إن صح بالخبر المتواتر فمقبول في حقه مئوّل بتأويل يليق بحاله، لأن الإيمان به يمنع القدح فيه. وقد وافقَنا [كل الناس] ما وراءَ الحشوِيّة أن الكبائر غير جائز وقوعه من الأنبياء، وإن اختلف أهل السنة في الصغائر

١ سورة سبأ، ١٠/٣٤.

٢ سورة النساء، ١٦٣/٤؛ وسورة الإسراء، ٥٥/١٧.

٣ سورة ص، ٢٦/٣٨.

٤ سورة ص، ١٧/٣٨.

٥ م - كان.

٦ ل: الطغيان والعصيان.

على ما قرّرنا. وما نُقل في قصة داود عليه السلام لو أُجري على ظاهره كانت كبيرة من أكبر الكبائر. فثبت أن ما نقل من داود إن صح فهو مئوّل لئلاّ يصير خائضاً في الرسل بما لا يليق بهم /[٦٣و] فيفوت إيمانه. وبالله التوفيق.[١]

وما ذكر في قصّته أنه نظر إلى امرأة أُورِيا وبعثَ أُوريَا إلى بعث كذا فقُتل وتزوّج بامرأته فذاك مسَلّم. أما أن يقال بأنه قصد قتْلَه وبعثَه ليُقتل فيتزوّج[٢] بامرأته فهذا غير مسلّم. فلعلّه من افتراء الجاهلين والمُجازفين في زمانه على ما جرت العادة منهم باتّهام الأزكياء وقذف النجباء.[٣] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾،[٤] تنبيهاً له أن داود أُوذي بِقالة[٥] الناس فيه فأيّدناه أي قوّينا قلبه بالسكون معنًى[٦] حتى صبر على ذلك ورجع إلينا. والأوّاب: الرجّاع إلى الله تعالى في كل لحظة ولمحة. وقال لنبيّه في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ.﴾.[٧] قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: إن وقوع الطائر[٨] على الدرَج من المسجد لا يوجب نقصاً إذ الطير كانت محشورة له[٩] مأمورة بالتسبيح معه كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾.[١٠] ثم صعوده إلى السطح خَلفَ الطائر لم يكن رغبة إلى أخذه كمن يصطاد الطيور لكن ربّما رأى فيه من البرهان ما حثّه على اتّباعه.[١١] ووقوع بصره على المرأة من السطح جائز وهو معفوّ إذ لا اختيار له فيه، كما قال عليه السلام لعلي رضي الله عنه: «يا علي لا تُتبع النظرةَ النظرةَ

---

١ م: العصمة.
٢ م: فتزوج.
٣ م: التحيا.
٤ سورة ص، ١٧/٣٨.
٥ م: بمقالة.
٦ ل: معنا.
٧ سورة الحجر، ٩٧/١٥ ـ ٩٨.
٨ م: الطير.
٩ يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ. وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص، ١٨/٣٨ ـ ١٩).
١٠ سورة سبأ، ١٠/٣٤.
١١ قارن بما ورد في تأويلات القرآن ٣٧١/١٠ ـ ٣٧٢.

فإن الأولى لك والثانية عليك».[١] وإنفاذ زوجها إلى الغزو كإنفاذ غيره من الغزاة. وصيرورته مقتولاً كسائر القتلى من الشهداء، /[٦٣ظ] ثم تزوّج امرأته بعد شهادته جائز في الشرع. وكل هذا[٢] لا يوجب نقصاً في حال داود. ثم ميله إلى المرأة بأول النظر ما كان لغلبة الشهوة عليه إذ لم يكن نظره في الأشياء نظرة شهوة وغفلةٍ بل كان نَظَر عبرة وتفكر. فمن الجائز أنه كُشف له عند النظرة[٣] إلى المرأة من لطيف صُنع الله ﷻ ما جذَبَه عن إحساس بالعالَم والكشوفِ خطراتٌ[٤] فأُلقي على سرّه من ذلك الكشف حلاوة. فظهر له في مقام نبوته أن مثل هذه المرأة لا تكون إلا لنبي. وهكذا رُوِي[٥] في التفسير أن تلك المرأة كانت أمّ سليمان صلوات الله عليه فلاح له في هذه المكاشفة ما جرى من حكم الله تعالى النافذ وتقديره السابق بدخول هذه المرأة في نكاحه وصيرورتها أمّ ولده. فلهذا رغِبَ إلى خِطْبتها بعد تلك النظرة. إلا أنه عُوتب على استعجال الوقت إذ لم يفوِّض ذلك إلى الله تعالى، كما فعله النبي عليه السلام في حق عائشة رضي الله عنها على ما روي في الخبر أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «أُرِيتُ صورتَك في سَرَقة[٦] من حرير فقيل لي: يا محمد هذه امرأتك، فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمضِه[٧]»[٨] وكما فعل رسول الله[٩] في حق زينبَ، لمّا وقعَت في قلبه فوّض ذلك إلى الله تعالى وحثَّ زيداً على إمساكها حين أراد طلاقها فقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، فزوّجها[١٠] الله تعالى إياه /[٦٤و] بقوله:

---

١ مسند أحمد بن حنبل ٣٥١/٥، ٣٥٣، ٣٥٧؛ وسنن أبي داود، النكاح ٤٣؛ وسنن الترمذي، الأدب ٢٨.

٢ ل: وفي كل هذا.

٣ م: النظر.

٤ م: خطراة.

٥ م: مروي.

٦ م: في سرقة بيضاء. أي في قطعة من جيّد الحرير، النهاية لابن الأثير الجزري، ص ٤٢٢.

٧ ل: يمضيه.

٨ مسند أحمد بن حنبل ٤١/٦؛ وصحيح البخاري، التعبير ٢٠، ٢١؛ مناقب الأنصار ٤٤؛ النكاح ٣٥؛ وصحيح مسلم، فضائل الصحابة ٧٩.

٩ م: ﷺ.

١٠ ل: فزوجه.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.[١] وهذا دليل على فضل محمد عليه السلام على داود عليه السلام من غير نقص في حال داود. إذ الأنبياء عليهم السلام ذَوُوا قدر وشرف عند الله وإن كان[٢] بعضهم أفضل من بعض. والآيات التي تنطِق بذكر داود في القرآن تدل على فضل داود وشرفه، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾،[٣] أضافه بالعبودية إلى نفسه ولو كان عبد شهوته وهواه لم يستحقَّ مثل هذا الإكرام. وقال ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وأي أيد تأيّد به إذا لم يقهر شهوته حتى صبا بامرأة فدسّ إلى قتل زوجها؟ والأوّاب: الرجّاع إلى الله تعالى بكلّيّته عن نفسه وأوصافه وسائر الخلْق.[٤] وكذا قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾،[٥] فتسخير الجبال وحشر الطير وتشديد المُلْك كل هذه البراهين لا تُعطَى من لا يملك نفسه حتى شَغَف بامرأة وقصد قتل مسلم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾، قيل: الحكمة إبرام الأمور، وقيل: هي العمل الصواب، وقيل: وضع الأشياء مواضعها، وقيل: هو[٦] النبوّة. وأيَّما كانت فهي منّة من الله تعالى لا يمنّ بها على من يعرف أنه يتّبع هواه ويَسفَه ويجهل. وقوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾،[٧] يوجب التمييز[٨] بين الحق والباطل والمُحق والمُبطل. ومن صلح لفصل الخطاب فقد تنزَّه عن روايب[٩] الشهوة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على أهل زمانه، ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ /[٦٤ظ] أي سبّحي ورجِّعي، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾،[١٠] جعلناه كالعجين في يده .﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، علَّمه صنعة الدِّرع، فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.[١١] كل هذا يدل على شرف[١٢] محلّه وعظم[١٣] مرتبته عند الله تعالى.

---

١ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.
٢ م: وان.
٣ سورة ص، ٣٨/١٧.
٤ م: وسائر الخلق إلى الله تعالى.
٥ سورة ص، ٣٨/١٨.
٦ ل: هو.
٧ سورة ص، ٣٨/٢٠.
٨ ل: التميز.
٩ في النسختين: روائب.
١٠ سورة سبأ، ٣٤/١٠.
١١ سورة سبأ، ٣٤/١١.
١٢ في النسختين: على شريف.
١٣ في النسختين: وعظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾.[١] لما أغلقَ داود الباب وأظهر الحجاب دخل الملكان على صورة البشر من حيث المحرابُ ولم يمنعهم الحجاب ولا غَلقُ الباب. [و]كان ذلك تنبيهاً لداود أن لا يحتجب عن الخصوم ويترك الباب مفتوحا عليهم، وليعلم[٢]أن الملائكة وإن تصوّروا بصورة البشر لا يمنعهم ذلك عن الدخول في البنيان. وقوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾،[٣] كان فزَعه يحتمل وجهين.[٤] أحدهما أنه خلا ذلك اليومَ للعبادة، فخاف لدخولهم زوال حلاوة العبادة والاشتغالَ[٥] بالمعاملة. والثاني لما رآهم[٦] بغتة في خلوته على صورة البشر خاف البَيات[٧] أو دسّا على إهلاكه من أعدائه. وإن أُحيل فزَعه إلى ما علم الله منه كان أسلم. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾، دليل أنه ظهر الخوف على داود إما بكلام أو علامة من تغيّر الحال وغيره حتى أسرعوا فقالوا: «لا تخف إنا دخلنا لإدلاء الخصومة»، فقالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي ولا تَظلِمْ؛ وإن علما أنه لا يظلم ولا يجور ولكن /[٦٥و] إنما قالا ذلك ليُبيِّنا أنا ما جِئنا إليك لِنبطل حقاً أو لِنُحِقَّ باطلاً، بل جئنا إليك طالبين للحق[٨] والعدل، ولكن اشتبَهَ ذلك علينا؛ فقالا: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾،[٩] فطلبوا ما عنده من العدل، فإن العادل يُطلَب منه العدل كالغنيّ يُطلب منه المال.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾. هذا على وجه التمثيل أو على وجه التقدير. كما أورد محمد من الأمثلة في الكتاب: «رجل له عشرة أعبُد فقال كذا، أو أربع نِسوة فطلّق إحداهنّ،» ومعناه[١٠] «أرأيت لو كان كذا». فهذا أيضاً كذلك، فقال داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾،[١١] فكما أن السؤال على معنى التقدير فكذلك الجواب

---

١ سورة ص، ٢١/٣٨.
٢ م: ويعلم.
٣ سورة ص، ٢٢/٣٨.
٤ ل: الوجهين.
٥ ل: للاشتغال.
٦ م: بما رآهم.
٧ ل: البتات.
٨ ل: بالحق.
٩ سورة ص، ٢٢/٣٨.
١٠ ل: معناه.
١١ سورة ص، ٢٤/٣٨.

أيضاً بمعنى التقدير. يعني إن كان الأمر كما ذكرتَ فقد ظلمك، وإن كان[١] على وجه التحقيق فالشرط مضمر، يعني إن رام سؤال[٢] نعجتك ولا حق له فيها فقد ظلمك. ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أخبر[٣] أن ذلك دأب كثير من الخلطاء فيما بينهم إلا القليل منهم وهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.[٤] وداود من أولئك القليل بدلالة الآية، إذ هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات،[٥] فعَرف أن الملكين لم يقصدا ذلك وإنما قصدا[٦] بذلك تنبيه داود أنك ظلمتَ بقصد قتل[٧] أُورِيا وأخذ زوجته. وقد جرت[٨] العادة فيما بين الناس أنهم يذُمّون مَن تزوَّج /[٦٥ظ] امرأة الغير عقيب موته بمدّة قريبة، ويتّهمونه بشماتة ذلك الميت على موته ويَعتبون[٩] عليه بتزوّجها. وكان[١٠] على داود عليه السلام صيانةُ قلوب الناس عن مثل هذا[١١] الاستنكار وألسنتهم عن الخوض فيه والتحرز عن الوقوف موقف التهمة[١٢] شفقَة عليهم، وإن كان ما فعله صواباً وحلالاً[١٣]؛ فعوتب على هذا لا لارتكاب المحظور. فكان في قول الملكين إعلام داود عن قالة[١٤] الناس فيه. وإن كان هو مباشراً للحلال عنده فإنهم يتوهّمون أنك قصدتَ قتْل زوجها لأجل تزوّجها كما أنك عِبتَ على من يسأل النعجة إلى نعاجه بقولك: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾،[١٥] وإن كان يحتمل أن السائل للنعجة على الحق بأن اشترى هذه النعجة وأراد أن يضمّها إلى ما عنده من التسع والتسعين. وهذا إشارة إلى عدد نسائه، فإنها كانت تسعاً وتسعين فتمّت المائة بتلك المرأة.[١٦] فهذا[١٧] وجه المناسبة

---

١ م: وإن قال.
٢ ل: إن سأل.
٣ م: يخبر.
٤ سورة ص، ٢٤/٣٨.
٥ م ـ وداود من أولئك القليل بدلالة الآية إذ هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات.
٦ ل ـ ذلك وإنما قصدا.
٧ م ـ قتل.
٨ م: ولكن قد جرت.
٩ م: ويعيبون.
١٠ م: فكان.
١١ م: هذه.
١٢ م: موقف هذه التهمة.
١٣ م: صواب عنده وحلال.
١٤ م: عن مقالة.
١٥ سورة ص، ٢٤/٣٨.
١٦ ل ـ المرأة.
١٧ م: وهذا.

لخصومة الملَكين[١] مع حال داود عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾.[٢] الظن بمعنى اليقين ههنا، وذلك جائز كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.[٣] والفتنة بمعنى الاختبار لأجل الإخلاص. قال الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾،[٤] أي أخلصناك بالبلايا إخلاصاً. ففي تعريف تلك الحالة[٥] عن الملكين خلوص داود عن استعجال الحظوظ واستجلاب[٦] المرادات بِجِدّه وسعيه وقطعُ[٧] النظر عن غير الله في المدح والذم. وقوله تعالى: /[٦٦و] ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾.[٨] قد ذكرنا أن الاستغفار من الأنبياء على ثلاثة أوجُه[٩] أحدها[١٠] استدامة الستر عليهم والعصمةِ لهم. سأل داود عليه السلام أن يديم عليه ستره ولا يزيل عصمته في الفتنة وغيرها. والثاني أن الاستغفار في مقام العبادة خصلة شريفة كان الأنبياء أحق بإقامة تلك الخصلة. والثالث أن العبد وإن جلّ قدره فهو مستقصرٌ نفسَه في حق الله تعالى عليه في عبادته. والأنبياء في صفاء سريرتهم ونفاذ بصيرتهم أعرف الخلق بقصور أنفسهم عن قضاء حق الربوبية لما كوشف لهم من جلال الله وعظمته وكثرة جوده وإفضاله، فيتلاشى أحوالهم في مقاماتهم فيرَوْن قصور أنفسهم تقصيراً فيستغفرون ربّهم. ولهذا قال عليه السلام: «إني لأستغفر الله في كل يوم مائةَ مرةٍ»،[١١] أفَترى أنه كان يُذنب مائة ذنب في كل يوم[١٢] فيستغفر لذلك؟[١٣] وسنذكر

---

١ ل: ملكين.

٢ سورة ص، ٢٤/٣٨.

٣ سورة البقرة، ٤٦/٢.

٤ يقول الله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ (سورة طه، ٤٠/٢٠).

٥ م: تلك الحال.

٦ م: واستحلاء.

٧ م: ورفع.

٨ سورة ص ٢٤/٣٨.

٩ انظر: الصفحة ٣٤١ الورقة ١١٥و.

١٠ ل ـ على ثلاثة أوجه أحدها؛ م: وأحدها.

١١ مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢، ٢٦٠/٤؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٤١؛ وسنن أبي داود، الوتر ٢٦.

١٢ ل ـ في كل يوم.

١٣ ل: بذلك.

ذلك في قصّته[١] عليه السلام. فكذا في حق داود عليه السلام كان استغفاره لذلك لا على ما يقوله الحشوية من أنواع المحالات. ومن الجائز أن داود عليه السلام لما سمع قالة[٢] الناس فيه واتّهموه بالقصد إلى قتل زوجها ليتوصّل إليها عَدّ استعجاله في ذلك إيقافاً موقف التهمة وموجباً للعقاب من الله تعالى. والأشراف بالقليل يعاتَبون وعلى القليل يستغفرون. وما يروى من كثرة بكائه عليه السلام لا يوجب قدحاً في حاله، فالبكاء من الأصفياء محمود وإن كان[٣] لا يدرى مم بكاؤه. /[٦٦ظ] وما يروى من الألفاظ الْوَحِشة في ذلك فغير موثوق به ولا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام.

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾،[٤] يجوز أن يكون ذلك شكراً لما ألهمه[٥] الله تعالى ووفّقه لمراعاة الحكمة والمحافظة على الحدود والقضاء بالحق والصوابِ فيما جرى من أمر الملَكين والمرأة. ويجوز أن يكون عذراً لما رأى من تقصير نفسه وقصورها في حقوق الله تعالى على ما ذكرنا. وقوله: ﴿وَأَنَابَ﴾، فالإنابة[٦] الرجوع عن الخلق[٧] إلى الله أو من صفة نفسه إلى صفات الله تعالى، كما مدح الله تعالى عباده بقوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.[٨] فالإنابة أشرف خصال العبد. فإذًا هو رجع عن حديث الملَكين والمرأة وقالةِ[٩] الناس إلى الله تعالى فإنه أجاز له نكاحه وحَكَم أنها تكون امرأته وهو عنه راض[١٠] فاشتغل بالله عن غيره. وهكذا وَصَف النبي عليه السلام أولياء الله تعالى فقال:[١١] «الذين يُنيبون إلى ذكر الله وطاعته كما يُنيب النسور إلى وُكَرِها».[١٢] ومن الجائز أنه لما رأى نفسه مشغولاً بالخلق والاستمتاع بالنساء استحقر حاله فأوجب له الإنابة وصار مجذوباً فِكره عن العالم وإن

---

١ م: في فضله.
٢ م: مقالة.
٣ ل - إن كان.
٤ سورة ص، ٣٨/٢٤.
٥ م: لما أنعم.
٦ م: والإنابة.
٧ م: من الخلق.
٨ ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ (سورة ق، ٥٠/٣٣).
٩ م: ومقالة.
١٠ ل: راضي.
١١ ل - فقال.
١٢ لم أجده فيما لدي من المراجع.

كان ما اشتغل[١] به مُباحاً عليه. ألا ترى أن أبا بكر الصديق ﷺ كان إذا أراد الخلاء بعُد عن أبصار الناس ثم كان يغطّي رأسه ويُدلي بثوب على وجهه /[٦٧و] وبدنه ويستحيي عن الجلوس للحدث ويقول: «إني إن سُترتُ[٢] عن المخلوقين بأنواع السِّتر فكيف[٣] أستَر عن الله تعالى»،[٤] ثم كان يقول: «اللّهمّ إنك خلقتَني بهذه الصفة». وإن كان ذلك مباحاً وحاجة وضرورة، ومع ذلك كان[٥] يستحيي منه.

وقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، ينصرف إلى ما أشرنا إليه في الاستغفار. وأي عبد يستغني عن عفوه وغفرانه وفضله وإحسانه؟ فغُفر داودُ وغفران مثله من [جنس غفران] الأصفياء الأخيار لا غفران العصاة الفجّار. دليله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾،[٦] فلو كان حاله على ما ذكر[٧] في القصة لم يستحق بعد ذلك الزلفى وهو القربة مع الكرامة، وحسن مآب[٨] عبارة عن الأنس الدائم.

وقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فالخليفة هو المقيم لأوامر الله والمحافظ[٩] لحدود الله بأمر الله، أو يكون خليفة عن الأنبياء الذين كانوا قبله بإحياء سنتهم. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالسداد والصواب. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾،[١٠] يحتمل هوى[١١] الشيطان ويُحتمل هوى النفس.[١٢] وهذا تقرير من الله تعالى بعصمته[١٣] بالأمر والنهي فإن العصمة لا تزيل المحنة ولا تنافي الأمر والنهي. ويحتمل ﴿وَلَا

---

١ م: الاشتغال.
٢ م: استترت.
٣ م: وكيف.
٤ عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: استحيوا من الله، فإني لأَدخُل الخلاء فأقنّع رأسي حياء من الله ﷻ. انظر: كنز العمال للهندي، ٣/٧٠٥.
٥ م - كان.
٦ سورة ص، ٣٨/٢٥.
٧ ل: فلو كان حاله ما ذكر.
٨ ل: حسن المآب.
٩ م: والحافظ.
١٠ سورة ص، ٣٨/٢٦.
١١ م: هو.
١٢ م: هو النفس.
١٣ م: لعصمته.

تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي أهواء الناس حيث يَهوَوْن أنك تُفارق /[٦٧ظ] هذه المرأة، والحكم بالحق أن نكاح امرأة المقتول جائز ومفارقتها بهوى الناس اتّباع الهوى، وذلك يضلك عن سبيل الله.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾،[١] إشارة أن خلق السماوات والأرض لم يكن خالياً عن الحكمة فكيف يكون إرسال الرسل خالياً عن الفائدة والحكمة؟ ولو بَعث لدعوة الخلق وتقويمهم مَن يعلم أنه يترك أمره ويرتكب نهيه ويتّبع هواه كان عبثاً وسفهاً. والله أعلمُ حيث يجعل رسالاته.[٢] فما وقع من الظن في حق داود ليس ذلك ظنّ الموحدين والمصدقين. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾[٣] [من] أن الله خلق السماوات والأرض عبثاً وسفهاً من غير حكمة. فكذا مِن يظن أنه يَبعث من لا يُوثَق بقوله ولا تلزم الحجة بدعوته فهو من ظنّ من كفر بالله وحده. ثم ميّز بين المؤمنين المصلحين والمفسدين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ [كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ]﴾.[٤]

وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾،[٥] فيه أنواع من البركة، وأحدها ذكر قصة إخوانك من المرسلين وبيان أوصافهم على الحق والصدق، كما قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾،[٦] أي نبين لك أحسن البيان ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾،[٧] ليتأمّلوا في إشارات القرآن ويستنبطوا معانيه التي أشارت[٨] إلى صدق أحوال الأنبياء عليهم السلام. /[٦٨و] ولم يقل ليقرءوا آياته فيقتصروا على فهم ظاهره بل قال ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾، أي يستخرجوا دقائق معانيه كما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.[٩] وقال:

---

١ سورة ص، ٢٧/٣٨.

٢ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (سورة الأنعام، ١٢٤/٦).

٣ سورة ص، ٢٧/٣٨.

٤ سورة ص، ٢٨/٣٨.

٥ سورة ص، ٢٩/٣٨.

٦ سورة يوسف، ٣/١٢.

٧ سورة ص، ٢٩/٣٨.

٨ ل: أشرنا.

٩ سورة النساء، ٨٢/٤؛ وسورة محمد، ٢٤/٤٧.

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.[١] وإنما صرفنا تأويل هذه الآيات إلى قصة داود عليه السلام وإن كانت الآية بظاهرها عامة للتنبيه صالحةً لابتداء التفسير لما ذكر في إثره قصة داود عليه السلام حيث قال: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾،[٢] فالآية تخللت بين قصّتَيْ داود عليه السلام فاستحسنّا صرفها إلى داود عليه السلام لهذا.[٣] والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾. قال ابن عبّاس رضي الله عنه: إن تلك المرأة أمّ سليمان فلو كانت هي منكوحة من الوجه الذي ذكر في ظاهر القصة لم يستحقّ هذا الإكرام إذ الهبة اسم العطية الخالصة. ثم وصف ولدها سليمان بغاية المدح فقال: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾. ويحتمل أن يكون هذا المدح مصروفاً إلى داود عليه السلام فإنه يصلح أن يكون مكنيًّا[٤] وإن كان أبعد. وقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾،[٥] إن صرف إلى داود فهو وصف بأنه المقبل إلى طاعة الله والراجع عن الخلق إلى الله بالكلية، وإن صُرف إلى سليمان فهو وجه أيضاً فهو تعريف منة الله لداود بهبة مثل هذا الولد ليشتغل بشكر هذه النعمة، كما قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.[٦]

□ □ □ □ □ □

---

١ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ (سورة النساء، ٨٣/٤).

٢ سورة ص، ٣٠/٣٨.

٣ م: صرفها إلى داود لهذا فالآية تخللت بين قصتي داود عليه السلام فاستحسنّا لهذا.

٤ م: مكينا. أي يمكن أن يكون مكيتا بـ ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾.

٥ سورة ص، ٣٠/٣٨.

٦ سورة السبأ، ١٣/٣٤.

ذكر سليمان[١] النبي المرسل صلوات الله وسلامه عليه

اختصّ الله تعالى سليمان عليه السلام لنبوته ورسالته وجعله وارث أبيه /[٦٨ظ] في مملكته فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾،[٢] فالوراثة عبارة عن الاتصال بمن سبقه، كالوارث في المال يملك من غير تخلّل واسطة بين المورِث والوارث. فرسالة سليمان عقيب أبيه داود كانت بلا واسطة فَصَلت بينهما، وكذا المُلك. فاتّصلت دعوة سليمان وملكه بدعوة أبيه ومُلكه من غير تخلل واسطة. ثم خصّ الله تعالى سليمان بخصائص لم تكن لأبيه كما أخبر الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.[٣] وقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ.﴾[٤] وقال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ.﴾،[٥] وآياتٌ أُخَرُ فيما سخر الله له من أنواع الخليقة. واختصه بأنواع الأعجوبات من تكليم السباع والطيور والهوامّ والعُشب والأدوية بما فيها من المصالح والمفاسد إلى غير ذلك من الفضائل التي أُختُصّ بها عليه السلام. والفاضل المختار من الله تعالى لا يتّصف بصفة الجبابرة ولا يعتاد عادة الظلَمة ولا يستحلي المُلك استحلاء يبخَل به على غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾،[٦] سؤال

---

١ م: ذكر قصة سليمان.

٢ سورة النمل، ١٦/٢٧.

٣ سورة سبأ، ١٢/٣٤.

٤ سورة ص، ٣٦/٣٨.

٥ سورة النمل، ١٧/٢٧.

٦ سورة ص، ٣٥/٣٨.

بلفظ[١] الهبة، وإنه يقتضي أن يكون الموهوب خالياً عن الآفة والاستدراج والخديعة، لا كالرزق فإن الرزق قد يكون خيراً وقد يكون شرًّا. وقوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، /[٦٩و] سؤال عن عصمته في مُلكه عن الميل إلى أسباب التجبّر في انتظام الملك الخارج عن عادة[٢] الملوك، غيرةً منه على برهان الحق أن يموّه أحد بمثله على وجه يشتبه حاله على الناظرين أنه من ذلك الجنس. كما كان في أمر موسى[٣] عليه السلام حين أخبر الله تعالى عن سحرهم فقال: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾،[٤] فأوجس موسى خِيفَة على قومه إلى أن غلَبَ البرهان وزال السحر. فأحب سليمان أن يكون الملك الذي جعله[٥] الله برهاناً له[٦] مخصوصاً به بحيث ينقاد[٧] له كل ملِك من غير قهره ومباشرته. وفي هذا تعظيم البرهان وتخصيص المنّة لنفسه دون الضِّنّة والبخل بنعمة الله تعالى على غيره، كما كان عصا موسى مخصوصا به لم يقع بعده على يدي أحد. وكذا كان نساء النبي عليه السلام ورضي عنهنّ مخصوصاتٍ به، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾.[٨] ويحتمل أنه عليه السلام سأل ملكاً لا يرغَب في مثله أحد بعده وظاهر اللفظ يدل عليه، فإنه قال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾،[٩] أي لا يطلبه أحد بعدي ولم يقل: «لا تُعطه[١٠] أحدا بعدي.» ومعنى ذلك أنه سأل ملكاً لا يتنعّم به ولا يأكل منه، بل يأكل مِن كدّ يمينه ويؤاكِل الفقراء والمساكينَ وتقول:[١١] «مسكين جالسَ مسكيناً». ولا ينبغي لأحد من بعده مثل هذا الملك، إذ من طلبَ /[٦٩ظ] الملك والسلطنة إنما يطلبه للتنعم والتمتع،

١ م: بلفظة.
٢ م: عن عادات.
٣ ل: كما كان يخيل في أمر موسى.
٤ سورة الأعراف، ١١٦/٧.
٥ م: جعل.
٦ م ـ له.
٧ م: ينفاذ.
٨ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ (سورة الأحزاب، ٥٣/٣٣).
٩ سورة ص، ٣٥/٣٨.
١٠ م: لا تعطي.
١١ م: ويقول أي تقول الفقراء والمساكين.

ومن آثر الفقر والمسكنة وأكل من الكسب فهو لا يطلب الملك أصلا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.[1] الصافن الفرس الذي يقوم على ثلاث[2] قوائم ويضع سُنْبُكَ الحافر الرابع على الأرض. والجياد النجائب في الخلقة السِّراع في العَدْو. فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ إلى قوله ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.[3] ذكر في القصة أن الخيل عُرضت عليه فاشتغل بها حتى غربت الشمس وفاتَته العصر فتشائَمَ بها فأمر بردّها عليه فضرب أعناق بعضها وضرب عراقيب[4] بعضها. فلما فعل ذلك أمر الله بردّ الشمس لتكون صلاته في وقتها وأبدلَه الله تعالى من الخيل الريح المسخَّرة[5] تجري بأمره رُخاء[6] غدوُّها شهر ورواحها شهر.[7] قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن صح هذا النقل[8] يُحمَل على جواز إيلام البهائم من غير نفع في شريعته كما في حق الهُدهد حيث قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ﴾،[9] ويكون ذلك اهتماماً بفوات وِرده وتشاؤماً بما شغله عن ذكر الله، كإخراج النبي[10] عَلَيْهِ السَّلَامُ الناقة الملعونة التي لعنها صاحبها.[11] وفي هذا تنبيه للمسلمين أن كل ما يَشغلهم عن طاعة /[٧٠و] الله فهو غير ميمون عليهم. لكن الأشبه أن

---

١ سورة ص، ٣١/٣٨.
٢ م: على ثلاثة.
٣ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (سورة ص، ٣١/٣٨ ـ ٣٣).
٤ م: عراقب.
٥ م: المرسلة.
٦ ل ـ رخاء.
٧ انظر: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (الآية ٣٦ من هذه السورة)، ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سورة سبأ، ١٢/٣٤).
٨ م ـ النقل.
٩ سورة النمل، ٢١/٢٧. انظر: تأويلات القرآن، ٢٤٧/١٢.
١٠ م: رسول الله.
١١ عن عمران بن حُصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضَجِرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها فإنها ملعونة» صحيح مسلم، البر والصلة ٨١ ـ ٨٣؛ وانظر: سنن أبي داود، الجهاد ٥٠؛ وسنن الدارمي، الاستئذان ٤٥.

يكون المسح باليد تيمّناً بها، على ما قال عليه السلام: «الخَيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».[١] ولم يُرد به قطعها بالسيف وإن كان القطع بالسيف[٢] قد سُمّي[٣] مسحاً، ولكن حقيقة المسح باليد وقد غلب[٤] استعماله لذلك فإنها[٥] آلة المسح غالباً فكان الصرف إليه أولى، لأنه[٦] روي أنه عليه السلام أمر بردّ الخيل فمسح أعناقها وسُوقَها وجعلها مسبَّلة في سبيل الله تعالى فاستحق إكرام الله بردّ الشمس وتسخير الريح.

قال الشيخ: لم يكن عرض الخيل عليه كالعرض على الملوك وأبناء الدنيا المشتغلين بزهراتها والمستمتعين بلذّاتها، بل كان عَرْضاً لينظر إليها نظَرَ متفكِّر ومعتَبِرٍ بما ضُمِّن فيها من صنع اللطيف جلّ جلاله فكوشف فيها من آثار اللطف ما جذبه عن الإحساس بالعالم فغاب عن الشمس وغروبها والصلاة ووقتها. ومحافظة الوقت وأداء الصلاة وإن كان فرضاً فهو دون مقام الكشوف. فإذا أُعيد إلى الإحساس بالعالم وقد رأى الشمس قد غربت فاهتمّ لأمر الصلاة فردّ الله له الشمس. فلما رأى تلك الكرامة بواسطة الخيل أمر بردّها وتبرَّك بمسح أعناقها وسُوقها، فسخر الله له الريح. ولو اشتغل بها اشتغال أهل الغفلة واللهو وضَرَب[٧] الأعناق وقطع العراقيب كفعل الجبابرة لم يكن يستحق من الله تعالى هذا النوع من الإكرام. والأصل في حال الأنبياء /[٧٠ظ] انتظار الوحي في أفعالهم، فالظاهر[٨] أنه اشتغل بعرض الخيل بأمر الله وإذنه. وإذا عرفتَ هذا الأصل فقد وَضَح لك ما أُشكل عليك في ظاهر[٩] القصة من ضرب الأعناق وقطع العراقيب، إذ كل ذلك جائز من الله تعالى في خلقه، فيجوز للأنبياء بأمره ووحيه.[١٠]

---

١ مسند أحمد بن حنبل، ٩/٣، ١٨١/٥؛ وصحيح البخاري، المناقب ٢٨؛ وصحيح مسلم، الزكاة ٢٥؛ الإمارة ٩٨.

٢ م ـ وإن كان القطع بالسيف.

٣ م: قد يسمى.

٤ م: باليد قد غلب.

٥ ل: فإنه.

٦ ل: فإنه.

٧ م: فضرب.

٨ م: قال طاهر.

٩ م: في طاهر.

١٠ ل: بوحيه وأمره.

ولما جعل[1] الله تعالى ملكه برهاناً لنبوته جاز أن يأمره بالنظر في أسبابه. والخيل أقوى أسباب الملك وأوصل إلى تنفيذ[2] المراد.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾،[3] إنما أحبّه لما فيه من الخير كما رُوِينا فيه من الحديث.[4] وقد أقسم الله تعالى بها في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾،[5] لما أنها[6] خُلقت عُدّة وآلة لأفضل الأعمال وهو نصرة دين الله وقهر أعداء الله، وجعل الشرع له في الغنيمة سهماً. وقد ورد في الخبر أن الخيل لها دعوتان مستجابتان؛ إحداهما أن يجعلها الله تعالى مكنيّة في قلوب أربابها، والثانية أن تجعل أصحابها موسَّعة عليهم أرزاقهم.[7]

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾،[8] عبارة عن غروب الشمس وفوات العصر. وقد قيل:[9] إنه كان له وِرد بعد العصر ففات ذلك. ولو صح ما في ظاهر القصة كان الفوات من غير تفريط سليمان عليه السلام، بل بجذب الله إياه بواسطة النظر إلى الأفراس عن الدرك والإحساس ومجاوزة سرّه عن المُلك الموتَى[10] إلى المَلِك /[٧١و] ثم لما رُدَّ إلى الإحساس بهذا العالم[11] اهتمّ للقصور عن مقام الخدمة فأكرمه الله تعالى بردّ الشمس، وقيل له: «هاكَ وقتَ الصلاة ليزول اهتمامك بالقصور عن الخدمة في مقام الظاهر». هذا كما وقع السهو للنبي عليه السلام في صلاته لاستغراقه بشهود[12] جلال الله،[13] وذلك أعلى

---

١ ل: ولما فعل.
٢ م: إلى تنقيد.
٣ سورة ص، ٣٢/٣٨.
٤ انظر: مسند أحمد بن حنبل، ٣٩/٣؛ ١٨١/٥؛ وصحيح البخاري، المناقب ٢٨؛ وصحيح مسلم، الزكاة ٢٥؛ الإمارة ٩٨.
٥ سورة العاديات، ١/١٠٠.
٦ م: كما أنها.
٧ انظر: مسند أحمد بن حنبل، ١٦٢/٥، ١٧٠؛ وسنن النسائي، الخيل ٩؛ وتفسير ابن كثير، ٣٥٢/١؛ ٣٢١/٢.
٨ سورة ص، ٣٢/٣٨.
٩ م: وقيل.
١٠ م: المولى.
١١ م: لعالم.
١٢ م: شهود.
١٣ انظر: صحيح البخاري، السهو ١ ـ ٣؛ وسنن النسائي، السهو ٢١ ـ ٢٢.

من مقام مراعاة ظاهر الصلاة. لكن لما تداخل نوع قصور في ظاهر الخدمة أهمَّه ذلك فأُمر بسجدتي السهو جبراً لقصور الظاهر ليقتدي به مَن بعده. ولو جعل هاتين السجدتين في الحقيقة سجدتي شكر لما أكرمه الله تعالى بذلك المقام لا يبعُد، وإن كان في الظاهر سجدتَيّ سهو. وقد نظم هذا المعنى واحد من الكبراء فقال:[١] (شعر)

يا سائلي عن رسول الله كيف سها   والسهو من فعلِ قلبٍ غافل لاهي
قد غاب عن كل شيء سرُّه فسها   عما سوى الله في التعظيم لله

فإن قيل: هلاّ رد الشمس في حق النبي [محمد] عليه السلام حيث بقي في الوادي نائماً مع أصحابه حتى أشرقت عليهم الشمس وفات وقت صلاة الفجر؟

قلنا: يجوز أن يكون سليمان مخصوصاً بتلك المعجزة كما كان مخصوصاً بتسخير الجن ومنطِق الطير وغير ذلك. والثاني يحتمل أن صلاة سليمان عليه السلام كان تبعاً للوقت، والوقت كان تبعاً لصلاة النبي عليه السلام. والثالث أن ردّ[٢] الشمس لسليمان[٣] إشراق الأرض بعد ظلمتها، ولو رُدّ الشمس لمحمد عليه السلام /[٧١ظ] لكان فيه إظلام الأرض وإذهاب النور. وهذا لا يليق بحاله ﷺ. والرابع أن رَدّ الشمس ما كان لعين الشمس، وإنما المقصود من ذلك ردّ الوقت؛ وقد رُدّ الوقت للنبي عليه السلام من غير ردّ الشمس، وردّ الشمس كان مخصوصاً بسليمان عليه السلام، وردّ الوقت كان عامًّا في حق النبي عليه السلام وأمّته على ما قال عليه السلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها».[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾،[٥] قد ذكرنا أن معنى الافتنان

---

١ ل ـ فقال.
٢ في النسختين: أن برد.
٣ ل ـ لسليمان.
٤ مسند أحمد بن حنبل ١٠٠/٣، ٢٤٣؛ وصحيح البخاري، مواقيت الصلاة ٣٧؛ وصحيح مسلم، المساجد ٣١٤ ـ ٣١٦.
٥ سورة ص، ٣٤/٣٨.

هو الابتلاء، وهو في حق الأنبياء عليهم السلام التميز عن عادات البشر وإخلاصهم عن ملاحظة الأغيار.[١] قال بعض أهل التأويل:[٢] إن فتنته كانت زوال ملكه مدة. وأنكر بعض الناس زوال مُلكه أصلاً وأنكروا القصة رأساً. قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: لو زال الملك عن سليمان مدة لم يكن بعيداً من الحكمة. ولكن على أصل الشيخ أبي منصور لا نشهد على صحة هذه القصة إلا بقدر ما نطق به القرآن. فإنه كان[٣] لا يقول في القِصص بأكثر مما جاء في القرآن وبالرواية المتواترة، وأما ما جاء[٤] من أخبار الآحاد فذاك لا يوجب علم الشهادة، وليس في ذكر القصة سوى الشهادة. ثم على أصل من قال بزوال الملك اختلفوا في سبب زوال الملك على أقاويل. ولو صح ذلك السبب /[٧٢و] فقد ذكرنا أن الأنبياء كانوا يعاتبون بأدنى شيء. قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ اللَّهُ: إن محن الأنبياء يجوز أن تكون بناء على الأسباب، وقد يكون ابتداء محنة من الله تعالى من غير علة ولا سبب.[٥] وهم في تلك المحن بالقرب والاصطفاء على ما كانوا في خلال[٦] النعم لم يسقط بذلك أقدارهم. ثم أزال ملكه بأي وجه أزال ليُعلم[٧] أنه كان رسولاً ومكرَّماً عند الله تعالى بالإرسال لا بالمُلك. ولله تعالى أن يمسك رسله إن شاء بالمعجزات وإن شاء خالياً عن المعجزات، إذ المعجزات لإيضاح المحجة للمصدّقين وإلزام الحجة على الجاحدين، لا لثبوت الرسالة وبقائها. وقد علم الله تعالى من قوة سرّ سليمان وصفاء باطنه أنه لا يشمئزّ قلبه بزوال الملك عِلماً منه أن المُلك لله تعالى إن شاء أعطى لنبيّه وأعطاه التوفيق على القيام بأسبابه، وذلك منه فضل، وإن شاء أعطى لعدوه

---

١ م ـ قد ذكرنا أن معنى الافتنان هو الابتلاء وهو في حق الأنبياء عليهم السلام التميز عن عادات البشر وإخلاصهم عن ملاحظة الأغيار. + قيل.

٢ م: الناس.

٣ م: وأما ما قال.

٤ م: كان.

٥ انظر: تأويلات القرآن، ٢٤٩/١٢ ـ ٢٥١.

٦ م: في حال.

٧ م: لنعلم.

وسلّطه على خلقه وإن لم يكن ذلك أصلح لهم. وذلك منه عدل، خلافاً لما يقوله المعتزلة أن ما هو الأصلح للعباد واجب على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾.[١] قال بعض أهل التأويل:[٢] إن المراد من الكرسي هو المُلك، يعني[٣] أدخلنا في ملكه جسداً. وقال بعضهم: الكرسي هو السرير، والجسد المُلقَى عليه إبليس. قال الشيخ الإمام: سمعتُ الفقيه أبا الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سُئل عن جلوس إبليس على كرسي سليمان فقال: إنا لا نشهد /[٧٢ظ] على ذلك، ولكن[٤] لو صح لا يبعد. فسُئل أن الإيمان بسليمان في ذلك الوقت كان فرضاً، ومن نظر إلى إبليس على السرير فقال: «آمنتُ بك» كيف يصح إيمانه بسليمان؟ فأجاب الشيخ وقال: بأن الداخل وإن كان يشير إلى إبليس ولكن يقع إيمانه بسليمان لا بإبليس، إذ الإيمان يتعلّق بالاعتقاد لا بالإشارة، كواحد من الأعراب إذا كان يأتي المدينة في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فأبصر شخصاً فظنه محمداً فقال: «آمنتُ بك» وفي اعتقاده أنه يؤمن بمحمد النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ولكن حسِب هذا الشخص نبياً، يصير مؤمناً وإن أخطأت إشارته. ولا يروى بأكثر من جلوسه على سرير سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فأما ظهور البرهان والمعجزة على يديه [فهو] ممتنع محال فيكون جلوسه إراءة منه أنه ملِك. وفي ذلك الوقت كان في كل قُطر ملِك من الكفار فيُعَدّ إبليس من أولئك المتصدِّرين[٥] في ظاهر المُلك. ولا نقصان في حال سليمان في زوال ملكه إذ لم يُعزَل[٦] عن الرسالة، ولعله في وقت فراغه عن ظاهر ملكه آنَسُ بذكر الله تعالى وأصفى[٧] حالاً مما كان قبله. وتعدّى سره عن النظر إلى المُلْك بالنظر إلى الملكوت، كما قال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد خروجه من النار: «ليتَ عيشي في النار»،[٨] وإن كان يتراءى[٩] للناظرين لحوق نقص

---

١ سورة ص، ٣٨/٣٤.
٢ م: التفسير.
٣ م: معناه.
٤ ل: لكن.
٥ ل: المتصدين، م: المتصدقين.
٦ م: إذا العزل.
٧ م: واصفا.
٨ انظر: الدر المنثور للسيوطي، ٤/٣٢٢.
٩ في النسختين: يترايا.

بالخليل عليه السلام وهو في تلك الحالة أعزُّ وآنس بذكر الله. وظاهر مُلك سليمان يُستقَلّ بمقابلة ما أُعطي من مُلك /[٧٣و] باطنه. على ما روي من كلام النملة في مخاطباتها[١] مع سليمان عليه السلام، قالت له: كم تجري الريح المسخّرة في كل يوم؟ فقال سليمان: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.[٢] فقالت: فهلاّ تُمسك قلباً يصل إلى العرش[٣] بطرفة عين؟ فلِم لا تحسن الظن بالله تعالى فيما عامل أنبياءه عليهم السلام في محابّهم ومكارههم، إنه محسن بهم ومكرم لهم في كل حال.

وما يذكر في القصة أن الشيطان كان لا يُميّز في النساء [أي في أزواج سليمان عليه السلام] بين حالة الحيض وبين حالة[٤] الطهر. وفي ذكر آصَفَ أنه أنكر منه تغيير الأحكام. فهذا وَحش من القول لا يجوز صرف القول إلى قِربان الشيطان لنسائه. ولو صحت الرواية كان عدم التمييز مصروفاً إلى الجهل لأحكام[٥] الحيض والطهر عند سؤالهنّ. وكذا إنكار آصف لتغيير الأحكام عند الاستفتاء.

وقال بعض أهل التحقيق: إن الجسد[٦] عبارة عن قالب خال عن الروح. فَبَعُدَ ذلك التقرير من وجهين. أحدهما أن ذلك الجسد عبارة عن ولد لسليمان[٧] وُلد له بفرد رِجل وهو ميّت فوضع على سريره.[٨] ويروى في الخبر عن أبي هريرة أن النبي عليه السلام قال: «قال سليمان بن داود عليه السلام: لأطوفَنّ الليلةَ على مائةِ امراة أو تسع وتسعين كلهنّ تأتي بفارِس يجاهد في سبيل الله. ولم يقل[٩] «إن شاء الله»، فلم تُحمَل منهنّ إلا امرأة جاءت بِشقّ[١٠] رِجْل. والذي نفس محمد بيده لو قال «إن شاء الله» لجاهدوا في سبيل الله

١ ل: في مخاطباتهم.
٢ سورة سبأ، ٣٤/١٢.
٣ م: إلى الفرس.
٤ م ـ حالة.
٥ ل: بأحكام.
٦ لعله يتعرض إلى تأويل الآية ٣٤ من سورة ص ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.
٧ م: سليمان.
٨ ل: في سريره.
٩ م: فلم يقل.
١٠ م: شقّ.

/[٧٣ظ] فُرسانا أجمعين».[١] فقيل:[٢] إن الجسد الذي ألقى على كرسيه ذلك الابن الميّت تأديباً له وعتاباً على نسيان ذكر الله عند تمنّي الأولاد؛ فأناب إلى الله تعالى بعد ذلك إما من تمنيه أو من ترك الاستثناء. والوجه الثاني أن المراد من هذا الجسد[٣] جسد سليمان عليه السلام،[٤] ومعناه أن ملكه كان مربوطاً بجسده لا بروحه،[٥] وروحه كان مستغرقاً[٦] بشهود الله تعالى غير مشغول بملك الدنيا، وكان صورة جسده كافياً لاستقرار مُلكه. ودلالة ذلك أنه حين قُضي عليه الموت وكان جسده قائماً منصوباً على سريره كان ملكه في نظام،[٧] وعملت المسخَّرات عمَلها من غير تقصير .﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.[٨]

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾،[٩] رجوع من الدنيا ونعيمها إلى العقبى ومن الخلق إلى[١٠] المولى، على ما روي أنه[١١] عليه السلام إذا جنّه الليل كبّل رِجليه وغلّ يديه ولبس بَلاس[١٢] المِسْح[١٣] وانتصب قائماً يعبد[١٤] ربه ويقول: هكذا حال العبد الآبق. وكان يأكل خُبز الشعير مِن كَدّ يده، وكان يطعم عياله وأضيافه خُبز الحُوَّارَى.[١٥] وإذا رأى مسكيناً جلس إليه وقال: مسكين جالَس مسكينا فاغفر لهما. وهذا[١٦] يلزَم على من فضّل الغنى على الفقر مُحتجّا بغنى[١٧] سليمان وملكه. كما أجاب الشيخ أبو منصور رحمه الله: إن

---

١ مسند أحمد بن حنبل، ٢/٢٢٩، ٢٧٥؛ صحيح البخاري، الجهاد ٢٣؛ النكاح ١١٩؛ الأيمان والنذور ٣؛ وصحيح مسلم، الأيمان ٥٢.
٢ م: وقيل.
٣ م: من الجسد.
٤ م: الأنبياء عليهم السلام.
٥ م ـ ومعناه أن ملكه كان مربوطاً بجسده لا بروحه.
٦ ل: مشهودا.
٧ م: في نضايم.
٨ سورة سبأ، ٣٤/١٤.
٩ سورة ص، ٣٨/٣٤.
١٠ م ـ العقبى ومن الخلق إلى.
١١ أي النبي سليمان.
١٢ ل ـ بلاس.
١٣ ثوب غليظ من شَعَر.
١٤ ل: يعتذر.
١٥ ل: الخبز الحوارى. الحُوّارَى: الدقيق الأبيض.
١٦ م: فهذا.
١٧ م: يعني.

غِنى سليمان لا يدل على فضل الغنَى على الفقر إذ أكثر /[٧٤و] الأنبياء عليهم السلام كانوا فقراء حتى أن[١] أفضل الأنبياء كان فقيرا حَتى افتخر بالفقر، فقال: الفقر فخري.[٢] وقد نهى الله تعالى[٣] نبيّه عن النظر إلى الأغنياء بعين الإعجاب والتمنّي[٤] فقال: [٥]﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾.[٦]

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾،[٧] فيه ردّ على المعتزلة حيث سأله على طريق الهبة، ولو كان الأصلح واجباً لم يكن إعطاء الواجب هبة. فدلّ على[٨] أنه إن أعطى فبفضله وإن منعَ فبعدله. وقوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾، ليس على وجه الضَّنّة[٩] بمُلْك الدنيا واستجلابه[١٠] مُؤْثَراً على ملك الآخرة، بل أراد أن يكون[١١] بهذه المعجزة مخصوصا ولا يشاركَه فيها غيره فضلاً من الله وكرماً؛ على أن اللفظ لا يُنبئ عن منع الملك عن غيره[١٢] بل يُنبئ عن عدم الرغبة لغيره[١٣] في هذا الملك، فإن الإنسان إنما يرغب في الملك للتمتع والتنعم به من نيل المُنَى والجريِ على موجب الهوى. فأما مُلكٌ يُتحمّل مُؤنته ويكتسب في خلال ذلك ويأكل الملِك من كدّ يمينه[١٤] فلا يرغب فيه أحد. فمعنى قوله ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ - والله أعلم - أي لا يرغب فيه أحد.

---

١ م: وكذلك.

٢ انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٣٠٠؛ وتمييز الطيب للشيباني، ص ١١٣؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٨٧/٢ قال العجلوني: قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: هو باطل موضوع؛ والمصنوع لعلي القاري، ص ٩٧.

٣ م - الله تعالى.

٤ م - بعين الإعجاب والتمني.

٥ ل: وقال.

٦ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (سورة طه، ١٣١/٢٠).

٧ سورة ص، ٣٥/٣٨.

٨ م - على.

٩ م: الظنة.

١٠ م: واستحلائه.

١١ م - أن يكون.

١٢ م: لغيره.

١٣ م - لغيره.

١٤ م: يده.

وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾،[١] قيل: هو النبوّة لأنها أرفع المنازل، وقيل: هو الملك إذ هو المخصوص به من بين سائر الأنبياء، وقيل: تسخير الرياح والشياطين، فإنه قال: ﴿وَءَاخَرِينَ /[٧٤ظ] مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾.[٢] وقال بعض أهل الإشارة: العطاء هو جذب السرّ عن المُلك وإزالة الميل إلى الكون. ولكن هذا لا يناسب قوله ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.[٣] وقوله: ﴿فَٱمْنُنْ﴾، قيل:[٤] هذا تخيير في المقرَّنين في الأصفاد يقول إن شئتَ مننتَ عليهم وخلّيتَ سبيلهم. وقال بعضهم: أراد فاغتنِمْ واقبَلْ هذا العطاء بالمنة ﴿أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعني وأمسِك بغير حساب يعني لا تحاسَب[٥] لأجله. وهذا دليل على أنه لم يكن مُلكه دنياويًا بل كان لإعلاء كلمة الحق وإظهار دعوة الله بين الخلق من قهر أعداء الله، وهو في خلال ذلك المُلكِ معصومٌ وعن الركون إليه مجذوب.[٦] والله تعالى يُؤتي مُلكه من يشاء من عباده، ثم يُوفِّق بعضهم على العدل فضلاً منه ويخذُل بعضهم على الجور عدلاً منه. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾،[٧] دليل على أن ما جرى عليه لم يَحُطَّ درجته بل هو بغاية القرب. وهذا من الله تعالى حِفظ لقلوب عباده أن يتفكَّروا[٨] في الأنبياء بما لا يليق بهم.

وقوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾،[٩] سمّى للطير منطقاً وهو في ظاهره صوت غير مفهوم المعنى ومثل هذا لا يسمّى منطقاً، ولكن لما علم الله تعالى أن بعض أصواتهم مؤدٍّ[١٠] معنى وفهّم ذلك لسليمان فسمّى[١١] أصواتهم منطقاً إذ المنطق صوت /[٧٥و] يؤدّي معنى فيكون منطقا لَسليمان وصوتاً لغيره. ولم يقل عَلِمْنا إذ ليس في قوى البشر

---

١ سورة ص، ٣٩/٣٨.
٢ سورة ص، ٣٨/٣٨ ـ ٣٩.
٣ سورة ص، ٣٩/٣٨.
٤ م ـ قيل.
٥ ل: لا يحاسب.
٦ م: محذوف.
٧ سورة ص، ٤٠/٣٨.
٨ م: أن تتفكروا.
٩ سورة النمل، ١٦/٢٧.
١٠ ل: مؤدي.
١١ م: سمى.

الوقوف على منطق الطير، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾،[١] فأشار بقوله ﴿عُلِّمْنَا﴾ أن ذلك بتعليم الله إياه تعريفاً لمنّة الله وتحقيقاً للمعجزة. وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾،[٢] عدَّه من فضل الله وأوجبَ على نفسه الشكر، فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾،[٣] أي ألهِمْني شكر نَعْمائك عليّ وعلى والديَّ، إذ النعمة على الوالدين نعمة على الولد.

وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.[٤] وفي الآية دليل أن لها قولاً ولسائر الحيوانات[٥] أيضاً، وأن التحرّز عن المهالك واجب، وأن من أقيم راعيا على جنس يجب عليه الرعاية لهم[٦] والذبّ عنهم بقدر الإمكان.[٧] وكان ذلك إلهاماً للنملة ووحياً لسليمان من طريق النملة. وقولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إبلاغ[٨] لعذر سليمان عليه السلام أنه نبي الله لا يظلم خلق الله وجنودَه تحت قهره[٩] وسلطانه[١٠] لا يقصدون الظلم، ولكن ربما يحطمنّكم جهلاً منهم بحالكم لصغر جُثّتكم. وفيه دليل أن هلاك الحشرات إذا كان من غير علم الإنسان لا يكون مؤاخَذاً به.

وقوله: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾.[١١] دليل على أن على الراعي أن يتفقّد أحوال الرعيّة ولا يتركها مُهملة. وما يروى أنه إنما تفقّده لأنه تأذّى بالشمس. قلنا: /[٧٥ظ] الأنبياء لا يضطربون بالمكاره فكيف بهذا القدر، لكنه خافَ نقصاً في حقه من برهان التسخير على قدر ذلك الطائر إغفالاً منه في حقه، فلما تبيّن له أن التسخير لم يزل عنه ولم

---

١ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٤٤).
٢ سورة النمل، ٢٧/١٦.
٣ سورة النمل، ٢٧/١٩.
٤ سورة النمل، ٢٧/١٨.
٥ م: الحيوان.
٦ م: بهم.
٧ م: الممكن.
٨ في النسختين: إيلاء.
٩ م: تحت قدره.
١٠ م + وإظهارا.
١١ سورة النمل، ٢٧/٢٠.

يُقصِّر[١] في حق الطائر فعند ذلك[٢] أحال التهمة إلى الطائر أنه عسى فارقَ أصحابه من غير إذنه جُزافاً أو على تهمة منه، فقال: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾،[٣] فإلى[٤] هذا الحال سلكَ مسلَك الخائفين من نفسه التقصير. فلما ظهرت له براءة ساحته أوعدَ للطائر فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾. ويجوز أن يكون في شريعته إيلام ذي الروح جائزاً كما روي من عقر الساق وضرب الأعناق من سليمان عليه السلام. وإنما فعل ذلك بتلك الغيبة اليسيرة تعظيماً للمُلك الذي أوتيَ بطريق البرهان كيلا يتمثّل به غيره من الطيور فينزجر سائرُهنّ. وقوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾،[٥] دليل على قصور علم البشر وإن جلّ قدره في ملكه ونبوّته حتى انتظر حجّته في غيبته. وفيه دليل أنه إنما يعذِّبه لحق الله تعالى لا لحق نفسه، فإن الله تعالى ملّكه وسخره[٦] لسليمان عليه السلام وكان[٧] تسخيره تحت تصرّف الله تعالى فوق تسخيره تحت مُلك سليمان عليه السلام.

وقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.[٨] هذا من معجزات ملك سليمان حيث أنهى الطائر إليه خبر تلك المرأة. وفيه تطييب قلب سليمان حيث أخبرَه الطائر عما كان هو بصدَده في تفحّص من يخالفه في ملكه ودينه[٩]/[٧٦و] فعمل الطائر عمل العيون والطلائع بل أكبرَ وأنفذَ.[١٠] وقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾،[١١] دليل أن خبر المتَّهَم لا يفيد شيئاً كما قال الله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.[١٢] وقوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، دليل أن مُلك الدنيا قد يكون للكافر والمؤمن والمرأة والرجل وذلك لخِسّة قدرها وقلّة خطرها. وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾،[١٣] هذا استكثار لملكها[١٤] من الطائر، فإنه

---

١ م: عنه لم يقصر.
٢ م + سليمان.
٣ سورة النمل، ٢٠/٢٧.
٤ م: قال.
٥ سورة النمل، ٢١/٢٧.
٦ م: فإن ملكه وتسخره.
٧ م: فكان.
٨ سورة النمل، ٢٢/٢٧.
٩ ل: في ملكه وفيه.
١٠ م: بل أكثر وأنقد.
١١ سورة النمل، ٢٢/٢٧.
١٢ سورة الحجرات، ٦/٤٩.
١٣ سورة النمل، ٢٣/٢٧.
١٤ م: استكبار بملكها.

رأى الشيء بعد الشيء حتى كثر ذلك في عين الطائر فأجرى على نحو ما أبصر. وفيه دليل أن الخبر[١] العامّ يحتمل التخصيص، فإنه قال: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وأراد به البعض، وكذا قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ثم قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.[٢]

وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.[٣] فيه دليلٌ أن سائر الحيوانات عارفون بوحدانيّة الله تعالى حيث استعظم الطائر سجودهم للشمس من دون الله تعالى. وقد أخبر[٤] الله تعالى عن استعظام السماء والأرض والجبال زَعْمَ الكفار أن الله تعالى اتّخذ ولداً[٥] كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾،[٦] ودلالة إنكار الطائر سجودهم لغير الله ما أخبَر الله تعالى عن قوله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.[٧]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.[٨] دليل[٩] على وجوب التثبّت في خبر الواحد وإن كان صِدقه ظاهراً. وهذا تعليم منه: التأنّي[١٠] في الأمور. ويُحتَمل أنه أراد به أن يتفحّص عن حقيقة الحال /[٧٦ظ] أنه[١١] كما يرى[١٢] الهدهد أم هو بخلافه، فإن من الجائز أن يحسَب الطائر ذلك فيظنّه[١٣] صِدقاً ولا يكون في الحقيقة كذلك. والدليل عليه أن الطائر لو كان متهماً بالكذب عند سليمان لاختار غيره لإذهاب الكتاب إزالة للتهمة. فلما قال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا﴾، عُلم أنه[١٤] يَفحَص عن حقيقة الحال. وقوله: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾،[١٥] ولم يقل أعطِهم لأنه لو أعطاهم

---

١ م: خبر.
٢ سورة الأحقاف، ٤٦/٢٥.
٣ سورة النمل، ٢٧/٢٤.
٤ م: وقد أخبره.
٥ ل: أن لله ولدا.
٦ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ (سورة مريم، ١٩/٩٠ ـ ٩١).
٧ سورة النمل، ٢٧/٢٥.
٨ سورة النمل، ٢٧/٢٧.
٩ ل: دلّنا.
١٠ م: الثاني.
١١ أي أمر المرأة من الملك والسجدة للشمس.
١٢ ل: كما ترى.
١٣ م: فبظنه.
١٤ م: أن.
١٥ سورة النمل ٢٧/٢٨.

ربّما يُؤخَذ الطائر، فقال: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ من بعيد حتى لا تَصل أيديهم إليك،[١] فهذا[٢] دليل على حسن رعايته لرعيّته.[٣] وإنما أنفذَ الكتاب لئلا يحتجّوا عليه فيقولوا: هلا[٤] أرسلتَ إلينا رسولاً أو كتاباً فنجيبك، كما قال الله تعالى خبراً عن الكفار: ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾.[٥]

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾.[٦] عرفت بأن من كانت الطيور مُسخَّرة لمُلكه كان كريماً فوصفت كتابه بالكرَم. والثاني لاحَ لها نور النبوّة من ذلك الكتاب. والثالث وقعت هيبة ذلك الكتاب في قلبها وتعظيمُه بحيث يكاد ينخلع قلبها فعظَّمت الكتاب ووصفَتْه بالكرم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾،[٧] دليل على[٨] أن عنوان الكتاب مقدَّم على التسمية ليَعلم المنفَذ[٩] إليه فيقرأ الكتاب منه كأنه يسمع[١٠] منه، ومن يسمع الكلام من الرسول يراه سابقاً[١١] على التبليغ فكذا في كتابه يرى اسمه أوّلاً. وقيل: إنه نفذ[١٢] كتابه /[٧٧و] إلى من لا يعرف الله تعالى ولا يخافه ويعرِف سليمان ويخافه، فقدّم اسمه على اسم الله تعالى كيلا يستخفّ على اسم الله تعالى. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾،[١٣] دليل على أن سليمان كان مخصوصاً بهذه الكلمة. قلنا:[١٤] وإن كان ذِكر اسم الله تعالى شائعاً[١٥] في كل فريق وكانت العرب تكتُب «باسمك اللهم».

---

١ م: لرعيته.
٢ ل: فيه.
٣ م - لرعيته.
٤ ل: هل.
٥ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ. وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ.﴾ (سورة طه، ١٣٣/٢٠ - ١٣٤).
٦ سورة النمل، ٢٩/٢٧.
٧ سورة النمل، ٣٠/٢٧.
٨ م - على.
٩ م: المنفد.
١٠ م: يستمع.
١١ م: سابعا.
١٢ م: نفد.
١٣ سورة النمل، ٣٠/٢٧.
١٤ م: قبلنا.
١٥ م: سابغا.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾،[١] قدَّم النهي عن العلوّ عليه على الإسلام لأنها إذا انقادت له واستسلمت[٢] لأمره ولم تتكبّر[٣] عليه وصَلت إلى الإسلام، فيكون ذلك سبباً للإسلام. وقوله تعالى خبراً عن سليمان ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾،[٤] قال ذلك حين أرسلت إليه بالهديّة إظهاراً لصلابته[٥] في دين الله تعالى وزُهداً عن الركون إلى الدنيا وزهَراتها ليُعرَف أنه لم يطلب الملك للاستمتاع به[٦] ولا لجمع[٧] المال، ولكن لإعلان الدين وإعلاء الحق، فقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾،[٨] [فهذا] دليل أن المداهنة في أمور الدين بسبب الهديّة والرّشوة حرام.

وقوله تعالى خبراً عن سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾،[٩] فيه فوائد. إحداها أنه[١٠] امتحان أهل مملكته حتى ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.[١١] ولم يكن هذا منه دعوى خاليةً عن البرهان بل عرف من قوّته[١٢] وخاصيته ذلك[١٣] فأظهر عند ذلك انقياداً لأمر سليمان عليه السلام. والثانية إظهار معجزته بين يدَيها ليستقرّ /[٧٧ظ] في قلبها نبوّته فتُؤمن من ساعتها. والثالثة[١٤] امتحان عقلها في جوابها في ذلك. فإنه عليه السلام أمر بأن يُغيَّر ذلك السرير، فقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾،[١٥] ثم سُئلت حين حضرت: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾،[١٦] ولم تُسأل «أهذا عرشكِ» فتأمّلت في ذلك فلم تقل «لا»[١٧] ولم تقل «نعمْ»، بل[١٨] قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾،[١٩] فعرف سليمان عليه السلام

---

١ سورة النمل، ٣١/٢٧.
٢ م: إذا انقاذت له أو استرسلت.
٣ ل: ولم تنكر.
٤ سورة النمل، ٣٧/٢٧.
٥ م: لصلابة.
٦ م: بها.
٧ ل: ولا بجمع.
٨ سورة النمل، ٣٦/٢٧.
٩ سورة النمل، ٣٨/٢٧.
١٠ م: إن.
١١ سورة النمل، ٣٩/٢٧.
١٢ م: من وقته.
١٣ ل ـ ذلك.
١٤ ل: والثانية.
١٥ سورة النمل، ٤١/٢٧.
١٦ سورة النمل، ٤٢/٢٧.
١٧ ل ـ لا.
١٨ ل ـ بل.
١٩ سورة النمل، ٤٢/٢٧.

بذلك كمال عقلها وعرفت هي[1] بذلك صِدق نبوّة سليمان فأسلمَت.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾،[2] وليس هذا من قوى العباد. وفيه أقوى دليل على جواز كرامة الأولياء، والمراد به آصَف ولم يكن هو نبيًا بل كان وليًا. وفيه إشارة إلى أن كرامة الولي لا تقدح في المعجزة على ما يقوله المعتزلة. فإن تلك الكرامة صارت معجزة لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكذا كل كرامة لولي فهي معجزة لنبي ينتمي ذلك الولي إليه لأنه لو لم يكن حقاً لم تَظهَر على يد متّبعِه تلك الكرامة. ويجوز للولي دعوى الكرامة عند إظهار حقّيّة دينه أو أمْرَ بمعروف أو نَهي عن منكر[3] بشرط أن يَأمَن على نفسه العُجب والرياءَ. فأما بدون ذلك لَو أظهر فهو استدراج. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، دل أن هذا كان[4] معجزة لسليمان وتماماً لنظام مُلكه حيث عدّ ذلك من فضل الله تعالى إياه. ثم قال: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾،[5] ليُعلَم أن العبد وإن جل قدره فهو في محل الابتلاء /[٧٨و] والخوف ومحتاج إلى توفيق الله تعالى وعصمته. وفيه دليل على[6] أن مظاهرة السلطان العادِل واجبة[7] على أصحاب المناصب والمراتب.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾،[8] معناه ـ والله أعلم ـ أن كل ما عملتم من الأعمال فهو شكر. وهو مذهب أهل السنة والجماعة أن الشرائع موضوعة لإقامة الشكر وتكفير الذنوب. ولهذا قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن من صلى ركعتين تطوعاً ونوى أن يصلي لإقامة الشكر وتكفير الذنوب كان مؤدّياً فرضين: فرض الشكر وفرضَ كفارة الذنوب. والشكر على ثلاث[9] مراتب: الشاكر والشكور والشكّار. فمن صدق في

---

١ ل ـ هي.
٢ سورة النمل، ٢٧/٤٠.
٣ ل: عن المنكر.
٤ ل ـ كان.
٥ سورة النمل، ٢٧/٤٠.
٦ م ـ على.
٧ ل: واجب.
٨ سورة سبأ، ٣٤/١٣.
٩ ل: على ثلاثة.

أقواله فهو الشاكر، ومن صدق في أقواله وأفعاله[١] فهو الشكور، ومن صدق في أقواله وأفعاله وأحواله فهو الشكّار. وهو الذي[٢] لا يتغير بتغيّر أحوال النعمة والمِحنة عليه، كما قال ﷺ: «خير عباد الله الذين يحمدون الله تعالى في السرّاء والضرّاء».[٣]

وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾.[٤] فيه دليل أن الجن لا يعلمون[٥] الغيب ولا الأشياء الخفيّة إلا بقدر ما يُظهر الله تعالى عليهم، إذ جسد سليمان كان بمرئيّ[٦] منهم قائمٌ لا روح فيه وهم لا يعرفونه ميّتاً حتى صبروا في العَناء والتعب.[٧]

قال الشيخ: وكثير من مشايخنا رحمهم الله ممن لهم معرفة في الحقائق والفقه[٨] وبمذهب أهل السنة[٩] والجماعة أنكروا كثيراً من فصول قصة داود وسليمان عليهما السلام. إلا أنه يجوز تقدير بعض الفصول المحتمِلة للتأويل من غير شُنْعَة تلحقه في بديهة السمع. وقد ميّزنا الشنيع من /[٧٨ظ] الألفاظ وأوّلنا المحتمِل منها للتأويل[١٠] صيانة لإيماننا، إذ الإيمان بهم فرض. فالواجب على كل مؤمن صيانتهم[١١] عما يوجب تهاوُناً بهم أو انحطاطاً لدرجاتهم، مع العلم بأنهم وإن جلّت أقدارهم وعَلَت مراتبهم لم يخرجوا عن طبع البشرية[١٢] وحدّ العبودية، فلذلك[١٣] كانوا محتاجين إلى دوام العصمة ولا يَعْدُون عن عتاب الله تعالى، إلا أنه لم يجز لغيرهم التطرّق إلى أسرار الله تعالى في معاتباته إياهم، ولم يُطلَق للمؤمنين إلا القول الجميلُ فيهم. والله أعلم.[١٤]

---

١ ل: في أفعاله وأقواله.
٢ م: فهو الذي.
٣ سنن الدارمي، المقدّمة ٢؛ والمغني للعراقي، ٨١/٤؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ٩٥/١٠؛ والدر المنثور للسيوطي، ٢٨١/٣.
٤ سورة سبأ، ١٤/٣٤.
٥ م: لا تعلم.
٦ م: بمراء.
٧ م: والنصب.
٨ م: والفقيه.
٩ ل: ولمذهب السنة.
١٠ ل: للتأويل منها.
١١ أي الأنبياء عليهم السلام.
١٢ ل: البشر.
١٣ ل: فكذلك.
١٤ م: الهادي.

ذكر أيوب النبي المرسل صلوات الله عليه وسلامه

اختصّ الله تعالى عبده[١] أيوب عليه السلام من بين الأنبياء بأنواع من المِحن والبلاء وجعل حاله في المحابّ والمكاره[٢] حالاً واحداً بالطُمأنينة بالله تعالى والسكون إليه، فقال جل جلاله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾،[٣] وهذه الإضافة للتخصيص بغاية الإكرام. وإنما أمر رسوله بذكره إما لينظر في نفسه حال بَلْواه فيسهل عليه تحمّل الأثقال، أو يَذكرَه[٤] عند القوم فيعرفوا محل الصبر وثمرته فيهون[٥] عليهم تحمّل الشدائد ويحسُن ظنّهم بالله تعالى ويُعْرَف أن الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء.[٦] ثم وصفه بالصبر ومدحَه بوفاء العبودية فقال: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.[٧] وقال سفيان بن عُيَيْنة[٨] عند تلاوة هذه الآية: «سبحان من أعطى فأثنى».

وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾.[٩] ظن بعض الناس أن هذا

---

١ ل ـ عبده.
٢ ل: في المكاره والمحاب.
٣ سورة ص، ٤١/٣٨.
٤ م: أو يذكر.
٥ ل: فهون.
٦ ل: الاجزاء.
٧ سورة ص، ٤٤/٣٨.
٨ هو أبو محمد سفيان بن عُيَيْنة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدّث الحرم المكّي، من الموالي. ولد بالكوفة، وسكن مكّة. كان حافظا ثقة، واسع العلم، كبير القدر. توفّي بمكّة سنة ١٩٨هـ/٨١٤م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٥٩/٣؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ٢٣٥/٤.
٩ سورة ص، ٤١/٣٨.

منه شكوى، وذلك خطأ[١]/[٧٩و] وكيف ذلك وقد مدحَه الله تعالى بالصبر ووصفَه بكونه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾. لكن إنما قال ذلك إبانة لمعنى الافتقار إلى الله تعالى والالتجاء من عدوه إلى حبيبه فيُعْرَف أن الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان لازم لأهل الإيمان. والأنبياء عليهم السلام كانت ظواهرهم قدوة للأغيار[٢] ليقتدوا بهم في الشكر والاستغفار. وما ذكروا من قصته من استيلاء الشيطان في أمواله وأولاده ووسوسة الشيطان لامرأته على ما نُقل في القصة فإن صح ذلك لا يبعُد، إذ ما يُنسَب[٣] إلى الدنيا يجوز أن يكون في وَلاية الشيطان، ولكن يعصم[٤] الله قلوب أحِبّائه[٥] عن كيد الشيطان واستيلائه. وقيل: إنما استغاث من شره لأنه كان يجلس على مَمرّ امرأته فيكيد لها كل[٦] ساعة من مكره وغروره حتى أضجرَ أيوبَ ذلك وحلف أنه لو برأ ضربها[٧] مائةَ سوطٍ. ثم استغاث الله من شر الشيطان إذ كان[٨] قبل ذلك يقصد ماله ونفسه والآن يوسوس امرأته في دينه، فإنه يأمرها أن لا تذكر اسم الله تعالى على هذا الطعام وتذكر اسم الشيطان، ويوسوس أيوب ليسخَط على قضاء الله تعالى وقدره.[٩] قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.[١٠] وهكذا دأبُ[١١] أولياء الله عند وسوسة الشيطان إياهم الرجوعُ إلى الله تعالى دون المحاربة معه، كمن يقصده كلب الماشية لا ينبغي له[١٢] أن يحاربه /[٧٩ظ] بل يستغيث من الراعي حتى يدفعه عنه وهو معنى كلمة التمجيد، لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.[١٣]

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ

---

١ م: خطئا.
٢ م: لأغيار.
٣ ل: إذ ما نسب.
٤ م: يعضم.
٥ م: أحبابه.
٦ ل: لكل.
٧ م: لو برأ ليضربها.
٨ في النسختين: إذا كان.
٩ م: ليتسخط فضاء الله تعالى ويرده.
١٠ سورة فصّلت، ٣٦/٤١.
١١ م: اداب.
١٢ م - له.
١٣ م - العلي العظيم.

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾،[١] جَزْياً منه على حدود العبودية بشروطها بإبانة الضعف والاضطرار[٢] وإظهار الافتقار. والله تعالى يحب صوت أوليائه في المكاره، كما روي في الحديث: «دَعوا عبدي فإني أُحِبه وأُحِبّ صوته».[٣] وقال النبي عليه السلام: «أنِين المريض تسبيح وتقلّبه من جنب إلى جنب في الفراش[٤] جهاد».[٥] وقد جاء في الأخبار أن الملائكة يتعجّبون من الآدميّين إذا رأوا منهم الصبر في المكاره والتضرع إلى الله تعالى. فأيوب عليه السلام إذا دعا ربه متضرعاً في بلواه مستكشفاً ضُرّه فليس للتسخّط على قضاء الله تعالى بل لإظهار فقر العبودية وعجز البشرية. وكذلك أكرمه الله تعالى بالاستجابة فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾.[٦] والله تعالى يعطي ويكرم بصدق الاضطرار وخلوص الالتجاء إليه ما لا يُعطي بكثرة الأعمال والعبادات.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾، قال بعض أهل التأويل: لم يُرَد به الإتيان[٧] في الدنيا ولكن وعدَه أن يكونوا معه في الجنّة. قال الشيخ رحمه الله: لا فائدة في هذا التأويل لأنه لا اختصاص[٨] لأيوب عليه السلام في هذه المنقَبة،[٩] ولا يصح ذكر المثل ههنا. وقال في[١٠] [نفس الآية]: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾، فإنما يكون ذكرى للعابدين أن لو[١١] كان ذلك في الدنيا ليُعرف أنه لم يتغير في حالتي /[٨٠و] النعمة والشدة فيقتدون به وتسكن أسرارهم مع الله تعالى في كل الأحوال ولا يُبالون[١٢] بالنقص في أبدانهم[١٣]

---

١ سورة الأنبياء، ٨٣/٢١.
٢ م: والاضطراب.
٣ انظر: المغني للعراقي، ٣٠٦/١ قال العراقي: سنده ضعيف.
٤ م - في الفراش.
٥ انظر: كنز العمال للهندي، ٣١٣/٣؛ والمقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٣٨١ قال السخاوي: إنه ليس بثابت؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢٠٤/٢؛ وتمييز الطيب للشيباني، ص١٥٣.
٦ سورة الأنبياء، ٨٤/٢١.
٧ ل: الايتاء.
٨ م: لاختصاص.
٩ م: المتقبة.
١٠ في النسختين: في آية أخرى.
١١ م: أنه.
١٢ م: ولا ينالون.
١٣ م: في أيديهم.

وأموالهم بعد وُفور حظوظ دينهم ونصيب روحهم وقلبهم وسرهم. أما نصيب الروح فشهود الحق بجماله وجلاله،[١] ونصيبُ القلب انضمام أطرافه وامتلاؤه بذكر الله تعالى، ونصيب السرّ السكون مع الله تعالى وزوال الاعتماد عن غير الله تعالى. وقال في آية أخرى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾[٢] ترحيباً وتقريباً من الله تعالى لِيَقِرَّ قلبه بأنه من الله تعالى، ثم قال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.[٣] وهم أصحاب خالص العقل ومُخّة الدين، يرون الأشياء كلها من الله تعالى وتحسُن ظنونهم بالله تعالى[٤] في معاملة الله تعالى إياهم في مَحابّهم ومكارههم.

وقوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.[٥] يروى في القصة أن هذا الركض في هذه الحالة من أشدّ ما أصابه من الآلام، فكان انقضاء البلاء به،[٦] كما يقال: «اِشتدِّي أزمَةُ تَنفرِجي». فلم يجد بُدًّا من امتثال ما أمرَ الله تعالى به من الركض فزال عنه جميع ما كان عليه من الألم[٧] والشدّة، فأظهر الله تعالى عنده عيناً وقيل: عينين، إحداهما باردة للشرب[٨] والأخرى حارّة للاغتسال. وقيل: عينا واحدة إذا شرب تكون باردة وإذا اغتسل تكون حارّة. وظاهر الآية يدل عليه فإنه أشار إلى الواحد بقوله: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ﴾، أي موضع الاغتسال ثم وصفَه فقال: ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، أي بارد وصالح[٩] للشرب. وفي الآية /[٨٠ظ] دليل على فضيلة الكسب وتقرير العبودية فإن العين ظهرت بفضل الله تعالى ولطفه، ولكن جعل الركض من أيوب عليه السلام سبباً لظهور ذلك كما جعلَ ذلك إسماعيل عقِبَه على الأرض سبباً لظهور زمزم. ثم كل محبوب ناله العبد بعد المكروه كان أشد اغتناماً له وفرحاً وتلذذاً كإصابة الجنة بعد مِحن الدنيا وشدائد القيامة. ولما أزيل

---

١ م: بجلاله وجماله.

٢ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف، ٦٥/١٨).

٣ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص، ٤٣/٣٨).

٤ م - وتحسن ظنونهم بالله تعالى.

٥ سورة ص، ٤٢/٣٨.

٦ م: انقصا لبلائه.

٧ م: من الآلام.

٨ م: للشراب.

٩ م: بارد صالح.

عنه المكروه وأعيد عليه النعم كان له فرحان: فرَح بزوال المكروه وفرح بنيل المحبوب. مع معرفته أن أحوال الدنيا من المكروه والمحبوب[١] غير دائمة بل هي فانية زائلة، ولكن فرحه[٢] كان بتصريف الله تعالى إياه من حال إلى حال. وفي ضمن ذلك لطف وإيواء وكشف واجتباء.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.[٣] يروى في القصة أن إبليس كان يشير إلى امرأته بما لا يحلّ في الشرع، تارة يقول لها بترك اسم الله تعالى على الطعام حتى يَبرَأ[٤] [و]تارة يقول: إن شَرِب المسكِرَ[٥] صح وبَرِئ[٦] إلى غير ذلك حتى غضب أيوب على امرأته لإصغائها إلى كلامه، فحلف إن صح ليضربنَّها مائة سوط. فلما برئ[٧] وصح أمرَه الله تعالى بما يخرجه عن يمينه فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾، وهي أغصان ضعيفة أو قوائم الحِنطة بحيث لا يُؤلِم الإنسان إذا ضرب بها. وفيه دليل على جواز الحيلة للخروج عن الأمر المُنتاب[٨] وكل حيلة فيها تخفيف الأمر على الإنسان فهي جائزة /[٨١و] وما كان فيه تثقيل الأمر الملتوي عليه[٩] فهو مكروه فهذا[١٠] كما روي عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: كل بيع يُجعَل لإقامة الربا فهو فاسد وكل بيع يُجعَل لإسقاط الربا فهو جائز.

وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾. لفظ الوِجْدان إنما يُستعمل بعد العدم. ولكن المراد ههنا وَجَدَ أيوب الصبر مِنا إذ لو وكّلناه إلى نفسه كان الصبر منه معدوماً، فأضاف وجوده إلى وجوده تخصيصاً بالإضافة كما سُمّي استهزاء الرسل ومخادعة المؤمنين استهزاء الله تعالى ومخادعته تشريفاً[١١] وتعظيماً وتخصيصاً، كذلك ههنا.[١٢] ثم قال جل جلاله: ﴿نِعْمَ

---

١ م: من المحبوب في المكروه.
٢ م: فرحة.
٣ سورة ص، ٤٤/٣٨.
٤ م: حتى يبراء.
٥ ل: المسكن.
٦ م: وبراء؛ ل: وبرأ.
٧ في النسختين: فلما برأ.
٨ م: الملتان؛ ل: الملتاب. يقال: انتابه أمر، أي أصابه ونزل به.
٩ ل ـ الملتوى عليه.
١٠ م: هذا.
١١ م: تشريعا.
١٢ م: لذلك هذا.

ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾،[١] استحساناً لصبره وأَوْبَتِه إليه في محنته وبلواه حتى تعجّبت الملائكة من صبره[٢] ورِضاه[٣] عن الله تعالى في خلال تلك المِحن والشدائد، فصارت أحواله حجة على الجاحدين ومحجة للمجاهدين.[٤]

وجعل بعض أهل المعاني الركض عبارة عن الثبات[٥] في مقامه، والمغتسَل عبارة عن التطهّر[٦] عن هواجس النفس ووساوس الشيطان، والبارد ما يُبرِد حرارة النفس، والشراب ما يُسكر[٧] عن سوى الله تعالى[٨]؛ ولكن هذا عدول عن ظاهر القصة وتغيير للمنصوص عليه من غير دليل، فلا يجوز. فأما لو أُثبِت ظاهر القصة كما هو ثم استُنبِط[٩] من الظاهر ذلك الحكم فذلك جائز. قال الشيخ: روي عن جُنْدُب الخير[١٠] من أصحاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[١١] أنه قال في بعض كلماته:[١٢] وإن[١٣] عرضَ لكم بلاء فقدِّموا دنياكم قبل أنفسكم، وإن[١٤] عرض لكم بلاء فقدّموا أنفسكم دون دينكم،[١٥] فإن المحروب[١٦] من حُرِب دينه، /[٨١ظ] والمسلوب من سُلِب دينه. ألا لا فقر بعد الجنّة ولا

---

١ سورة ص، ٣٨/٤٤.

٢ ل ـ وأوبته إليه في محنته وبلواه حتى تعجبت الملائكة من صبره.

٣ م: ويرضاه.

٤ م: على المجاهدين.

٥ م: عن النبات.

٦ ل: عن التطهير.

٧ ل: ما يسكره.

٨ م: سوى عن الله.

٩ م: ثم يستنبط.

١٠ هو أبو عبد الله جُنْدُب الخير الأزدي العامري، قاتل الساحر، له صحبة. يقال: إنه جندب بن زهير، ويقال: جندب بن عبد الله، ويقال: جندب بن كعب بن عبد الله. وروي عن النبي ﷺ وعن سلمان الفارسي وعليّ... قتل بصفّين نحو سنة ٣٧هـ/٦٥٨م. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر، ٢/١١٨؛ وتقريب التهذيب ١/١٣٥؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١/٣٠٥؛ والاستيعاب لابن عبد البر، ١/٢٥٨.

١١ م: رضي الله عنه ورحم صاحبه.

١٢ ل: كلمات.

١٣ في النسختين: فإن.

١٤ في النسختين: فإن.

١٥ م: دنياكم.

١٦ المحروب هو المسلوب. انظر: لسان العرب «ح ر ب».

غنى بعد النار.[١]

قال الشيخ: وإنما ذكرنا قصّة أيوب في هذا الكتاب[٢] وصبره على بلائه تخفيفاً[٣] على أصحاب البلاء وإعانة على الصبر على الشدائد، وإلا فقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾،[٤] كافٍ[٥] لإعلاء رتبته وإسناء درجته. والله الموفق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١ انظر: الآحاد والمثاني لابي بكر الشيباني، ٢٩٤/٤؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٧٤/٣.

٢ م: في هذا المكتاب.

٣ في النسختين: وتخفيفا.

٤ سورة ص، ٤٤/٣٨.

٥ في النسختين: كافي.

ذكر يونس النبي المرسل صلوات الله وسلامه عليه

اختصّ الله تعالى يونس بأنواع الإكرام. منها قوله:[١] ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾،[٢] وهذا في غاية التقريب ونهاية الإكرام، إذ الرسالة أعلى درجات البشر، والله أعلَم حيث يَجعَل رسالاته.[٣] ومن كان فيه عيب في ظاهره أو باطنه لم يصلح للسِّفارة بين الله وبين عباده. ولا يُتوهَّم أن الله تعالى خَفِي عليه حال عبده فحسبه صالحاً ثم تبيّن أنه طالح، أو ظن فيه خيراً فيظهر عنه بخلافه. ألا ترى أنه[٤] أجرى عليه من الأحوال ما فيها من الأعجوبات التي خُصّ بها من بين سائر الأنبياء. قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾،[٥] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾.[٦] هذه الإضافة إلى النون والحوت لتعريف[٧] حاله من بين سائر الأنبياء فإنه كان مخصوصاً بأن حبسَه الله تعالى مدةً في بطن الحوت فبتلك الصحبة أُضيف إليه.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾،[٨] وقال في موضع آخر: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾.[٩] والإباق إنما كان لخوف لَحِقه مِن انتظار عذاب الله في

---

١ م: قال الله تعالى.
٢ سورة الصافات، ١٣٩/٣٧.
٣ فيه تلميح إلى الآية الكريمة ١٢٤ من سورة الأنعام ٦.
٤ م: إلا أنه.
٥ سورة الأنبياء، ٨٧/٢١.
٦ سورة القلم، ٤٨/٦٨.
٧ ل: لتقريب.
٨ سورة الصافات، ١٤٠/٣٧.
٩ سورة الأنبياء، ٨٧/٢١.

حق قومه مع معرفته أن لا ملجأ من الله إلا إليه/ .[٨٢و] ولكن لما عرف سنة الله في أنبيائه مع قومهم أنهم يفارقون أقوامهم عند نزول العذاب خرج من بينهم لئلا يصيبه العذاب. فلما انصرف العذاب عنهم وهو خارج من بينهم خطر بباله «أني لو رجعتُ إليهم ثانياً ودعوتهم أو أَوعَدتُهم لم يصدِّقوني ويقولون: إنك أوعَدتَنا بنزول العذاب ولم ينزل»، فذهبَ مُغاضِباً. وقيل: خاف يونس أنه عُزِل عن النبوة. ولكن هذا عندنا غير جائز من الله تعالى أن يَعزِل أنبياءه على ما عُرف من مذهب أصحابنا. وقيل: إن هذا الإباق كان في ابتداء وحيه وقد استخلى هذه الخلوة لعبادة الله تعالى، فلما أحس[١] بآثار الدعوة والرسالة أَبِقَ إلى حيث تصفو[٢] له الخلوة. فعلى هذا القول كأنه[٣] حَبَسَه في بطن الحوت قبل الإرسال إلى القوم. فيشبه حاله حال ابتداء الرسالة لنبينا عليه السلام حتى روي أنه كان على الحراء حين تبدَّى[٤] له جبريل عليه السلام فأرسل نفسه من حالق[٥] الجبل حتى هوى إلى أسفله فأَخَذَه[٦] جبريل عليه السلام بجناحه، وكان ذلك لتأسّفه على فوات حلاوة الذكر في الخلوة. ولذلك قال عليه السلام: «لا تُفضّلوني على أخي يونس عليه السلام».[٧] فأوّلوا هذا الحديث بأن[٨] بداية حال يونس كان يشبه بداية حاله عليهما السلام وكان إباقه لإظهار ضعفه عن أداء هذه الأمانة وتحمّل أعباء النبوة والتبرّي من حوله وقوته، وفي ضمنه استعانة بالله تعالى والتجاء إليه. وقال بعضهم: خاف من القتل فخرج[٩] من بين أظهرهم كخروج رسول الله عليه السلام من مكة، غير أن خروج رسول الله ﷺ كان بأمر الله /[٨٢ظ] وخروج يونس كان بغير الأمر فعوتب لذلك.[١٠] قال الشيخ على أصله: إن

---

١ ل: فلما حس.
٢ ل: لتصفوا.
٣ م: كان.
٤ م: تبدا.
٥ ل: من بحالق.
٦ ل: فأخذ.
٧ انظر: صحيح البخاري، الأنبياء ٣٥؛ وسنن أبي داود، السنة ١٣؛ والمستدرك للحاكم، ٥٨٤/٢؛ وتفسير ابن كثير، ٢٤٥/٢؛ وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص ١١٦.
٨ م: أن.
٩ م - فخرج.
١٠ ل: بذلك.

يونس ظهر له في مقام[١] نبوّته ما أوجب له مفارقة قومه فاكتفى بذلك، وخرج[٢] ولم ينتظر للرسالة. ولكن المتأخرين من أصحابنا لم يعتمدوا عليه، فإن ما ظهر في مقام النبوة إن كان حقاً وصواباً فلا يجوز العتاب من الله تعالى على ما هو الحق والصواب. وإن كان باطلاً وخطأً لا يجوز من النبي عليه السلام أن يرى الباطل حقاً والخطأ صواباً في مقام النبوة. فأما الاجتهاد من الأنبياء جائز، والخطأ منهم في الاجتهاد جائز مع التدارك من الله تعالى متى أخطأ[٣] بإظهار الصواب عقيب ذلك؛ حتى قال بعض الحكماء: إن يونس صلوات الله عليه أصاب الغضبَ ولم يُصَب بالغضب. ومعناه أنه أصاب في غضبه لله تعالى ولحميّة دينه ولكن لم يصَب في غضبه بالذهاب عن قومه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾[٤]، أي مغاضباً لقومه فإنه غضب لله تعالى على قومه. وقيل: مغاضباً للملِك الذي كان في ذلك الوقت. ويجوز أن يكون مغاضباً لما رأى نفسه مقصِّراً في تبليغ الرسالة والاجتهاد في الدلالة، فأزرَى بنفسه فأكرمه الله تعالى بأن جعل خلاصه[٥] من سبب الهلاك. كما حُكي عن أبي حمزة الخراساني[٦] [أنه] قال: وقعتُ في طريق الحج في البادية في بئر وكانت ليلة مظلمة، فكِدتُ أن أصيح[٧] ثم قلتُ: والله لا أستغيثُ بغير الله. فجاء رجلان وقالا: نشدّ رأس هذا البئر حتى لا يقع فيه إنسان.[٨] فنازعَتْني /[٨٣و] نفسي أن أصيح،[٩] ثم قلتُ: إلى من هو أقرب منهما. فسَدَّا[١٠] وطَمّا[١١] رأس البئر.

---

١ ل: من مقام.
٢ م: فخرج.
٣ م - متى أخطأ.
٤ سورة الأنبياء، ٨٧/٢١.
٥ م: خلاصة.
٦ هو أبو حمزة محمد بن ميمون الخراساني. يقال إن أصله من نيسابور من محلّة ملقاباد. صحب مشايخ بغداد. وهو من أقران الجنيد رضي الله عنه. وسافر مع أبي تراب النخشبي وأبي سعيد الخرّاز. وكان من أفتى المشايخ وأدينهم وأورعهم. توفّي سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م. انظر: الطبقات الكبرى للشعراني، ١٠٢/١؛ وجامع كرامات الأولياء للنبهاني، ٤٤٩/١.
٧ م: فكدت أصيح.
٨ ل: لا يقع في إنسان.
٩ م: نفسي أصيح.
١٠ ل: وسرت؛ م: فسد.
١١ م - وطما. طَمَّ الشيء وعليه يَطُمّ طَمّا: غَمَره وغطّاه.

فلما كان بعد ساعة جاء شيء وكشَفَ عن رأس البئر وأدلَى رِجلَيه في البئر كأنه يشير إليّ: تعَلّقْ بي، فتعلّقتُ[١] به فأخرجني، فإذا هو أسَد. فسمعتُ هاتفاً يقول: يا أبا حمزة أليس هذا أحسَنَ: نجَّيْناك من التلف بالتلف.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.[٣] قيل: لن نُضيّق[٤] عليه، يقال قدَرَ أي ضيَّق، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾[٥] أي ضيَّقَ، وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.[٦] ومعناه أن يونس ظنّ أنه لا يُضيِّق الله عليه. كل ذلك الضيق بالخروج من بين أظهرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾،[٧] لما رَكِبَ السفينة وهاجت الريح وكادوا يغرقون قال الملاّح: رَكِبَ في هذه[٨] السفينة مُذنب أصابَنا بسببه هذه، فاقترعوا فخرجت القُرعة على يونسَ، وهو معنى قوله ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي أُقتُرِع ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي من الذين وقعت الحجّة عليهم. وقوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾،[٩] جعل سجنه بطن الحوت، فيكون تأديباً. فيه نوع ألطاف وتقريب بحيث ينقطع أوهام البشر عنه في بقائه في بطن الحوت حيًّا خارجاً من العادة؛ وقيل: إنه مكث في بطنه أربعين يوماً. وعلى تأويل اختيار الخلوة فراراً من الخلق هيَّأه الله مكاناً لا يُزاحمه فيه أحد فلذلك ينادي نشيطاً في تضرّعه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.[١٠] روى الشيخ أبو

---

١ ل: وتعلقت.

٢ انظر: روض الرياحين لليافعي، ص ٩٩؛ ونتائج الأفكار القدسية للسيد مصطفى العروسي، ١/١٨٥؛ وجامع كرامات الأولياء للنبهاني، ١/٤٤٩.

٣ سورة الأنبياء، ٢١/٨٧.

٤ م: أن يضيق.

٥ سورة الفجر، ٨٩/١٦.

٦ سورة الرعد، ١٣/٢٦؛ وسورة الإسراء، ١٧/٣٠.

٧ سورة الصافّات، ٣٧/١٤١.

٨ م ـ هذه.

٩ سورة الصافّات، ٣٧/١٤٢.

١٠ سورة الأنبياء، ٢١/٨٧.

القاسم[١] الحكيم أن هذا التسبيح تُلُقِّن من[٢] حصًى في قعر البحر /[٨٣ظ] يقُلْن: لا إله إلا أنت سبحانك ظلَمَ يونس بن متّى نفسه فاغفِرْ له. وقال بعضهم: كان هذا تسبيحَه قبل الوحي فاستعمله في محنته أيضاً. قال الشيخ أبو منصور: وهذا أقرب لقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.﴾[٣] ومن قال: إنه لُقِّن في بطن الحوت أوَّلَ قولَه ﴿كَانَ﴾ بمعنى «صار» كما في قوله ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٤] أي «صار».[٥]

وقوله ﷻ: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾،[٦] يعني ظلمة البحر والليل وبطن الحوت، وقيل: إن حوتاً آخر التَقَمَ ذلك الحوت. وذكرُ مناداته إبانةٌ منه أن يونس لم تَشْغُله تلك المحنة عن ذكر الله تعالى فاستنارت تلك الظلمات بنور ذكره، وكيف يبعد ذلك وقد نقل أن أبا الحسين النوري[٧] سمّي بذلك لأنه كلما ذكر الله تعالى خرج مِن فِيه نور[٨]؛ فالنبي المرسل أولى بذلك. وفي الأخبار أن لكلام الحق نوراً، ولا شكّ أن نوره في القلب مشتعِل[٩] فلو سَرَى إلى الظاهر لا يبعد. ويجوز أن يكون ذلك ليَرَى أهل البحر أن أهل البَرّ كيف يجتهدون في العبادات وكيف يَصْفُوا ذكرُهم لله تعالى في محابِّهم ومكارههم، على ما روي أن ذلك الحوت كان يطوف به في جميع البحار. والله أعلم بذلك.

قال الشيخ: ثم من الأنبياء من لم يُذكَر معاتباته في القرآن مثل هودٍ

---

١ ل: القسم.   ٢ ل - تلقن من.

٣ سورة الصافات، ١٤٣/٣٧ - ١٤٤.

٤ سورة البقرة، ٣٤/٢؛ وسورة ص، ٧٤/٣٨.

٥ قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ١٨٥/١٢ - ١٨٦.

٦ سورة الأنبياء، ٨٧/٢١.

٧ هو أبو الحسين أحمد بن محمد، يعرف بالنوري، صوفي، من كبار المشايخ. توفي سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م. انظر: والإكمال لابن ماكولا، ٥٩١/١؛ واللباب للجزري، ٣٣٠/٣؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ١٦٦/٢.

٨ ل: النور.   ٩ ل: مشتغل.

وصالحَ وشُعيبٍ. وإنما كان كذلك ـ والله أعلم ـ أنهم لم يكونوا أصحاب الشرائع بل زَجَوْا[١] أعمارهم في دعوة التوحيد، وقلّ ما يوجد في ذلك من الداعي المعصوم خلَلٌ فيعاتَبَ على ذلك. فأما غيرهم من الأنبياء كانوا أصحاب الشرائع[٢] وامتدّت أوقاتهم وكثرت معاملاتهم، /[٨٤و] تارة في الدعوة إلى التوحيد،[٣] وتارة في الدعوة إلى الشريعة، وتارة في القيام بقضاء الحقوق، وتارة في القيام بسياسة[٤] الخلق فيهم.[٥] فلم تَخْلُ مدّتهم عن نوع خلَل وزلَل يتوجّه العتاب عليهم. وقد ذكرنا قبل هذا أنه[٦] لا يُدرَى أن ألطاف الله تعالى إياهم في حال المعاتبة أكثر أم في حال النعمة والكرامة.

وما نقل عن النبي عليه السلام أنه حين قرأ قول لوط: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾،[٧] قال: «رَحِمَ الله أخي لوطاً كان يَطلب ركناً أقوى من رحمة الله وعصمته»[٨] لا يقدَح في حاله، فإنه عرف أنْ لا ركن أقوى من عصمة الله، لكن إنما ذكَرَ ذلك لأن أولئك[٩] الأغنياء الجهلة لا ينظرون إلى صدق رسالته وحقيّة[١٠] دعوته. وإنما كان نظرهم إلى ظاهر الأسباب وكثرة العشيرة والأقارب؛ حتى قال قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، فقال شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.[١١] وقال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾،[١٢] لكن إنما ذَكَر النبيَّ ﷺ ذلك تعليماً لأمّته أن لا يتكلّموا[١٣] بكلام التعليق اقتداء

---

١ أي ساقوا ودفعوا.
٢ م: شرائع.
٣ ل: بقضاء الحقوق.
٤ ل: لسياسة.
٥ م ـ فيهم.
٦ ل: لأنه.
٧ سورة هود ٨٠/١١.
٨ مسند أحمد بن حنبل ٣٢٦/٦، ٣٣٢؛ وصحيح البخاري، الأنبياء ١١، ١٩؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٣٨؛ الفضائل ١٥٢.
٩ ل: ذلك.
١٠ م: وحقيقة.
١١ سورة هود، ٩١/١١ ـ ٩٢.
١٢ سورة الحشر، ١٣/٥٩.
١٣ م: أن لا تتكلموا.

بلوط عليه السلام عِلماً منه أن لوطاً لا تختلِط عقيدته بمثل هذا الكلام لقوة يقينه وبركة عصمته. فأما غيره ربما[١] يتلفّظ[٢] بهذا اللفظ فيُداخله ريب وشك. ولما قال لوط تلك الكلمة صرّحت[٣] الملائكة بأحوالهم فقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾،[٤] ولو كان ذلك الكلام مسقطاً قدره لم يستحقَّ ذلك التقريب والتطييبَ لقلبه والتنفيس لكَرْبه[٥] بل العتاب والتنبيهَ على قولهم.[٦] والله الموفق.[٧]

□□□□□□

١ ل - ربما.
٢ م: يلتفظ.
٣ ل: صرح.
٤ سورة هود، ٨١/١١.
٥ م: لكربة.
٦ م: على قوله.
٧ م - والله الموفق.

ذكر شعيب النبي المرسل صلوات الله عليه[١]

/[٨٤ظ] قال الشيخ ﷺ: عصمة الأنبياء حالة شريفة من عظَّمها نال ببركته الثبات على الهدى والزيغَ عن الهوى، ومن استخفّ بها نالته الشقاوة والنَّكال. ولما أكرمهم الله بالعصمة قوَّاهم على تحمّل أثقال مخالفيهم. وكذلك[٢] يقويّ من تابعهم على مقاساتهم[٣] ومجاهداتهم. وقد وصف الله تعالى أنبياءه بما تتحيّر[٤] فيه العقول في معرفة أقدارهم فقال جلّ ذكره:[٥] ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ.﴾،[٦] وقوله ﴿عِندَنَا﴾ وصف بالقربة والزلفة والاصطفاء، وقد مرّ تفسيره من قبل.

وفي حال شعيب عليه السلام ما جرى له في محاوراته مع قومه حتى قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾،[٧] ذكر العَود وإن لم يكن في ملتهم ولكن يجيء «عاد» بمعنى «صار». وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، والتوحيد يجب أن يكون منزّهاً عن الاستثناء والتعليق. ولكن الجواب أن الاستثناء عائد إلى السيرة والمعاملة، وذلك قد يُدعَى ملّة[٨] وهم إنما دعوه إلى ذلك لا إلى العقيدة. وقد أشبعنا مسألة الاستثناء في الإيمان في

---

١ ل ـ ذكر شعيب النبي المرسل صلوات الله عليه.
٢ م: ولذلك.
٣ م: على عقوبة مقاساتهم.
٤ م: بما يتحير.
٥ م ـ جل ذكره.
٦ سورة ص، ٤٧/٣٨.
٧ سورة الأعراف، ٨٩/٧.
٨ ل: مسألة.

كثير مما أملينا من الكتب بما فيه غُنْية، ولكن ذكرنا هنا[١] أيضاً لئلاّ يظنّ أحد أن شعيباً عليه السلام يُجوّز إلحاق الاستثناء بأصل التوحيد. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[٢] في استدامة العصمة والاستقامة على الشريعة، إظهاراً لافتقارهم[٣] إلى الله تعالى في كل ما يُهِمّهم ويهجُمهم، ومعرفةً لعجزهم وضعفهم؛ فإنهم إن لم يَزِلُّوا عن الطريق بتقصيرهم في مجاهداتهم لكنهم عرفوا قصورهم عن بلوغهم غاية الكمال /[٨٥و] في المعرفة والعبادة. ومن خوطب من البشر بإقامة العبودية لا يخلو عن شَوب التفاوت في إقامتها، ولا يعدو عن مطالبة الله إياه بتسويتها،[٤] ولا يستغني وإن جلّ قدره عن طلب التوفيق واستدامة العصمة. والله الموفق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ م: ههنا.

٢ سورة الأعراف، ٨٩/٧.

٣ م: لافتغارهم.

٤ م: ببشريتها.

ذكر زكريّا النبي المرسل صلوات الله وسلامه عليه

إن الله تعالى لما أقام زكريا عليه السلام مقام أصفيائه[١] ورفَعه إلى منازل نُجبائه نصبَ دعوته قدوة للمحتاجين فيقتدوا به في رفع حوائجهم قولا واعتقاداً فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.[٢] وفيه إشارة أن ذِكر الله والمناجاة معه في الخُفية أحبّ، لكن فيه إشكال أن المناداة توجب الإعلان والخُفْية توجب الإسرار. فما كان خفيًّا يكون مناجاة لا مناداة، لكن معناه أنه نادى على سبيل التضرّع والاستكانة خفيًّا عن العباد. ويجوز أن يكون المراد المناجاةَ على سبيل الخُفْية ولكن سمّاه نداء تنبيهاً للعباد أن العبد وإن أسرّ فهو في عِلمنا وسَمعنا نداء. وإنما تكلف في إخفاء هذا الدعاء لأنه كان يستحيي عن سؤال الولد في مثل هذا السنّ.[٣] ثم ذَكَر ضعفه، والله أعلم بضعفه منه، لأنه[٤] هو الذي أضعفه. لكن علم أنه يحبّ التكلّم بلسان العجز والفاقة، وهو إنما سأل هذا السؤال في مثل هذا الوقت عند رؤية الأعجوبة في أحوال مريم حيث أبصر[٥] في الصيف فاكهة الشتاء /[٨٥ظ] وفي الشتاء فاكهة الصيف. فإنه عليه السلام كفلها وتولّى تربيتها على ما قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾.[٦] وفيه دليل أن الخلق ممتحَنون بعضَهم ببعض، كما قال الله تعالى:[٧] ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ

---

١ ل: أصفايه.

٢ سورة مريم، ٣/١٩.

٣ ل: السر.

٤ م: بأنه.

٥ م: أيصر.

٦ سورة آل عمران، ٣٧/٣.

٧ م - الله تعالى.

﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾،[١] أراد أتصبرون[٢] في الرجوع إلى الله تعالى في رؤية المَضارّ والمنافع منه دون الاعتماد على الخلق. ومباشرة الأسباب عبودية وشهود مُسبِّب الأسباب في تصاريف الأحوال توحيد. ولهذا نقول: إن الكسب سبب الوجود لا سبب الإيجاد وسببُ الأخذ لا سبب[٣] الإعطاء، إذ الوجود والأخذ عبودية والإيجاد والإعطاء ربوبية، والربوبية غير معلولة ولا مكيَّفة. وفيه أيضاً دليل على أن المرأة لا بدّ لها من مَحرم يقوم على مصالحها، فإن النساء خُلِقن من ضعف وعجز فلا بدّ لها[٤] من متعهِّد لأسبابها. وفيه أيضاً دليل أن العبد وإن جلّ قدره لا يستغني عن مثله في معيشته، قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾،[٥] ومع ذلك أحالها إلى زكريا.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، دليل أن زكريا إنما يدخل عليها أحياناً في وقت حاجتها ويتركها في سائر أوقاتها في خلوتها لإقامة أورادها. وفيه دليل أنه لا بأس للمعتكِف أن يأكل[٦] الطعام في معتكَفه. وقوله: ﴿قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾،[٧] ليس سؤالَ شك وارتياب أنه من الله أو من غيره فإن الله تعالى خصّها برزق لا يقدر البشر على إيتائه[٨] حيث /[٨٦و] بعث فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء حتى لا يخطر ببال زكريا أن أحداً أوصل إليها ذلك، ولكن سؤاله لأمرين. أحدهما أن يجري على لسان مريم ذكرُ الله تعالى بإضافة النعمة[٩] إليه فيكون شكراً، إذ الشكر رؤية النعمة من المُنعِم. والثاني إزالة لتوهم الغفلة عن رعايتها وتفقدها فيَطيب قلبها أنه لم يُهمِلني بل تفحص أحوالي.

وقوله: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، لم تقل ذلك ليعرف زكريا أن هذا

---

١ سورة الفرقان، ٢٥/٢٠.
٢ م: ألا تصبرون.
٣ ل ـ لا سبب.
٤ ل: لا بد لها.
٥ سورة آل عمران، ٣/٣٧.
٦ ل: للمعتكف يأكل.
٧ سورة آل عمران، ٣/٣٧.
٨ ل: على اتيانه.
٩ م: النعم.

من عند الله، بل ليعرف أنها تعرف أنه من الله ليزيد لزكريا رغبةً في القيام بأمرها. وفيه دليل على جواز كرامة الأولياء إذ هي لم تكن نبيَّة. فإن قيل: إنما أكرم مريم لمكان ما قُدِّر منها نبيّ.[١] قلنا: وكذا كل ولي إنما يُكرَم لمتابعته[٢] نبي الله فيكون كرامة له معجزة للنبي الذي يتابعه. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾،[٣] يحتمل أنها قالت ذلك لأن هذا الرزق وصَل إليها من الله من غير كسب وجهد ونقْل من يد إلى يد، فلا يحاسَب على ذلك إذ المحاسبة تتّجه فيما له في طلبه مباشرة واكتساب. والثاني يحتمل أنها أرادت بذلك الكثرة أي تزايدَت[٤] نعم الله على من يشاء من عباده بحيث لا يدخل تحت العدّ والحساب، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾.[٥] ثم قال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾.[٦] ليس فيه /[٨٦ظ] أنه غفل عن هذا الدعاء قبل ذلك ولكن اغتنم تلك الحالة وأحسّ بفتح أبواب السماء لإجابة الدعاء فانبعث للسؤال.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾. فيه دليل أن الله تعالى يُحبّ من عباده إظهار الضعف والفاقة وإن كان عالماً بأحوالهم وحاجاتهم، فحق العبد أن يكون مشتغلاً بكليّته بمولاه،[٧] تارة بمراعاة[٨] أوامره، وتارة بالاجتناب عن محارمه، وتارة بالتضرّع والابتهال، وتارة بالرغبة والسؤال، فيكون على الدوام فارًّا من الخلق إليه متوكلاً عليه طالباً[٩] سائلاً منه. وذكرُ العَظْم عبارة عن ذكر البدن. وقد يذكر العظم ويراد به كل البدن، كقوله عليه السلام: حُرمة عِظام الميّت كحُرمة عظام الحيّ».[١٠] ثم إنما خُصّ العظم من البدن لأنه أصلب الأجزاء، فلما ضعُفَ هو كان

---

١ م: منها ولد نبي.
٢ م: لمتابعة.
٣ سورة آل عمران، ٣٧/٣.
٤ ل: تواترت.
٥ سورة إبراهيم، ٣٤/١٤؛ وسورة النحل، ١٨/١٦.
٦ سورة آل عمران، ٣٨/٣.
٧ ل: لمولاه.
٨ ل: لمراعاة.
٩ م + له.
١٠ الموطأ لمالك بن أنس، الجنائز ١٥؛ ومسند أحمد بن حنبل ٥٨/٦، ١٠٠؛ وسنن أبي داود، الجنائز ٦٠.

غيره أضعف. وقد قيل: كنَّى بالعظم عن الذكر؛ ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، عبَّر عن ظهور نور الشيب بالاشتعال[١] كأنه نار اشتعَل ولم يَحرِق. وهذا تعبير[٢] من لون الخلقة ثم يكون بعده الموت. ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾[٣] أي خائناً عن الإجابة.

﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾،[٤] قيل: المراد أنصار دينه، وقيل: بنوا أعمامه، وقيل: خِفتُ عليهم أن يرتدّوا عن دينك ولو كان لي ولد من صلبي لاطمأنّوا به على دينك. ثم سأل أن يكون الولد رضيًّا، وذكر الله دعاءه في /[٨٧و] سورة آل عمران بلفظ آخر فقال: ﴿هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾،[٥] إبانةً منه أنه ما سأل منه الولد نَهْمَة وشهوة في زينة الدنيا كما يرغب أهل العادة في الولد، بل سأل استدامة لكرامة النبوّة وإرشاد الخلق في نسله ليكون حيًّا بعد وفاته لإجراء الثواب عليه بدعوة ولده كما جاء في الحديث.[٦] «والطيّب» من طاب منشأه من صُلب أبيه ومَغْذاه في رحِم أمّه، ومولدُه بعد تمام خلقه ورزقه وعملُه إلى انتهاء عمره. ثم قال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾،[٧] لا يَشغلك سمع عن سمع. والسمع هنا[٨] بمعنى القبول والإجابة، كما يقال: كلام فلان مسموع عند فلان، أي بمنزلة لا يَضيع كلامه عنده. وفيه تسكين العباد فيما يدعون الله تعالى ويسألون حوائجهم في السر والعلانية فلا يشكّون أنه سامع لدعائهم إذ هو غيب عن العباد، وليس بغائب عنهم لا يَعزُب عنه شيء فلا يخفى[٩] عليه خافية ولا يمَلّ عن الإجابة.

وقوله: ﴿فَهَبۡ لِي﴾، تعظيم لمِنة الله عليه بإعطاء الولد فإن الهبة

---

١ م: بالاشتغال.
٢ م: تغيير.
٣ سورة مريم، ١٩/٤.
٤ سورة مريم، ١٩/٥.
٥ سورة آل عمران، ٣/٣٨.
٦ لعل المؤلف رحمه الله يقصد هذا الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء: من صدقة جارية، أو عِلم يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له» صحيح مسلم، الوصية ١٤؛ وسنن أبي داود، الوصايا ١٤؛ وسنن الترمذي، الأحكام ٣٦.
٧ سورة آل عمران، ٣/٣٨.
٨ م: ههنا.
٩ م: ولا يخفى.

ابتداء تمليك من غير بدل. فكأنه لما نظر صلوات الله عليه[١] إلى ضعفه وكون امرأته عاقراً استَبعدَ وجود الولد من حيث العادة لا من حيث الفضل والمنةُ، فقال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.[٢] قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ اللَّهُ: إن خلق بني آدم إذا تُؤُمِّل فيه كانت الأعجوبة فيه أكثر من خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنه يمكن للمخلوق أن /[٨٧ظ] يُصوِّر من الطين على حسب صورة الآدميّ وإن لم يمكنه إدخال الروح فيها، أما لو اجتمع جمع الخلائق ليصوروا من قطرة من النطفة صورة لم يمكنهم ذلك. ولو نظرت إلى قلّة ذلك الماء لم ترَ فيه أثر عُضو ولا علامة شَعر، فعرفتَ أنه يخلق كل شيء من لا شيء. فسمّاه[٣] وليًّا. إذ ليس كل ابن يكون ولي الله[٤] لأن الولي من يلي أمره. ألا ترى إلى قوله ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[٥] من النبوة والعلم والحكمة ودعوة الخلق إلى الله تعالى والعمل بموجب علمه، إذ من علم ولم يعمل بعلمه قيل: إنه إمام فتوَى لا إمام هدى.

وقوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾.[٦] وذكره[٧] في سورة آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٨] ولا يفترق الحال، إذ النداء من الله تعالى على كل حال ولكن تارة بواسطة المَلَك وتارة بلا واسطة. وما كان بواسطة الملك كان من الله أيضاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يعني إلهاماً من الله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، وهو عبارة عن بقاء العبد في حالة من الغيب ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني مَلَكاً ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ [مَا يَشَآءُ]﴾،[٩] وما يوحي الرسول بإذنه فهو من الله، والوحي بواسطة الرسول لا يكون إلا للمرسلين ومن غير واسطة يكون للمرسلين

---

١ م: صلوات الله عليه لما نظر.
٢ سورة مريم، ٥/١٩.
٣ م: وسماه.
٤ م: ولى أبيه.
٥ سورة مريم، ٦/١٩.
٦ سورة مريم، ٧/١٩.
٧ م: وذكر.
٨ ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ (سورة آل عمران، ٣٩/٣).
٩ سورة الشورى، ٥١/٤٢.

وغير المرسلين. ويجوز أن يكون النداء من الملائكة في الظاهر والنداء من الله تعالى في السر، كما قال الله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ.﴾[1] يعني جبريل عليه السلام /[٨٨و] في الظاهر. وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ.﴾[2] يعني في الباطن.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾،[3] إنما سأل الآية لوقت الإجابة حتى يتلقّاها بالتعظيم والإكرام فلا يغفُل عنها. وقوله: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾،[4] وفي سورة آل عمران ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾،[5] كلاهما واحد، إذ الأيام المتوالية لا تكون[6] بدون الليالي. جعَلَ آية الإجابة مَنْعَه عن الكلام مع الناس إلقاءً من الله هيبةَ إجابته عليه بالخروج عن عادة[7] البشر. ثم لم يَحجُبه عن ذكره ودعائه فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾[8] لئلا يُتوهَّم أنه مئوف بآفة الخرس ولكنه جذبه عن الخلق وصرفه عن المخالطة معهم لتصفو[9] خلوته ومناجاته مع الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾،[10] ليس هذا منه[11] استبعاداً[12] لوجود الولد منه وإحالةً له وكيف يكون ذلك وقد سأل الولد من الله تعالى؟ لكنه قال ذلك لوجهين. أحدهما تعظيم نعمة الله عليه وإظهار العجز من نفسه عن الوقوف على صُنعه[13] ولطفه، كما يقال في الشاهد: كيف يكون لي منك هذا وكيف أَستحقُّ هذا الإكرام. والثاني استخبار عن كيفية الإجابة أن الولد يحصل ونحن[14] على حالتنا من الضعف والكِبَر، أو

---

١ سورة النجم، ٥/٥٣.
٢ سورة الرحمن، ١/٥٥ ـ ٢.
٣ سورة آل عمران، ٤١/٣؛ وسورة مريم، ١٠/١٩.
٤ سورة مريم، ١٠/١٩.
٥ سورة آل عمران، ٤١/٣.
٦ م: لا يكون.
٧ ل: من عادة.
٨ سورة آل عمران، ٤١/٣.
٩ ل: لتصفوا؛ م: ليصفوا.
١٠ سورة آل عمران، ٤٠/٣؛ وسورة مريم، ٨/١٩.
١١ ل ـ منه.
١٢ ل: استبعاد.
١٣ م: على صنعة.
١٤ م ـ ونحن.

نُرَدّ[١] إلى الحالة الأولى شابَّيْن ثم تخلق[٢] منّا الولد. فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾،[٣] يعني[٤] أخلق وأنتما على حالتكما من غير تغيّر في خلقتكما، وخلق الولد من الكبيرَيْن عليّ هيِّن، لأني خلقتك ولم تك شيئاً. فخلقُ الآدميّ من العدم أبعد في العادة /[٨٨ظ] من خلقه من الشيخ والعجوز. ثم منَّ عليه بتسميته لولده[٥] باسم خصَّه به فقال:[٦] ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾،[٧] زيادةَ تقريبٍ وإكرام من الله تعالى عليه. واشتُقَّ اسمه من الحياة لما أنه حييَ[٨] به صلب أبيه أو رَحِم أمّه، أو حَيِيَ قلب أبيه بنيل مراده به،[٩] أو حَيِي هو بطاعة الله وذكره وطهارته وعصمته[١٠] عن مخالفة أمره فعلا وقصداً.

وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، إما أن يكون هذا النداء في حياة أبيه ليطمَئِنّ قلبه بإجابة الله تعالى إياه في كونه ولياً ورضِيًّا ونبياً، أو كان بعد وفاة أبيه في وقت حاجته إلى دعوة قومه. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾،[١١] قيل: هو النبوة إلى أن بلغ فأُعطِي الرسالة. وقيل: الحكم هو الحكمة على ما روي أنه كان ابن أربع سنين فدعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: «ما للّعِب خُلِقتُ».[١٢]

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.﴾،[١٣] خصّه[١٤] بهذه الأحوال الثلاثة فإنها أحوال الانتقال من حال إلى حال. وسُئِل الفقيه الإمام أبو الحسن أن قائلاً يحتجّ على أن يحيى أفضل من

---

١ في النسختين: أو ترد.
٢ ل: ثم يخلق.
٣ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ (سورة مريم ٩/١٩).
٤ ل ـ يعني.
٥ م: لولد.
٦ ل: قال.
٧ سورة مريم، ٧/١٩.
٨ م: حمى.
٩ ل ـ به.
١٠ م: وطهارته عصمته.
١١ سورة مريم، ١٢/١٩.
١٢ انظر: الجامع الصغير للسيوطي، ٣٧/٢.
١٣ سورة مريم، ١٥/١٩.
١٤ ل: خصص.

عيسى بأن السلام على يحيى من الله تعالى وعلى عيسى من نفسه فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾.[١] فأجاب وقال: لا توجب هذا تفضيله[٢] على عيسى لأن السلام على عيسى ورَدَ من الله تعالى أيضاً، لأنه تكلم في وقت لا يتكلم البشر في مثل ذلك الوقت، ففي /[٨٩و] إجراء الله تعالى الكلام على لسان عيسى في ذلك الوقت من اللطف والأعجوبة ما ليس في السلام على يحيى.

وقوله خبرا عن زكريا ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾[٣] لم يكن لطلب الأنس بالولد ولا لخوفه أن يبقى فرداً عن الولد بل سأل اقتران النصرة من الله والمعرفة له. دليله قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾،[٤] ليس هذا إصلاحاً عن الفساد المذموم القبيح ولكنه إصلاح من حيث تمكينُ النسل منه بعد أن فسد بحكم العادة. والأنبياء صلوات الله عليهم إنما سألوا حوائجهم عن الله تعالى مع علمهم أن الله تعالى لا يخفي عليه شيء ولكن إظهاراً منهم لفقرهم وحاجتهم، والله تعالى يحبّ منهم ذلك وليكونوا قُدوة للخلق في رفع السؤال والحاجة إلى الله تعالى.

قال الشيخ: وفي جعل[٥] يحيى ذبيحاً دليل على ما قاله الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله تعالى ابتدأ المحنة على عباده من غير زلّة سبقت منهم لأن يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعص طَرْفَةَ عينٍ ولا همَّ بالمعصية. وقد جاء في الأخبار أن دمه لم يسكن حتى قُتِل سبعون ألفاً. قال الشيخ: واستُنبِط من هذا أن الله تعالى رَحِم خَلقه حيث لم يُقتَل محمد[٦] قهراً وجبراً[٧] وإلا كان لا يفي[٨] العالم بقصاصه.

قال الشيخ: ولم نذكر بعض الأنبياء في هذا الكتاب لأن القصد في

---

١ سورة مريم، ٣٣/١٩.
٢ ل: هذه الفضيلة.
٣ سورة الأنبياء، ٨٩/٢١.
٤ سورة الأنبياء، ٩٠/٢١.
٥ ل: وفي قبل.
٦ م: محمدا.
٧ م: وصبرا.
٨ م: لا يف.

ذكرهم كان إبانةَ المشتبِه[١] من أحوالهم أو إزالة[٢] الإشكال من قصة تروى منهم /[٨٩ظ] أو آيةٍ تتلى فيهم لإتيان فضلهم وشرفهم.

وقال بعض الحشوية: إن مريم في حال تجرّدها عن الولد يأتيها[٣] رزقها من غير كسب منها، وبعد ولادة عيسى أُمِرت بهزّ النخلة[٤] لأن قلبها تنصَّف في المحبة لولدها واشتغل سرها بالولد، فلذلك أمِرت بهز النخلة.

قال الشيخ: هذا كلام وَحِش بعيد من ألطاف الله تعالى إياها، بل مقامها بعد الولادة أرفع من مقامها قبل الولادة. والأعجوبة واللطف في هزّ الجذع[٥] اليابس وسقوط الرُّطَبِ الْجَنِيّ منها أكثر مما كان يأتيها رزقها، وهي في بيتها؛ لأن إتيان الرزق في البيت من جنس الكرامات وإنشاءَ الرطب الجنِي من الجذع[٦] اليابس من جنس المعجزات، كما في عصا[٧] موسى عليه السلام وناقة صالح.[٨] وهذا كان برهاناً لعيسى عليه السلام ولكن[٩] جرى ذلك على يدها كرامة لها. وقد قال الله تعالى في حق عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾،[١٠] فكيف يجوز انحطاط درجتها بولادة ولد هو آية ورحمة للناس من الله تعالى. وعيسى كان مخصوصاً من أولاد آدم أنه خُلِق من غير واسطة شهويّة[١١] تكون[١٢] بين الذكَر والأنثى، بل كان ابتداء خلقته نفخَ الروح من الله، كما قال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾،[١٣] وذلك النفخ ربوبية لا وقوف للخلق عليها. ولهذا كان يخاطب الله تعالى عيسى بابن العذراء البتول. وقد قيل: إن بولادة عيسى لم تَزُل بكارتها ولا ظهر منها ما يَظهَر من النساء عند الولادة من

---

١ ل: المشيئة.

٢ م: وإزالة.

٣ ل: تأتيها.

٤ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا.﴾ (سورة مريم، ٢٥/١٩).

٥ في النسختين: الجزع.

٦ في النسختين: من الجزع.

٧ في النسختين: عصى.

٨ م - كما في عصا موسى عليه السلام وناقة صالح.

٩ م: لعيسى عليه السلام كما في عصا موسى وناقة صالح ولكن.

١٠ سورة مريم، ٢١/١٩.

١١ م: شهوة.

١٢ م: يكون.

١٣ سورة التحريم، ١٢/٦٦.

النفاس وغير ذلك. ثم جزَعها وأنينُها عند ولادة عيسى عليه السلام بقولها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾،[١] لم يكن جزَعَ ردٍّ أو تهاوُن بحكم الله /[٩٠و] ولكن إظهاراً لضعفها وعجزها عن تحمّل قالة[٢] الناس فيها وريبة الأولياء[٣] والأصفياء في حالها إلى أن وعدها الله تعالى كفاية ذلك بقوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.[٤] وفي مخاطبات القوم لمريم في ذلك الوقت بقوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا.﴾[٥] دليل على أنه لا عبرة لمجازفة قول الخلق في البَرَاء[٦] وقذفهم إياهم بما لا يليق بحالهم. فلا ينبغي الاشتغال بمجاوبتهم بل نَكِل[٧] أمرهم إلى الله تعالى كما فعلت مريم وأحالت[٨] الجواب إلى ولدها فأنطَقَ الله عيسى حتى قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.[٩] ويجوز أن يكون ذلك جارياً على لسانه من غير قصده واختياره، ويجوز أن يخلق الله تعالى فيه الاختيار فيقول ذلك باختياره، والأعجوبة فيه أكثر. فلما قال ذلك صدّقه[١٠] بعضهم وآمنوا به[١١] وكذّبه[١٢] بعضهم وجحَدوه[١٣] وطعَنوا فيه وفي أمه، وهم اليهود. وأفرَطَ بعضهم في الميل إليه حتى نسبوه إلى ما لا يليق به. وقالوا في الله قولاً عظيماً، وهم النصارى. وأهل الإسلام توسّطوا بين الغلوّ والتقصير فقالوا: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.[١٤] والحمد لله على التوفيق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ سورة مريم، ٢٣/١٩.
٢ م: مقالة.
٣ م: الأنبياء.
٤ سورة مريم، ٢٦/١٩.
٥ سورة مريم، ٢٨/١٩.
٦ م: في البرى. أي في براءة مريم وعفتها.
٧ ل: بل تكل؛ م: بل يكل.
٨ م: احالة.
٩ سورة مريم، ٣٠/١٩.
١٠ ل: صدقوه.
١١ ل ـ به.
١٢ ل: وكذبوه؛ م: وكذّبوا به.
١٣ ل: وجحدوا.
١٤ فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ (سورة النساء، ١٧١/٤).

فصل
في[1] ذكر النبي المصطفى سيّد المرسلين وإمام المتقين خاتم النبيين وأكرم الخلق أجمعين ورسول رب العالمين[2] أرسله رحمة للعالمين[3] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

/[٩٠ظ] قال الشيخ ﷺ: إن الله تعالى خاطب في كتابه جميع رسله وأنبيائه بخطاب التعريف وخاطب رسوله محمداً ﷺ بخطاب التعظيم والترحيب. فسمّى كل واحد من الأنبياء باسمه فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾،[4] و﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾،[5] ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾،[6] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾،[7] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾،[8] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾،[9] ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾.[10] ونادى رسوله عليه السلام وحبيبه وصفيّه[11] باسم التعظيم والإكرام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾،[12] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.[13] وحيث

---

١ م ـ فصل في.
٢ م: ورحمة للعالمين
٣ م ـ أرسله رحمة للعالمين.
٤ سورة البقرة، ٣٥/٢؛ وسورة الأعراف، ١٩/٧.
٥ سورة هود، ٤٨/١١.
٦ سورة هود، ٧٦/١١.
٧ سورة الأعراف، ١٤٤/٧.
٨ سورة ص، ٢٦/٣٨.
٩ سورة مريم، ١٢/١٩.
١٠ سورة آل عمران، ٥٥/٣.
١١ م + محمدا.
١٢ سورة المائدة، ٦٧/٥.
١٣ سورة الأحزاب، ٤٥/٣٣.

سمّاه باسمه قرن به ذكر رسالته فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾،[١] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾.[٢]

وذكر في بعض معاتباته ما يوجب غاية التعظيم وهو قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[٣]؛ فإن بداية التعظيم في أن يُذكَر الفرد بلفظة الجمع فيقول للواحد:[٤] أنتم فعلتم كذا[٥] وأمرتم بكذا. وكمال التعظيم في أن يُذكَر المخاطب بلفظة المغايبة فيقول: هو فعل كذا وأمر بكذا. فلما عاتبه الله تعالى ذكر ذلك بما يوجب كمال التعظيم وهو قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ولم يقل: عبستَ وتولّيْتَ. فهذا من الله تعظيمه وإبانة قدره في حال عتابه. فكيف تعظيمه في حال إكرامه، لئلا يتخطى أحد من الخلائق إلى الإزراء به والتهاون بشأنه حتى جعل المستخِفّ بقدره في الدرك الأسفل من النار.

ومن تأمّل في إشارات القرآن في حقه عرف بقدر ما كُشِف له من الغِطاء /[٩١و] ما له من المنزلة عند الله تعالى حتى قال أهل التفسير: ما من آية في القرآن إلا وفي ابتدائها نداء محمد ﷺ ضمناً؛ وفيما صَرّح قَرَنه[٦] بذكر الرسول والنبي، كما قال في قوله تعالى:[٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا. وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾.[٨] فكل اسم من هذه الأسامي إذا حُقِّق معناه ينقطع علوم العباد عن كنه معناه، لأن الشاهد مَن في شهود الحق سبحانه أو من يكون مقبول القول فيما شهد على الحق[٩] من المدح والذم والشفاعة والخصومة. والمبشر الذي يروّح قلوب أولياء الله برحمته وينوش[١٠] عبادَه بجوده ونعمته. والنذير الذي يلقي هيبة كبريائه وسلطانه في قلوب السُعَداء وينشر الخسار والنكال في قلوب

---

١ سورة الفتح، ٢٩/٤٨.

٢ سورة آل عمران، ١٤٤/٣. قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٧٣/١٥؛ ٢٥٦/١٧ ـ ٢٥٧.

٣ سورة عبس، ١/٨٠.

٤ م ـ للواحد.

٥ م ـ كذا.

٦ م: قربه.

٧ ل ـ كما قال في قوله تعالى.

٨ سورة الأحزاب، ٤٥/٣٣ ـ ٤٦.

٩ ل: على الخلق.

١٠ ناش فلان خيراً: أناله إياه.

الأشقياء. والداعي إلى الله هو الذي يجذِب الخلق إلى الخالق كيلا يشتغلوا بغيره. وقوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ كيلا يُتوهَّم أنه فعل ذلك من ذاته[١] بل بوحيه وإرساله. وقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ تشبيهاً بأعظم الأنوار وهو الشمس الذي سمّاه الله تعالى سراجاً منيراً.[٢] ثم وصَفَه بكونه منيراً[٣] ليشاركه ما هو صفة القمر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.[٤] إلا أن الشمس والقمر مسخّران[٥] في الإضاءة والإنارة، والنبي ﷺ موفَّق معصوم مُخيَّر في شرح الهدى[٦] وإبانة السبيل[٧] ودلالة الطريق المستقيم. والشمس والقمر ضُمّنت فيهما المنافع الدنيوية /[٩١ظ] ورسول الله ﷺ لمصالح الخلق ديناً ودُنيًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.[٨]

ولا يقال: إن الله تعالى سمّى إبراهيم خليلاً في القرآن ولم يَنُصَّ على كون محمد حبيباً لأنا نقول: نصّ في القرآن ما هو أبلغ من هذا فإنه قال:[٩] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾،[١٠] فإذا[١١] جعل متّبعيه أحبّاءه فقد استُغنِي عن أن يُسمَّى هو حبيباً؛ ولأن نور الشمس لا يُعدم الظلَّ أصلاً بحيث يتلاشى بل يكون الظل في أحد الجوانب منبسطاً سوى وقت[١٢] واحد عند الزوال لقرب[١٣] خطّ الاستواء. وأما[١٤] نور محمد فقد محا[١٥] ظلمة الضلال كلِّها، ففي الدنيا نور الدعوة انتشر في الخلائق وفي

---

١ م: من رأيه.

٢ لعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (سورة نوح، ١٦/٧١).

٣ م ـ منيرا؛ ل م + حتى.

٤ سورة الفرقان، ٦١/٢٥.

٥ م: مسخرات.

٦ ل ـ الهدى.

٧ ل: السبل.

٨ سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.

٩ ل ـ قال.

١٠ سورة آل عمران، ٣١/٣.

١١ ل: فإذ.

١٢ في النسختين: يوم.

١٣ م: بقرب.

١٤ م: فأما.

١٥ م: قد محى.

العقبى نور الشفاعة. فقد[١] اتّسعَ لجميع بني آدم حتى قال عليه السلام: «آدم ومَن دونه تحت لوائي يوم القيامة».[٢]

وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾،[٣] فإن قرئ[٤] بالخفض فالمراد به[٥] أنه ختم به النبوة ونُسِخت به الشرائع،[٦] وإن قرئ[٧] بالنصب فقد جُمعت الرسالات وجُعل هو خاتَماً عليها. والخاتم للزينة، فهو زينة الأنبياء بل هو زينة الأرض والسماء.

وقوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾،[٨] أي نُشِر ذكره في السماوات والأرض. وقيل: قرَنَ اسمه باسمه فقال: «لا أُذكَر إلا وتُذكَر معي»،[٩] كما في الأذان والشهادة في الإيمان. والرفع أيضاً بنشره فيما بين الخلائق. دليله المعراج، عُرج به إلى السماوات العُلَى ورَفع الحُجب والأستار حتى أشرَفَ على ما في الملكوت من الأسرار وأفاض بمنّه وبركته /[٩٢و] على الملائكة حتى ازدادت أنوار أذكارهم بلقاء محمد عليه السلام. ونبّههم على قصور الخلق عن إحصاء ثناء الحق[١٠] حيث قال: «لا أُحصي ثناء عليك»،[١١] فلا يقولون بعد ذلك ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ

---

١ م: قد.

٢ مسند أحمد بن حنبل، ٢٨١/١؛ وسنن الترمذي، المناقب ١؛ وسنن الدارمي، المقدّمة ٨؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ج١/١٦ - ١٧.

٣ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (سورة الأحزاب، ٤٠/٣٣).

٤ في النسختين: فإن قرأ.

٥ م - به.

٦ ل: الشريعة.

٧ في النسختين: وإن قرأ.

٨ سورة الانشراح، ٤/٩٤.

٩ انظر: تفسير الطبري، ٢٣٥/٣٠؛ وتفسير ابن كثير، ٥١٥/٣، ٥٢٤/٤؛ والدر المنثور للسيوطي، ٣٦٣/٦؛ والموضوعات لابن الجوزي، ٢٨٩/١.

١٠ في النسختين: الخلق.

١١ مسند أحمد بن حنبل ٩٦/١، ١١٨، ١٥٠؛ وصحيح مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ وسنن أبي داود، الصلاة ١٤٨، الوتر ٥.

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بل يعترفون بعجزهم وقصورهم فيقولون ما عبدناك حق عبادتك ولعله هو المراد بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.[١] فحين رأوا محمداً وشرفه[٢] وكرامته عرفوا أنه لو لم يُخلق من صلب آدم إلا هذا الولد كفى ذلك شرفاً وفضيلة لآدم على جميع الخلق. وقوله عليه السلام: «نحن الآخِرون السابقون بَيدَ أنهم أُوتوا الكتابَ مِن قبلنا وأوتيناه من بعدهم».[٣] قيل فيه[٤] بوجهين. أحدهما أن المراد هو وأمّته هم السابقون إلى الجنة، على ما روي عنه[٥] «أنا أول من يُفتَح له أبواب الجنة يوم القيامة».[٦] والثاني سَبقُ روحه على الأرواح، إما في الخلقة كما روي أَن أول ما خلَقَ الله تعالى من الأرواح روح محمد عليه السلام، وإما في السير بالهمّة كما قيل: «تسابقَت الأرواح فسبقَهم روح محمد عليه السلام». وخصّ الله تعالى روحه من بين سائر الأرواح بالقسَم به فقال: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾،[٧] وعِظَم خلُقه فقال:[٨] ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[٩] سُئِلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله عليه السلام فقالت: «كان خلُقه القرآن»،[١٠] معناه أنه لم يخالف القرآن في حدود العبادات وشرائط المعاملات، ثم قرأت ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.[١١] ومعنى آخر /[٩٢ظ] أن القرآن بحر العلوم ومنبع الأسرار ومنشأ الأنوار. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «آثِروا[١٢] القرآن فإن فيه عِلمَ الأولين

---

١ سورة البقرة، ٢/٣٠.
٢ ل: وحين أراهم محمدا شرفه.
٣ صحيح البخاري، الجمعة ١، ١٢، الأنبياء ٥٤؛ وصحيح مسلم، الجمعة ١٩ ـ ٢١.
٤ ل: هو.
٥ ل ـ عنه.
٦ مسند أحمد بن حنبل ٣/٢؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٣٣١؛ وسنن الترمذي، صفة القيامة ١٠، المناقب ١.
٧ سورة الحجر، ١٥/٧٢.
٨ م: قال.
٩ سورة القلم، ٦٨/٤.
١٠ مسند أحمد بن حنبل ٦/٥٤، ٩١؛ وصحيح مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ وسنن أبي داود، التطوع ٢٦؛ وسنن النسائي، قيام الليل ٢.
١١ سورة الأعراف، ٧/١٩٩.
١٢ م: اثيروا.

والآخِرين».[١] وقال[٢] الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾،[٣] لم يُرِد به الإكبار[٤] ولكن أشار أن ما[٥] لم يكن مخلوقاً لا يوصف بالابتداء والانتهاء. وخُلِق رسول الله عليه السلام، وإن كان مخلوقاً ولكنه[٦] صار بحراً لمكارم الأخلاق حتى استمدَّ كل الخَلق من خُلقه كما قال: «بُعِثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق».[٧]

وذكر وهب بن مُنبِّه[٨] في **كتاب العقل**: إني قرأتُ في الكتب المتقدّمة[٩] أن الله تعالى خلق العقل وقَسَمه[١٠] بين عباده وجعل مثله كرملٍ عالج[١١] من المشرق إلى المغرب،[١٢] فأصابت منه حبة لجميع الخلق والباقي لمحمد عليه السلام. وقال أهل البصيرة: إن معرفة محمد مع معرفة سائر الخلق كزِقّ مملوءٍ ماءً رُبِط بخيط فابتَلَّ ذلك الخيط، ما ذا يقاس تلك البلّة بماء الزقّ؟ فالبلّة معرفة سائر الخلق والباقي معرفة محمد عليه السلام. ثم لما كانت فضائل محمد ولطائف الله في حقه وإجلالُه لقدره خارجةً عن علم العباد والحد

---

١ انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٥/٧ هو قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ وكنز العمال للهندي، ٥٤٨/١.

٢ ل: قال.

٣ سورة لقمان، ٢٧/٣١.

٤ م: الإكثار.

٥ م: أنما.

٦ م: ولكن.

٧ م ـ حتى استمد كل الخلق من خلقه كما قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. انظر: الموطأ لمالك، حسن الخلق ٨؛ مسند أحمد بن حنبل ٣٨١/٢؛ وتفسير ابن كثير، ٤٠٣/٤؛ والجامع الصغير للسيوطي، ١٧٧/١.

٨ هو أبو عبد الله وهب بن منبّه اليماني الصنعاني الذماري، مؤرّخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأوّلين ولا سيّما الإسرائيليّات، يعدّ من التابعين. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمّه من حِمْيَر. ولاّه عمر بن عبد العزيز قضاءها. مات بصنعاء سنة ١١٤هـ/٧٣٢م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٥٠/٩؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ١٧٤/١٣.

٩ ل: في كتاب المقدمة؛ م: في كتب المتقدمة.

١٠ م: وقسم.

١١ العالج ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض.

١٢ ل: من الشرق إلى الغرب.

المعتاد، فلولا رحمة الله على أمّته بتقرير قلوبهم على توحيده بإظهار بشريته بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾،[١] وتعريفُ عبوديته بقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾،[٢] وقوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾،[٣] وإظهارُ صفة الفقر والحاجة التي يختصّ به العبد، وإلا لوقع الغلط في حاله كما وقع للنصارى في حق عيسى عليه السلام فأفرَطوا في إطرائه؛ /[٩٣و] فقال بعضهم:[٤] هو الله، وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال بعضهم: ثالثُ ثلاثةٍ. وإليه أشار ﷺ: «لا تُطروني كما أطرَتِ النصارى عيسى ابنَ مريم ولكن قولوا: عبد الله ورسوله».[٥]

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ سورة الكهف، ١١٠/١٨؛ وسورة فصّلت، ٦/٤١.

٢ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء، ١/١٧).

٣ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ٢٣/٢).

٤ م: فقالوا.

٥ مسند أحمد بن حنبل ٢٣/١، ٢٤، ٤٧، ٥٥؛ وصحيح البخاري، الأنبياء ٤٨؛ وسنن الدارمي، الرقاق ٦٨.

[من فضائل النبي عليه السلام]

ومن فضائله أنه جعله أماناً لأهل الأرض من العذاب العامّ كالخسف والمسخ والصيحة وإمطار الأحجار كما كان للأمم الماضية، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾. ولهذا قيل: إن دفنه في الأرض كان رحمة ليكون فيهم إلى يوم القيامة، فلا يعذبهم الله تحقيقاً لوعده. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾،[١] يجوز أن يكون المراد منه وهم[٢] يؤمنون لأن الإيمان يبعثهم على الاستغفار. وقد روي أن عذاب النار يُخفَّف على الكفار ما دام واحد من المؤمنين في جوارهم. وهذا تخصيص لأمّة محمد عليه السلام. قال: سمعتُ شيخ الدين[٣] أبا الحسن عليَّ بنَ إسماعيل الفاغي[٤] ـ وهو ثقة مأمون ـ أن آدم عليه السلام قال للنبي عليه السلام ليلة المعراج: يا محمد، إن الله تعالى فضلك عليّ بثلاث خصال. إحداها أكرمك بأصحاب لم يكن لي مثلهم، والثانية أن أولادك لا يكفُرون بعدك وقد كفر بعض أولادي بعدي، والثالثة أن أزواجك تَكُنَّ عونا لك على طاعتك وزوجتي كانت عونا لي على زلّتي.

---

١ سورة الأنفال، ٨/٣٣.
٢ ل: وهو.
٣ في النسختين: الشيخ الدين.
٤ م: القاغي. لم أجد عنه خبرا فيما لديّ من المراجع.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.[١] قيل: إن الله تعالى كافٍ[٢] لنصرة نبيه ومن اتّبعه أيضاً ينصرونه، وقيل: إن المراد عمر ابن الخطّاب /[٩٣ظ] رضي الله عنه. والقول الأوجه في الآية أن الله حسبُه وحسب من اتبعه، أي كافٍ[٣] لنصرته ونصرة متبعيه إلى يوم القيامة، دليل ذلك قوله[٤] تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[٥]

قال الشيخ: ثم مذهب السنة والجماعة أن رسول الله خُلِق نبيًّا وأُعِدّ للرسالة أن أوحى الله تعالى إليه[٦] على رأس أربعين سنةً، كما أخبر عليه السلام فقال: «كنتُ نبيّا وآدم بين الروح والجسد».[٧] وقد جمع وهب بن مُنبّه في كتاب **نور محمد** انتقال نوره من صلب إلى رحِم ومن رحم إلى صلب. ونوره يتلألأ في جبهة صاحب الصلب وصاحبة الرحم إلى أن ظهر وقت انفصاله من أمّته فانتشر على وجه الأرض فزكتْ حتى صارت مسجداً وطهوراً، كما أخبر عليه السلام «جُعِلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً أينما أدركتني[٨] الصلاة تيمّمتُ وصلّيتُ»[٩] وانعكست راية الشيطان بولادته[١٠] وهُدمت إيوان كِسرى وخمَدَت نار فارس، وظهر طريق الخلاص لأهل الاختصاص ورُفع الخَسْف والمسخ عن جميع الناس.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ سورة الأنفال، ٨/٦٤.
٢ م: كافي.
٣ في النسختين: كافي.
٤ في النسختين: ذلك وقوله.
٥ سورة التوبة، ٩/١٢٩.
٦ ل: أن أوحى إليه.
٧ مسند أحمد بن حنبل ٥/٥٩، ٣٧٩؛ وسنن الترمذي، المناقب ١؛ والمستدرك للحاكم، ٢/٦٠٨؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٢/١٦٢.
٨ م: أدركت.
٩ مسند أحمد بن حنبل ٥/١٤٥، ١٤٨؛ وصحيح البخاري، التيمّم ١؛ الصلاة ٥٦؛ وصحيح مسلم، المساجد، ٣ ـ ٥.
١٠ ل ـ بولادته.

[فضائل النبي عليه السلام في سورة الانشراح]

وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.[١] هذا استفهام بمعنى التقرير، حتى عرفتَ ربوبيتي وقوِيتَ على أداء الرسالة وتحمّل أثقال الخلق. ويقال: رَفعتُ الحجُب عن سرّك حتى شاهدتَ عظمتي وجلالي واستَقصَرتَ نفسك حتى رأيتَ الاستغفار لازماً عليك في كل نفَس، كما قال عليه السلام: «إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرّةٍ».[٢] وقيل: إنه كان يستغفر لأمّته. وقيل: استغفر بمعنى استعصم من الغَفْر وهو الستر، سأل أن يحجبه عن عينه فلا يرى نفسه في مقام شهوده. /[٩٤و] وقيل: استغفر تعبّداً وشكراً، كما قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً».[٣]والشكر على قدر الإنعام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.[٤] وقال في آية أخرى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾،[٥] وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

١ سورة الانشراح، ١/٩٤.

٢ مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢، ٢٦٠/٤؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٤١؛ وسنن أبي داود، الوتر ٢٦؛ وسنن الترمذي، التفسير ١/٤٧.

٣ مسند أحمد بن حنبل ٢٥١/٤، ٢٥٥؛ وصحيح البخاري، التهجّد ٦؛ وصحيح مسلم، صفات المنافقين ٧٩ ـ ٨١.

٤ سورة الإسراء، ٨٧/١٧.

٥ سورة النساء، ١١٣/٤.

﴿عَظِيمٍ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.[٢] الوضع[٣] قد يكون عبارة عن الإسقاط،[٤] وقد يكون عبارة عن الرفع. والإسقاط نوعان: إسقاط[٥] عفو بعد ارتكاب المآثِم فيطمئنّ[٦] بالعفو، وإسقاطُ وقت قسمة الأفعال بين العباد[٧] فلم يُصَب له حظّ من قسمة الأوزار عند قسمة الأفعال، لا أنه كان في وزر ثم أسقطه. وأما إسقاط الرفع[٨] فقد رفَعَ نَزَغات الشيطان[٩] عن ضميره كيلا يطالبه بعبادة الصنم حسب اشتغال قومه، ورفَعَ[١٠] أيضاً عن ضمير قومه حتى لم يحملوه على ذلك وصرَفَ خواطرهم عن التأمّل في حاله والإنكار على مخالفته إياهم. ويحتمل أن يكون هذا الوزر عبارة عن شفقته على الخلق وتلهّفه على قبح فعلهم واتّجاه الهلاك إليهم. فإنه كان سيد الخلق وكان يشُقّ عليه هلاكهم وشقاوتهم، حتى قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.[١١] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.[١٢] ولذلك يُسمَّى الذي يتحمل[١٣] أمر الرعيّة وزيراً،[١٤] وقد سأل موسى عليه السلام أن يكون له وزيراً من أهله هارون أخوه.[١٥] وفي هذه الآية بيان شرف النبي عليه السلام أن ما سأل موسى عليه السلام في مقام الرسالة أعطيناك[١٦] من غير مسألتك.

وقوله:[١٧] ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[١٨] يعني لولا تخفيفنا الأمر /[٩٤ظ] عليك

---

١ سورة القلم، ٦٨/٤.
٢ سورة الانشراح، ٩٤/٢.
٣ م: فالوضع.
٤ م: عن إسقاط.
٥ م: والدفع والرفع إسقاط.
٦ م: فيظهر.
٧ م: بغمين للعباد.
٨ م: الدفع.
٩ ل: الشياطين.
١٠ م: ودفع.
١١ سورة الشعراء، ٢٦/٣.
١٢ سورة فاطر، ٣٥/٨.
١٣ م: يحتمل.
١٤ م: وزير.
١٥ ل: أخاه. يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (سورة طه، ٢٠/٢٩ ـ ٣٠).
١٦ م: الرسالة له أعطيناك.
١٧ م: قوله.
١٨ سورة الانشراح، ٩٤/٣.

لأنقض هذا الوزر ظهرك. قال الشيخ أبو منصور: وصرَفَ عامّة أهل التأويل الوزر إلى الذنب كما قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾،[١] ولكنه بعيد. والأصح صرفه إلى أثقال الرسالة كما قلنا.[٢] قال المصنّف: ولو صُرِفت الآية إلى الذنب فذنب كل أحد ما يليق[٣] بحاله ولا يكون ذنبه مثل ذنوب غيره. وتفسير ذلك يجيء بعد هذا إن شاء الله تعالى.[٤] فأما الأنبياء [فهم] معصومون عن الكبائر والصغائر التي يرتكب الخلق، إذ لو ارتكبوا ذلك لوجد الكفار مطعَنا فيهم «أنكم فعلتم مثل ما فعلنا وكنتم على حالتنا فكيف تَصلحون لدعوتنا؟».

وقد وُلِد النبي عليه السلام مُطهَّراً يعني مختوناً لئلاّ يقع بَصَر أحد الناس[٥] على عورته، فمضى عمره ولم يقع بصره على عورته ولا بصر أحد من الخلق حتى من نسائه. أخبرت عائشة رضي الله عنها: «إني ما رأيتُ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم»،[٦] فخُصَّ بذلك من بين سائر الخلق. ألا ترى أنه كيف أُبتُلِي آدم بذلك فقال: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.[٧]

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.[٨] كيف يتهيّأ لامتثالنا ذكرُ شرفه وإن الملائكة[٩] المقرّبين لم يعرفوا من شرفه إلا على طريق الإجمال؛ على ما روي في ليلة المعراج لما انتهى إلى السماء الرابعة سمع من الملائكة ذكر عمر، فقال لجبريل عليه السلام: «هل يعرفون هؤلاء عمر؟» فقال جبريل: «يا محمد لو ذُكرت فضائل عمر مقدار ما لَبِثَ نوح في

---

١ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ (سورة المؤمن، ٥٥/٤٠)؛ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (سورة محمد، ١٩/٤٧).

٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٥٥/٧.

٣ ل: أحد يليق.

٤ ل - إن شاء الله تعالى.

٥ م - الناس.

٦ انظر: الشمائل الشريفة للترمذي، ص ١٠٩.

٧ سورة طه، ١٢١/٢٠.

٨ سورة الانشراح، ٤/٩٤.

٩ ل: شرفه أن الملائكة.

قومه[١] لم يَتِمَّ فضائله، وأن عمر لحسنة من حسنات أبي بكر، وأن أبا بكر لحسنة من حسناتك».[٢]/[٩٥و] لكن الله تعالى ذكر في كتابه من فضله ما يصح به إيمان[٣] من آمن به فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، لئلاّ يُتوهَّم أنه عليه السلام مترفِّع متكلِّف الرفعة أو معجَب بها متشهٍّ[٤] لها. بل هو مرفوع من الله تعالى ذكره في الأمم الماضية والقرون الخالية والكتب السابقة فيما بين الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين.[٥] وكذلك رفَعَ ذكره حيث قرَنَه[٦] بذكره في التشهّد وكلمة الأذان[٧] فقال: «لا أُذكَر إلا وتُذكَر معي».[٨] وقيل: رفَعَ ذكره بأن جذب[٩] سره عن ذكره إلى المذكور[١٠] فيكون[١١] ذاكراً له مشتغلاً بالله عن ذكره فيصفو[١٢] ذكره لله والصافي مرفوع ذكره.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.[١٣] ذكَر أهل التفسير ما ذكَروا، ولكن قال أهل الإشارة: معنى العسر نظره إلى أهل الجاهلية بتردّدهم في طغيانهم ودعوة الأصنام آلهة بظنهم وحِسبانهم. ويجوز أن يكون العسر الثاني[١٤] مدّة مقامه بمكة للدعوة من غير الأمر بالقتال، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾،[١٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.[١٦]

---

١ ل: في عمره.

٢ مجمع الزوائد للهيثمي، ٦٨/٩؛ والمطالب العالية لابن حجر، ٤١/٤؛ والموضوعات لابن الجوزي، ٣٢١/١؛ واللآلئ المصنوعة للسيوطي، ٣٠٣/١ قال السيوطي: قال الذهبي في الميزان: إنه خبر باطل.

٣ م: ما يصح إيمان.

٤ ل: متشهي؛ م: مشتهي.

٥ ل: والمقرّبين.

٦ م: وقرنه.

٧ ل: في الأذان والتشهد وكلمة الإسلام.

٨ انظر: تفسير الطبري، ٢٣٥/٣٠؛ وتفسير ابن كثير، ٥١٥/٣، ٥٢٤/٤؛ والدر المنثور للسيوطي ٣٦٣/٦؛ والموضوعات لابن الجوزي، ٢٨٩/١.

٩ م: أن جذب.

١٠ ل: على المذكور.

١١ م: ويكون.

١٢ في النسختين: فيصفوا.

١٣ سورة الانشراح، ٥/٩٤.

١٤ أي الآية ٦ من هذه السورة.

١٥ سورة المزمل، ١٠/٧٣.

١٦ سورة الحجر، ٩٧/١٥.

أو يكون العسر في الفقر والمسكنة وضيق الحال، فيكون اليسر[١] على التأويل الأول ظهور الإسلام، وعلى التأويل الثاني الأمرُ بالقتال والنصرةُ على الأعداء وسعة الأموال وأخذ الغنائم؛ أو رؤيةُ القلب قسمة الله تعالى فيما[٢] قسَمَ. قال الله تعالى: /[٩٥ظ] ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾،[٣] فيرى الرِّضا[٤] بالمقسوم من أوسع اليسر؛ أو بفتح بصيرته بما يعوِّضه الله تعالى على المحن ومخالفة الهوى من صفاء السر وذكاء القلب ورضاء الرب، كما حكي أن امرأة أبي علي الرُّوذْباري[٥] عثَرَت قَدَمِيَ[٦] إصبعها فضحكت، فقيل لها في ذلك فقالت: كُشِفَ لي من ثوابها ما أنساني ألَمَها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾.[٧] يُحتمل إذا فرغتَ من الخلق بأداء الرسالة إليهم فانصب للمناجاة بين يدي الله تعالى، ويحتمل إذا فرغت من التفكر في أثقال[٨] الرسالة بتيسيري وتخفيفي إياك فانصب لأداء الشكر وفي صلاة الليل، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ لعائشة: «أفلا أكون عبدا شكورا».[٩] ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾، أي اطلب ما عند الله لك من مزيد الكرامات ورفيع الدرجات.

*لا يلزم أن يتكلّف تفسير هذه السورة لأنه لم يتعلق بها أمر أو نهي يجب العمل بهما بل هي مخصوصة برسول الله ﷺ. والله أعلمُ بمخاطبته به، ولا نشهد على مراد الله من هذه السورة من غير دليل، فأما الإمساك

---

١ ل: العسر.
٢ م: فلما.
٣ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة الزخرف، ٣٢/٤٣).
٤ في النسختين: الرضى.
٥ هو أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم، الرُّوذْباري، فاضل، من كبار الصوفية من أولاد الرؤساء والوزراء. له تصانيف حسان في التصوف. أصله من بغداد، سكن مصر. توفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٥م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٩٩/٦؛ ومعجم المؤلفين لكحّالة، ٣٠٨/٨.
٦ ل: قدمي.
٧ سورة الانشراح، ٧/٩٤ ـ ٨.
٨ م: في أفعال.
٩ مسند أحمد بن حنبل ٢٥١/٤، ٢٥٥؛ وصحيح البخاري، التهجد بالليل ٦؛ وصحيح مسلم، صفات المنافقين ٧٩ ـ ٨١.

عن تفسيرها أسلم.*[1] قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه[2] طريقة الشيخ أبي منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ولكن يجوز أن يقال: إن معرفة شرف الرسول من أعظم الحاجات؛ فإن كان فيه بيان شرفه لا بد من التأمل فيه لمعرفة فضله وتصفية تعظيمه في قلبه، وإن كان فيه ما يوجب نقصا[3] في الظاهر لا بد من التأمل فيه ليخرُج على موافقة قدره.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ ما بين النجمتين لا يوجد إلا في نسخة مغنيسا م)، ولعلّها تُعبر عن رأي أبي منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما يُستَفاد من العبارة التي تليها.

٢ ل: هذا.

٣ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٥٩/١٧.

[شرف النبي عليه السلام]

وشرف رسول الله ﷺ ثابت في نفسه وفعله وخلُقه وحسبه ونسبه وصفوة سره وصدق ثباته. أما شرف نفسه[١] فعَلى ما روي /[٩٦و] حلية رسول الله ﷺ في حديث أم مَعبَد[٢] وهِند بن أبي هالة[٣] وغير ذلك من كمال صورته وجمال هيئته[٤] واعتدال خلقته وحسن منظره ونزاهته عن العيوب والآفات التي يبتلى بها البشر.[٥] وأما الخلُق والفعل[٦] كما يروى من حلمه ووقاره وتواضعه وسخائه وحسن احتماله وتفقّده ورعايته لأمته وشَفَقته على خلق الله حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[٧] وأما شرف

---

١ م ـ نفسه.

٢ هي أم معبد الخُزاعيّة صاحبة القصة في الهجرة، فاسمها عاتكة بنت خالد. انظر: تقريب التهذيب لابن حجر، ٦٢٥/٢؛ والاستيعاب لابن عبد البر، ١٩٥٨/٤.

٣ هو هند بن أبي هالة، واسمه النباش التميمي، ربيب النبي ﷺ، أمه خديجة بنت خويلد، قيل: استشهد يوم الجمل مع علي، وقيل: عاش بعد ذلك. انظر: تقريب التهذيب لابن حجر، ٣٢٢/٢؛ والاستيعاب لابن عبد البر، ١٥٤٤/٤.

٤ في النسختين: هيبته.

٥ ل: الذي بها يبتلي البشر. انظر: سنن الترمذي، الشمائل الشريفة ص ٦، ٦٤، ١٠٠، ١٠٦؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ٥٥/٦ ـ ٥٨، ٢٧٣/٨ ـ ٢٧٥، ٢٧٨؛ وفيض القدير للمناوي، ٧٦/٥؛ وكنز العمال للهندي، ٣٢/٧.

٦ ل: والعقل.

٧ سورة القلم، ٤/٦٨.

نسبه فيما يذكر من آبائه الكرام حتى صاروا مُنَوَّهين[١] بأسمائهم في كل عصر، مذكورين بالشرف في كل قبيلة، ليعرف أن كل صلب جرى عليه عظُمَ في قومه، وكل رحِم حمَلَه شرُفَ في قومه، كما روي أن نوره يتلألأ في جَبين من هو في صلبه أو رحِمه. كل مكان نُسِب إليه فتشريف[٢] ذلك المكان أنه فيها وُلِد ونشَأَ.[٣] وأما صفوة سره فإنه كان مُصفًّى[٤] عن العلائق لا يُعتمد[٥] عليها والخلائق لا يُسكن إليها، كما قال جعفر الصادق في تفسير قوله[٦] تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾،[٧] فقال: إنك ميّت عن إدراك سري وأمّتك ميتون عن إدراك سرك. قال الشيخ: معناه أنك لا تقف على سر الربوبية وإن جلّت[٨] معرفتك بالله تعالى، وأمتك لا يقفون على سرك بيني[٩] وبينك، كما أخبر عليه السلام: «لي مع الله وقت لا يَسَعُني فيه ملَك مقرَّب ولا نبي مرسل».[١٠] وقد /[٩٦ظ] خصّه الله تعالى بالصلاة عليه من الله تعالى وملائكته وجميع أمته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.[١١] فالصلاة من الله اجتباء[١٢] واصطفاء، ومن الملائكة تعظيم واستجلاء، ومن المؤمنين دعاء واهتداء وتقديمه شفيعاً إلى الله تعالى.

قال الشيخ: وما تداولت ألسُن العامة أن الله تعالى خلق الدنيا

---

١ م: منزهين.
٢ م: فلتشريف.
٣ ل: أو نشأ.
٤ في النسختين: مصفا.
٥ م: لا معتمد.
٦ م: في تفسيره قوله.
٧ سورة الزمر، ٣٩/٣٠.
٨ ل: وإن جل.
٩ م: ببيني.
١٠ انظر: تمييز الطيّب للشيباني، ص ١٤١؛ والمقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٣٥٦؛ والمصنوع لعلي القاري، ص ١١٧ قال علي القاري: (هذا ليس بحديث وهو من كلام بعض الصوفية)؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢/١٧٣ قال العجلوني: (تذكره الصوفية كثيراً... ويقرب منه ما رواه الترمذي في شمائله وابن راهويه في مسنده عن علي في حديث كان ﷺ إذا أتى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله وجزءًا لأهله وجزءًا لنفسه).
١١ سورة الأحزاب، ٣٣/٥٦.
١٢ ل: اختيار.

والآخرة لأجل محمد وروَوا أنه قال: «لولا محمد ما خلقتُ الدنيا والآخرة».[١] لا يُستحسن إجراء هذه الفضيلة بهذا النظم، لأنه يُوهم أن الربوبية معلولة والله تعالى خلَقَ الخلق لا لعلة ولا ليستكثر بهم عن قِلّة. ولكن[٢] الأوفق والأصوب أن يقال: خلَقَ الدنيا والآخرة وفضّل محمداً على أهل السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، ولا يذكرَ في فضله عليه السلام بما يجاوز حد العبودية ويختلط تعظيمه في قلبه بتعظيم الله جلّ جلاله، حتى يكونَ في جملة من مدَحَه الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.[٣] يَعرف قدره بما رفع الله تعالى من قدره ويعلم منزلته بإنزال الله إياه تلك المنزلة، كما قال عليه السلام: «أحِبّوا الله لما أرفَدَكم به من نعمه، وأحِبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي»،[٤] أمَرَ أن تكون محبته مربوطة بحب الله. وكل من[٥] استعظم في قلبه قدره ورِفعتَه [يجب أن] يعتقد في ذلك منة الله تعالى عليه ونفاذ تصرفه في خلقه، حيث خَصّ واحداً من عبيده بأن جعَلَ طاعته طاعة الله تعالى فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ [٩٧و] فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾،[٦] وجعل التسليم لحكمه من شرط الإيمان بالله تعالى فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾،[٧] مع تيقّنه أن المخلوق لا يشارك الخالق في صفاته وأسمائه ولا يوازيه في عظمته وكبريائه. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾،[٨] وقال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾،[٩] وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.[١٠] ومعنى قوله عليه السلام

---

١ انظر: المستدرك للحاكم، ٦١٥/٢ قال الذهبي في التلخيص: (أظنّه موضوعاً على سعيد)؛ والشفاء للقاضي عياض، ١٣٨/١؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ١٦٤/٢ قال العجلوني: (قال الصغاني: موضوع، وأقول: لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثاً)؛ والمصنوع لعلي القاري، ص ١١٦؛ وكنز العمال للهندي، ٤٣١/١١، ٤٥٥؛ والموضوعات لابن الجوزي، ٢٨٩/١.

٢ ل: لكن.

٣ سورة التوبة، ١١٢/٩.

٤ سنن الترمذي، المناقب ٣١؛ والمستدرك للحاكم، ١٥٠/٣.

٥ ل: وكلما.

٦ سورة النساء، ٨٠/٤.

٧ سورة النساء، ٦٥/٤.

٨ سورة الشورى، ١١/٤٢.

٩ سورة الأنعام، ١٦٣/٦.

١٠ سورة الإخلاص، ٤/١١٢.

«أحِبّوا الله لما أرفَدَكم»[١] إشارة إلى أن العبد بصفاته معلول وصفات الله غير معلولة،[٢] فيجوز أن تكون محبة العبد لله تعالى بعلة الإنعام وإن كان قد يحبه لأنه أهلٌ أن يُحَبّ. فأما محبة الله لعبده لا يجوز أن تُحال إلى علة بل هي ربوبية من مقتضيات[٣] الحكمة.

قال الشيخ: ثم الخطابات التي في القرآن للنبي عليه السلام مثلَ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾،[٤] أو ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾[٥] في الموضعين،[٦] وكقوله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ.﴾،[٧] وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾،[٨] فيها وجوه من الحكمة. منها أن يُعرف أن العبد ـ وإن جل قدره ـ لا يخرج عن حد الخطاب والعتاب من الله تعالى. ومنها تنبيه العباد أن المعصوم بواحدة[٩] خاطبه الله تعالى بمثل[١٠] هذا الخطاب، فمَن[١١] دونه متى يأمَن على حاله من غير استعانة ولا استعاذة؟ ومنها أن يعلم الكفار أنه فيما لم يخالطهم ولم يخاطبهم[١٢] فيما يسألون في بعض الأوقات ليس من شماسة خُلُقه، ولكن اتّباعاً لوحي الله. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾،[١٣] /[٩٧ظ] فإنهم يطمعون من خُلقه وكرمه[١٤] أن يوافقهم في بعض ما يدعونه إليه، فيوحَى إليه النهي عن اتباعهم والتهديد على موافقتهم لتنقطع أطماعهم عن إجابته إياهم. ومنها تعظيم قدر الديانة وتقرير تكليف الشرع. وفيه ردّ على أهل الإباحة[١٥] حيث يزعمون أن الشريعة ترتفع عن الأولياء المحبّين لله

---

١ تقدم قريبا.
٢ ل: غير معلول.
٣ ل: من مقتضات.
٤ سورة البقرة، ١٢٠/٢.
٥ سورة البقرة، ١٤٥/٢.
٦ ل ـ في الموضعين.
٧ سورة الحاقة، ٤٤/٦٩ ـ ٤٥.
٨ سورة الزمر، ٦٥/٣٩.
٩ ل: بواحده.
١٠ ل: لمثل.
١١ ل: لمن.
١٢ م: ولم يجاملهم.
١٣ سورة الأحزاب، ٢/٣٣.
١٤ ل ـ وكرمه.
١٥ أهل الإباحة هم الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء في الأموال والنساء ويدّعون أن لا قدرة لهم على اجتناب المعاصي ولا على الإتيان بما أمر به=

تعالى. وهو كفر صراح لا ترتفع الأمر والنهي عن العبد ما دام حيًّا إلا بعذر.[١] والله الموفق.

□□□□□□

= الشرع. انظر: الفرق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادي، ص ٢٦٦؛ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «الإباحيّة» ١/١١٣.

١ ل: لا يعذر.

[تفسير سورة الضحى من وجهة العصمة]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ. وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ.﴾.[١] أقسم الله تعالى بضوء النهار وظلمة الليل إبانة لقدرته[٢] على إذهاب الليل والنهار على التعاقب، مع أن ضوء النهار رحمة من الله تعالى على عباده ثم يُذهبه عنهم لا لارتكاب جناية منهم، ولكن صفة الدنيا أنها متغيّرة وأحوالها فانية زائلة. وفي هذا تطييب قلب النبي عليه السلام حيث تأخّر عنه الوحي أياماً. كما روي أن اليهود سألوا عن أشياء فوعدهم أن يجيبهم غدا ولم يقل: «إن شاء الله»، وامتنع جبريل عليه السلام عن تبليغ الوحي، وطعَن اليهود في النبي عليه السلام فقالوا: ودَّعه ربه وقلاه. فاغتمّ النبي عليه السلام من مقالتهم، فأنزل الله تعالى هذه السورة تطييباً[٣] لقلبه عليه السلام.[٤] فأشار أن تواتر الوحي مثل ضوء النهار وانقطاعَه مثل ظلمة الليل، فكما أن اختلاف الليل والنهار حكمة من الله تعالى فكذلك[٥] اختلاف أحوال العباد.[٦] ويحتمل أن يكون ضوء النهار إشارة إلى حال البسط وظلمة الليل /[٩٨و] إشارة إلى حال القبض. والله هو القابض والباسط.[٧] وكما[٨] أن بقدرته يُقلِّب الليل والنهار فكذا

---

١ سورة الضحى، ٩٣/١ ـ ٢.
٢ م: بقدرته.
٣ م: مطيبا.
٤ سنن الترمذي، التفسير ٩٣؛ وتفسير الطبري، ٣٠/٢٣١؛ وتفسير ابن كثير، ٤/٥٢٢.
٥ م: فكذى.
٦ م + حكمة.
٧ م: الباسط.
٨ م: فكما.

بحكمته[١] يُصرِّف العبد بين حالتي القبض والبسط. وليس كما زعموا أنه ودَّعه ربه وقلاه، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[٢] أي ليس هذا الاحتباس للوداع والقِلَى ولكنه للمحنة والابتلاء. فالدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء. فليكن نظرك إلى ما أُعِدّ لك من الكرامة في دار الآخرة لا إلى ما يجري عليك من اختلاف أحوال الدنيا. فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾،[٣] إما تقنيعاً وترضية في مِحَن الدنيا وشماتةِ الأعداء، وإما تعليماً لأمته أن الدنيا لا يخلو من المحن فيَقتدي المُمتحَن برسول الله فيسكن تحت مجاري تقدير الله.

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.[٤] جاء في التفسير أن المراد من الآية إعطاء درجة الشفاعة يوم القيامة، حتى قال جعفر الصادق ﷺ: إنا أهلَ البيت نقول: أرجَى[٥] آية في كتاب الله تعالى لأمة محمد عليه السلام هذه الآية،[٦] فإنه وعده أن يعطيه حتى يرضى ولا يرضى محمد وواحد[٧] من أمته في النار. ثم علَّمه إجراء الكلام[٨] فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٩] لتتأدّب[١٠] أمته بوصل الاستثناء في مواعيدهم،[١١] ولا كذلك العقود فإنْ وصل الاستثناء بالعقد يَبطل العقد. وكذلك الإيمان لا يلحقه الاستثناء فلا يقال: «أنا مؤمن إن شاء الله»، فإنه عقد القلب على ما اعتقد، وشرط صحته /[٩٨ظ] أن يكون معتقَداً إلى الأبد. وليس له وقت يجوز إنهاؤه[١٢] إليه والخروج منه. وكذا في قوله: «أموت مؤمناً» لا يُلحَق به الاستثناء لأنه إخبار عن عزمه على الثبات على الإيمان إلى وقت الموت. وإلحاق الاستثناء به ينفي تأكّد العزم. وقد أمر[١٣]

---

١ ل: لحكمته.
٢ الآية ٣ من هذه السورة.
٣ الآية ٤ من هذه السورة.
٤ الآية ٥ من هذه السورة.
٥ م: أرجا.
٦ ل ـ هذه الآية.
٧ ل: محمد واحد.
٨ ل ـ الكلام.
٩ سورة الكهف، ٢٣/١٨ ـ ٢٤.
١٠ م: ليتأدّب.
١١ م: في مواعيديهم.
١٢ م: انتهاؤه.
١٣ م: فقد أمر.

الله تعالى عباده بالثبات عليه إلى وقت الموت فقال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.[١] وحكى عن أنبيائه توصية[٢] بعضهم بعضاً فقال ﷻ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.[٣] ولا يقال: إن الاستثناء إنما يُلحَق به لاستدامة الإيمان من الله تعالى لا لاضطراب العزيمة، لأنا نقول: استدامة الإيمان من الله تعالى يكون بالابتهال والدعاء، وهو راسخ في اعتقاده رسوخَ الجبل، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾،[٤] لا بالاستثناء[٥] الذي يُنبِئ[٦] عن الشك فيُوهِم الاضطراب في الاعتقاد.

قال الشيخ: وفي احتباس الوحي في هذه المدة دلالة صدق رسول الله عليه السلام فيما يُخبر عن وحي الله وتنزيله، إذ لو كان مخترعاً ومفترياً كما طعنوا لاخترَع وافترى في هذه الأيام لسؤالهم[٧] جواباً حسب إنشائه فيما تقدم فيندفع طعنهم وتعييرهم. ولكنه صبر على قالتهم وانتظر لوحي الله في جواب مقالتهم، فيتأكّد علم الخلق أنه ممتنع لانتظار الوحي فتطمئنّ قلوب المؤمنين في صدق نبوته ودوام حجته بالقرآن، فيتمسّكون به بعد وفاته إلى يوم القيامة، كما قال عليه السلام: «خلَّفتُ /[٩٩و] فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا:[٨] كتابَ الله تعالى وعِترتي»،[٩] وفي بعض الروايات: «وسنّتي». فأحد[١٠] الثقلين القرآن: كلام الله غير مخلوق وهو حبل الله المتين، منبع العلوم والأسرار، عصمة لمن تمسّك به نجاة لمن تَبِعه. والثقل الآخر عِترته وهم القدوة في كل عصر من أهل السنة فإنهم ورثة الأنبياء ولا ميراث إلا

---

١ سورة آل عمران، ١٠٢/٣.
٢ ل: وحكى أن أنبياءه يوصي.
٣ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٣٢/٢).
٤ سورة يوسف، ١٠١/١٢.
٥ ل: لأن الاستثناء.
٦ م: يبنى.
٧ ل: بسؤالهم.
٨ في النسختين: لم تضلوا.
٩ مسند أحمد بن حنبل ١٤/٣، ١٧؛ وصحيح مسلم، فضائل الصحابة ٣٦ ـ ٣٧؛ وسنن الترمذي، المناقب ٣١.
١٠ ل: وأحد.

بالنسب، وإن صُرِف ذكر العترة إلى أهل بيته فهو جائز لأن الذين كانوا منهم علماء كانوا مصابيح الهدى، والذين لم يكونوا علماء فهم تذكرة من رسول الله لأمته، ومودتهم ومحبتهم قضاء لحق النبوة. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.[1] وكذلك السنة يعني سيرته وطريقته ومذهبه، فمن تمسّك بها هُدِي إلى صراط مستقيم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.[2] وقال عليه السلام: «من تمسّك بسنّتي عند فساد أمتي فله أجر ستين صدّيقاً».[3]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾.[4] هذه صيغة تنبيه من الله تعالى لنبيه وتعريف لمنته عليه وإن كان هو متنبهاً، لكنه يستحِبّ سماع التنبيه من الله تعالى ليزداد تنبهاً وتيقّظاً[5] وتشرفاً بسماع الخطاب. فأُخبِر عن إيوائه بعد اليُتم لأن انكسار اليُتم يوجب رَثاثة العيش[6] وكلالة[7] الفهم. ومن ربّاه من الخلق وآواه يصير متبرّعاً[8] للذي يربّيه فيوجب تحقيره في عين المربَّى وتعظيمَ المربِّي في عينه. فذكر الله تعالى منّته /[٩٩ظ] بإيوائه، فيعني إيواء عمّه عند إيواء الله إياه لأنه فعل ذلك وهو تحت تسخير الله وقدرته. مع أنه عدو لله[9] وعدو دينه سخّره حتى ربّاه وعطف عليه وجعل قلبه مسلوباً في تربيته عن عادات البشر في نظرهم إلى اليتامى بعين التحقير، بل كان ينظر إليه بعين الإجلال والتعظيم لا إجلالِ معرفة وتعظيم تصديق، ولكن بطريق التسخير. ثم مع ذلك لم يؤمن به ولم يصدّقه ليُعلَم أن الهداية من الله تعالى غير معلولة. وكذلك[10] صرَف أعين الناس في الجاهلية عن أن

---

١ سورة الشورى، ٤٢/٢٣.
٢ سورة آل عمران، ٣/٣١.
٣ ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة، انظر: كنز العمال للهندي، ١/١٨٤، ٢١٤؛ وراموز الأحاديث لأحمد ضياء الدين، ص ٢٢٦؛ وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة لناصر الدين الألباني، ص ٣٣٣.
٤ سورة الضحى، ٩٣/٦.
٥ م: وتيقضا.
٦ م: النفس.
٧ ل: وكالة.
٨ م: متبوعا.
٩ م: عدو الله.
١٠ م: وكذا.

ينظروا إليه بعين الإزراء حتى سمّوه قبل الوحي «محمد الأمين». وهو[١] اسم ينبئ عن القدر والنباهة.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾:[٢] لا ندري لأي سبب نزَل، سوى أن فيه تقريبَ الله تعالى إياه.[٣] ويحتمل أنه ورد لجواب الكفرة حيث طعنوا فيه بقلة الأعوان والأنصار ثم يدّعي مع ذلك أن الله أرسله لدعوة خلقه،[٤] زعموا أن ربه ودعه وقلاه. وهذه عادة الناس إذا رأوا أحداً يشرع في أمر عظيم من غير أسباب والخصومُ يقصدونه بالإهلاك ولم يكن له[٥] إمكان المقابلة من حيث[٦] الأسباب يقولون:[٧] سلّمه إلى الهلاك. وفيه دليل على صدق رسالته لأنه لو كان مخترعاً من ذات نفسه لكان لا يخرج من غير أسباب.

فإن قيل: قد ذكرتَ قبل هذا أن الله تعالى خاطب محمداً عليه السلام بما يوجب التعظيم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾،[٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[٩] فما معنى ذكر /[١٠٠و] مخاطبته باليتيم[١٠] وأنه خارج عن حد التعظيم؟

قلنا: لا تَضادّ بينهما، فإن فيها تنبيهَ الله إياه بالتخصيص بأرفع المقامات وهي الرسالة التي بها تقام سبل الديانة وتقابُل الفراعِنة عند الإمكان، فلا بدّ من أسباب يتقوّى بها على إقامة ما هو بصدده،[١١] واليتيم لا يكون ذا أسباب ولا هو منظور إليه بعين الإجلال وكذا الفقير، فإذا[١٢] رأى نفسه خالياً عن أسباب القوة والتعظيم صفَتْ معرفته بمنن الله تعالى عليه[١٣] بإيوائه وإغنائه.[١٤] وفيه إبانة أن الله تعالى غَنيّ في نصرة دينه

---

١ في النسختين: وهم.
٢ سورة الضحى، ٩٣/٣.
٣ انظر تأويلات القرآن للماتريدي، ١٧/٢٤٢.
٤ م: الخلق.
٥ ل ـ له.
٦ ل: من غير.
٧ ل: يقال.
٨ سورة التوبة، ٩/٧٣.
٩ سورة المائدة، ٥/٦٧.
١٠ م: باليتم.
١١ م: بصدده القرب.
١٢ ل: إذا.
١٣ ل ـ عليه.
١٤ م: واعتابه.

عن أسباب يتقوّى العباد بها. ألا ترى أن النبي عليه السلام كان يستنصر بصعاليك المهاجرين والأنصار حتى كان يجمعهم ويدخل في وسطهم ويرفع يديه ويقول: «اللّهمّ انصُرْني بهؤلاء الضعفاء».[١] وكان يقول لغلبة أصحابه[٢] وفيهم النجباء المشهود لهم بالجنة: «إنما تُنصَرون بضعفائكم»[٣]؛ لأن الضعفاء لا تميل قلوبهم إلى الأسباب ولا يخطر في نفوسهم الاعتماد على من سوى الله تعالى، وسقطت[٤] أقدارهم عند أنفسهم فعَلت أقدارهم عند الله تعالى فصاروا[٥] أولياءه وأُعطُوا النصرةَ بدعائهم.[٦] ولهذا يفَضَّل[٧] الفقر على الغِنى، فإن نعم الله تعالى على الغني معدودة محضورة مسموعة،[٨] وما أُعدّ للضعفاء والمساكين غير معدودة ولا محضورة ولا مسموعة.[٩] قال النبي عليه السلام فيما يروِي عن ربه تعالى أنه يقول للفقراء: «إني لم أزْوِ عنكم الدنيا لهوانكم عليّ ولكن[١٠] لتستكملوا كرامتي /[١٠٠ظ] ولئلاّ[١١] تُكْلِمَ الدنيا قلوبَكم، فقد خَبأتُ[١٢] لكم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر».[١٣]

---

١ لم أجده بهذا اللفظ ولكن ورد في بعض كتب الحديث بألفاظ تقرب من لفظ الحديث، انظر: مسند أحمد بن حنبل ١٧٣/١؛ وصحيح البخاري، الجهاد ٧٦؛ وسنن أبي داود، الجهاد ٧٠؛ وسنن الترمذي، الجهاد ٢٤؛ وسنن النسائي، الجهاد ٤٣.

٢ م: لعده لأصحابه.

٣ لم أجده بهذا اللفظ ولكن ورد في بعض كتب الحديث ما يقرب معناه، انظر مراجع الحديث السابق.

٤ في النسختين: سقط.

٥ ل: فصار.

٦ م: النصرة عليهم بدعائهم.

٧ م: نفضل.

٨ ل: محظورة مسموعة، م: مسموعة ولا محظورة.

٩ ل: ولا محظورة ولا مسموعة، م: ولا مسموعة ولا محظورة.

١٠ م: لكن.

١١ م: لئلا.

١٢ ل: قد خبأت.

١٣ لم أجده بهذا اللفظ، ولكن ورد نص الحديث في كتب الحديث هكذا: «أعدَدتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». مسند أحمد بن حنبل ٣١٣/٢، ٣٧٠؛ وصحيح البخاري، بدء الخلق ٨؛ التوحيد ٣٥؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٣١٢.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[١] إلى آخر الآيات، ردّ لقول[٢] الكفرة: ودعه ربه وقلاه، يقول:[٣] من كان مخصوصاً من الله تعالى بهذه[٤] الكرامات فقد اختصّه الله تعالى على علم فلا يكون أهل توديعة وقلاء.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾،[٦] فالوجود عبارة عن تحصيل الشيء بعد فقده، وهو أيضاً عبارة عن إيجاده بإخراجه من العدم إلى الوجود، وهو أيضاً عبارة عن حال ذلك الموجود، كما يقال: وجدناك كذا، أي كنتَ على حال كذا فوجدناك كما كنتَ. ثم لم يجز أن يكون النبي عليه السلام زاغ عن الحق لحظة[٧] أو زاغ عن الهدى في زمان، إذ لو كان كذلك لم يستحق لتحميل[٨] الرسالة، إذ المرسلون حيث خلقوا خُلقوا مؤمنين[٩] مشروحةً[١٠] صدورهم منورةً أسرارُهم، ولكن يجوز أنه حين خلق مؤمناً غفل عن الإيمان المضمَّن فيه. فإن الله وصف بعض الأشياء بالخشية وبعضها بالطاعة وبعضها بالتسبيح فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾،[١١] وقال: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.[١٢] وقال عليه السلام: «كل شيء أطوعُ لله تعالى من ابن آدم».[١٣] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾،[١٤] وإن كانت هذه الأشياء غافلة عما ضُمِّن فيها. فلا يبعد أن يختار النبي عليه السلام الإيمان الذي ضُمِّن فيه ليس كاختيار[١٥] من سبق إيمانه

---

١ سورة الضحى، ٩٣/٦.
٢ ل: بقول.
٣ م: أبفضه يقول.
٤ م: لهذه.
٥ ل: وقلاه.
٦ سورة الضحى، ٩٣/٧.
٧ م: لحضة.
٨ ل: بتحميل.
٩ ل: حيث خلقوا مؤمنين.
١٠ ل: مشرحة.
١١ سورة الإسراء، ١٧/٤٤.
١٢ سورة فصلت، ٤١/١١؛ وقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ﴾ (سورة البقرة، ٢/٧٤).
١٣ انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠/٢٢٦؛ والفتح الكبير للنبهاني، ٣/٦٠.
١٤ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾ (سورة الحج، ٢٢/١٨).
١٥ م: كاختياره.

الكفرَ ولكنْ اختيارُ إيمان كان فيه موجوداً /[١٠١و] قبل اختياره وهو عنه غافل، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.[١] وقد يجيء بيان هذه الآية بعد هذا إن شاء الله. ودلالة صحة ذلك ما روي عن وهب بن مُنبِّه في كتاب **نور محمد** أن نوره كان يتلألأ من لدن آدم عليه السلام في جبين من كان في صلبه أو رحمها إلى أن وُلِد عليه السلام من آمنةَ بنتِ وَهْب حتى سجد الفيل لجدّه[٢] عبد المطّلب فقال الملِك لعلمائه: ما بال هذا الفيل سجد لهذا الرجل ولم يسجد لي قطّ؟ فقال العلماء: إنا وجدنا في الإنجيل أن نور خاتم الأنبياء يُرى[٣] في جبين آبائه ونحن نرى ذلك في وجه هذا الرجل، فإنما عظَّم الفيل[٤] ذلك النور المتلألئ في جبينه، فأكرمَه الملِك وخضع له. ويجوز أن يكون هذا أحد التأويلات في قوله:[٥] ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾،[٦] أي ضل وصفُك على من طلبك من علماء أهل الكتاب حتى طلبوك في كتبهم كما يُطلَب الشيء الضالّ، فهداهم الله تعالى حتى عرفوك وتيقنوا بنبوتك[٧]؛ وكما[٨] ظهر عند الراهب على طريق الشام حين خرج النبي عليه السلام مع عمّه أبي طالب[٩] فرأى الراهب السحابة التي كانت تُظلّه فآمن[١٠] به في ذلك الوقت وأمر[١١] بردّه إلى مكة كيلا[١٢] يعتديَ[١٣] عليه اليهود وقال: من بقي منهم إلى وقت خروجك فآمن بك سعِد في الدارين ومن جحد بك خسر الدنيا والآخرة.[١٤] قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ

---

١ سورة الشورى، ٥٢/٤٢.
٢ م: لجدة.
٣ م - يرى.
٤ م - الفيل.
٥ ل - في قوله.
٦ سورة الضحى، ٧/٩٣.
٧ م: بنعوتك.
٨ ل: ولما.
٩ م: أنى طالب.
١٠ م: فامر.
١١ م: فأمر.
١٢ م: لئلا.
١٣ في النسختين: يستعدي.
١٤ انظر: سنن الترمذي، المناقب ٣؛ والطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢٠/١؛ والسيرة لابن هشام، ١٩٢/١.

﴿أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.[١]

/[١٠١ظ] وقيل فيه:[٢] ووجدك[٣] في قوم ضُلّال[٤] فهداك طريق الحق[٥] حتى تَثْبت عليه[٦] ولم تختلط في أفعالهم. وقيل: ووجدك ضالاً للشريعة فبيَّن[٧] لك وجهها ومقاديرها وأوقاتها حتى اهتديت إليها وهديت غيرك. وقيل: ضالاً عن طريق مكة فهداك إلى مكة إما بإلهام منه أو بإرسال ملَك فيكون فيه بيان المنة: أي[٨] ما خلّيتُك تَضِلّ في طريق مكة - وخطرُه سهل هيِّن - فكيف لا أعصِمُك عن الكفر وأُخلِّيك[٩] تضل عن معرفة ربك. وقيل: ووجدك ضالاً في معرفة حالك، أي مغلوباً في مقامك فلا تدري ماذا[١٠] يَهْجُمك حتى كِدتَ ترمي نفسَك عن رأس[١١] الجبل حتى[١٢] تبدّى لك جبريل وكنتَ تقول: «إني لأرى الأبعَد شاعراً أو مجنوناً»،[١٣] وقالت لك خديجة: كلاّ لن يخزيك[١٤] الله أبداً،[١٥] فهداك الله، أي عرّفك أنك نبي مرسل. وقيل: ووجدك ضالاً في طريق محبتك.

قال الشيخ: لكن[١٦] هذا بعيد أن تُوصَف المحبة بالضلال، ولأن المحبة لو كانت ضلالاً لكانت الهداية[١٧] ضد المحبة، والضلال في طريق المحبة كيف يكون؟ فأما أن يكون[١٨] صادقاً في محبته أو لم يكن، فإن كان صادقاً لم يَضِلَّ عن طريق المحبة، وإن كان كاذباً لم يكن محباً.

---

١ سورة البقرة، ١٤٦/٢.
٢ م - فيه.
٣ م: فوجدك.
٤ م: ضلالا.
٥ م: فهذا كطريق الحق.
٦ ل - عليه.
٧ م: فيبين.
٨ م: إني.
٩ ل: ولأخليك.
١٠ م: ما دى.
١١ م: من رأس.
١٢ م: حين.
١٣ انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٩٥/١.
١٤ م: لن تخزيك.
١٥ قارن بما ورد في: مسند أحمد بن حنبل ٢٢٤/٦؛ وصحيح البخاري، بدء الوحي، الحديث) ٣؛ والتعبير ١؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٥٢ - ٢٥٤.
١٦ م - لكن.
١٧ ل: المحبة.
١٨ ل: أما يكون.

وقيل: ووجدك ضالاً أي معدوماً. والمعدوم ليس بشيء فيُوجدَ، فالضلال عبارة عن العدم؛ فأوجده وأكرمه وقدّمه على سائر الأرواح. فقد روي في الأخبار أن أول ما خلق الله تعالى من الأرواح روح محمد عليه السلام ثم خلق أرواح الأنبياء، فمن سلّمَ[1] عليه صار نبياً مرسلاً. ثم خلق أرواح أمته، ثم خلق أرواح سائر الأمم. فكل روح /[١٠٢و] سلّم على أرواح أمته آمنوا بنبيه.[2] وهذا الحديث وإن كان من جنس الآحاد لكنه يليق بشرفه ورفعته، [و]هو موافق لقوله عليه السلام: «نحن الآخرون السابقون بَيدَ أنهم أوتوا الكتابَ من قبلنا[3] وأوتيناه[4] من بعدهم».[5] واتّفق[6] أهل السنة أن الأنبياء كانوا معصومين عن الكبائر فضلاً عن الكفر. والآية وردت في تضاعيف المنن فلا يُصرَف تأويلها إلى ما فيه إسقاط منزلته وهو الضلال الذي هو عبارة عن الكفر.

قال الشيخ أبو منصور: هذا وَحْش من القول فاسد أن يُنسَب إليه حقيقة الضلال.[7] وقيل: ووجدك ضالاً على أصل الخلقة، فإن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره فلولا ذلك النور لم يكن مهتدياً بذاته. فمنَّ عليه بأن لم يتركه في أصل الخلقة جاهلاً بل علّمه وجوه الحق وهداه إليها. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾.[8] وقال عليه السلام: «واللهِ لولا الله ما اهتدينا».[9] وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾،[10] ليس أنه كان على تلك الصفة فوجده كذلك كوُجْدان

---

١ م: فمن يسلم.
٢ لم أجده فيما لديّ من المراجع.
٣ ل: من قبل.
٤ ل: وأوتينا.
٥ انظر: صحيح البخاري، الجمعة ١، ١٢؛ الأنبياء ٥٤؛ وصحيح مسلم، الجمعة ١٩ - ٢١؛ وسنن النسائي، الجمعة ١.
٦ م: وانفق.
٧ انظر: تأويلات القرآن، ٢٤٨/١٧.
٨ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ (سورة النساء، ١١٣/٤).
٩ مسند أحمد بن حنبل ٤٣١/٣؛ وصحيح البخاري، الجهاد والسير ٣٤؛ والمغازي ٢٩، ٣٨؛ والأدب ٩٠؛ وصحيح مسلم، الجهاد والسير ١٢٣ - ١٢٥.
١٠ سورة الضحى، ٧/٩٣.

المخلوقين بعضِهم لبعض. لكن معناه أنه أوجَدَه على تلك الصفة فوجده كذلك. نظيره قوله:[١] ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[٢] يعني أوجد الصبر فيه حتى وجده صابراً.

قال الشيخ: ونعلم يقيناً أنه لما علِم في سابق تقديره أنه يجعل محمداً رحمة للعالمين لم يجز أن يكون موصوفاً بضلال هو جحود وإنكار لكنه[٣] مصروف إلى بعض الوجوه الذي ذكرناه، /[١٠٢ظ] أو إلى سر كان الله أعلم به فخاطبه بخطابٍ وقف عليه رسوله فعرف بذلك منة الله تعالى عليه.

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.[٤] فالعائل[٥] قد يكون اسماً للفقير الذي هو في عيال غيره، وقد يكون اسماً لمن يعول غيرَه، كما قال عليه السلام: «اِبْدأ بنفسك ثم بمن تعول»[٦] أي تُمسِكه في عِيالك ونفقتك. فإن كان[٧] المراد هو الفقيرَ فهو افتقاره في مقام عبوديّته. وقوله: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ يعني أغناك بالاعتماد عليه، كما قال بعض المشايخ: اللهم أغنِنا بالافتقار إليك ولا تُفقِرنا بالاستغناء عنك، أي كنتَ في حال لولا استغناؤك بي لاحْتَجتَ أن تكون في عيال غيرك. وقد قيل: أغناك بمال خديجة فارتفعتَ بها من غير مضايقة منها ومَنٍّ وأذًى منها. وفيه دليل أنه يجوز للمرء أن يتناول من مال زوجته إذا علم طِيب نفسها. والوجه الآخر كان الخلق في عيالك من حيث الدعوةُ وتبليغ الرسالة والقيامُ بحسن المعاملة

---

١ م ـ قوله.
٢ سورة ص، ٤٤/٣٨.
٣ م: ليكنه.
٤ سورة الضحى، ٨/٩٣.
٥ ل: والعائل.
٦ هنا جمعٌ بين حديثين، أحدهما «اِبْدَأْ بنفسك..»، انظر: مسند أحمد بن حنبل ٤/٢؛ وصحيح مسلم، الزكاة ٤١؛ وسنن النسائي، الزكاة ٦٠؛ البيوع ٨٤. والثاني «خير الصدقة ما كان على ظهر غِنًى، وابْدَأ بمن تعول»، انظر: صحيح البخاري، الزكاة ١٨؛ النفقات ٢؛ وسنن الترمذي، الزكاة ٣٨؛ الزهد ٣٢؛ وسنن النسائي، الزكاة ٥٣، ٦٠.
٧ م: وإن كان.

معهم وتحمّل أثقالهم والمحاربة مع المخالفين[1] والمجاهدة مع المنافقين والقيام بشفاعتهم[2] يوم القيامة. وهذه الأفعال دون طاقة البشر، فأغناك: طوّقك وأعطاك قوة قدرْتَ بها على إقامة هذه الأمور. وعلى هذا الوجه العائلُ من يُمسِك العيال. وما قيل: «إن صاحب العيال لا يُفلح»، يعني إذا توهّم أنه يُمسكهم بكفايته وكَّل الله العيال إليه فيُضيّع أوقاته، أو رأى كفايتهم عن نفسه فقد ظن أنه هو الرزاق لهم فلا يُفلح لهذا. فأما لو رأى نفسه قائماً عليهم ورأى الرزق والكفاية /[١٠٣و] من الله تعالى فهو يفلح.[3] فمنّ الله تعالى على نبيّه بأن قوّاه على تبليغ الرسالة وأكرمه بكرامات سنيّة ومراتبَ رفيعةٍ وضمَّن الرحمة والشفَقَة في قلبه حتى كمُلت سخاوته[4] وتم تواضعه وكرمَ خلُقه. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾،[5] وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.[6] وبلَّغه درجة الشفاعة وخصه بالمقام المحمود، حتى أن كل نبي وولي يرضى بنجاته عند معاينة تلك الأهوال والشدائد وهو شفيع لأمته ويقول: «أمتي أمتي». وعلَتْ همته حتى لم يلتفت إلى غير الله حيث خُيِّر بين المُلك والمسكنة والعبودية، فقال: «لا يا ربِّ بل أَجُوع يومين وأشبَع يوما»،[7] فمدحه الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.[8]

وقوله[9] ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.[10] هذا تأديب من الله ليتأدّب به، ويجوز أن يكون ذلك[11] خُلُقاً له وطبعاً لكن يأمره الله[12] تعالى بذلك حتى يكون إتيانه بمقتضى أمر الله دون مقتضى طبعه وخُلُقه. ومعنى قوله: ﴿فَلَا

---

١ م: مع الخالفين. ٢ ل: لشفاعتهم.
٣ م ـ فأما لو رأى نفسه قائما عليهم ورأى الرزق والكفاية من الله تعالى فهو يفلح.
٤ م: سخاوية. ٥ سورة القلم، ٤/٦٨.
٦ سورة آل عمران، ١٥٩/٣.
٧ مسند أحمد بن حنبل ٢٥٤/٥؛ وسنن الترمذي، الزهد ٣٥.
٨ سورة النجم، ١٧/٥٣. ٩ م: قوله.
١٠ سورة الضحى، ٩/٩٣. ١١ ل ـ ذلك.
١٢ م ـ الله.

نَقۡهَرۡ﴾، أي لا تظلِم ولا تمنع حقه فإنك كنتَ يتيماً وعرفتَ انكسار قلب اليتيم. وفيه إشارة إلى أن حالة اليُتْم[١] محمودة فإن بها يُعْرَف ضعف البشرية وصدق الافتقار. ونهي الله تعالى أفضَل الخَلق[٢] عن البخس بحقه وأمره بحسن العِشرة معه،[٣] حتى كان عليه السلام إذا رأى[٤] يتيماً آواه أي ضمَّه إلى صدره ورغَّب أمته في ذلك فقال: «من آوى يتيما له أو لغيره فمسح[٥] على رأسه كانت له بكل شعرة مرّت[٦] عليها يده حسنة وأنه يدخل الجنة بغير حساب[٧] /[١٠٣ظ] معي كهاتين وأشار إلى أصبعيه الوسطى والسبّابة».[٨] بيَّن الله بهذا أن حالة اليتم[٩] التي[١٠] كان للنبي عليه السلام لم تكن مذمومة. وقال النبي عليه السلام للذي وجَد في قلبه قساوة: «وإن[١١] يأكل مع اليتيم ويَمسَح برأسه».[١٢]

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾،[١٣] فيه إيجاب مراعاة حقوق السائلين كما قال:[١٤] ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.[١٥] روى الشيخ أبو منصور رحمه الله في **تأويلات**[١٦] **القرآن** عن النبي عليه السلام أنه قال: «إذا أتاكم السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يَفرغ منها ثم رُدّوها عليه برفق ولين: إما ببذلٍ

---

١ م: اليتيم.
٢ ل ـ أفضل الخلق.
٣ ل: معهم.
٤ م: أرى.
٥ ل: بغيره ومسح.
٦ ل: ومرت.
٧ م ـ بغير حساب.
٨ ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة، انظر: مسند أحمد بن حنبل ٢٥٠/٥؛ والمطالب العالية لابن حجر، ٣٨٣/٢، ٣٨٥؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٠/٨، ١٦٢؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٢٦٩/٢.
٩ م: اليتيم.
١٠ في النسختين: الذي.
١١ م: إن.
١٢ نصّ الحديث كذا: إن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «إن أردتَ تُلين قلبك فأطعِم المسكين وامسح رأس اليتيم» .انظر: مسند أحمد بن حنبل ٢٦٣/٢، ٣٨٧؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٠/٨؛ وكنز العمال للهندي، ١٧٢/٣، ١٧٦.
١٣ سورة الضحى، ١٠/٩٣.
١٤ ل ـ كما قال.
١٥ سورة الذاريات، ١٩/٥١.
١٦ في النسختين: تأويل.

يسير أو بردٌ جميل،[١] فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جنّ يرى كيف صنيعكم[٢] فيما خوَّلكم الله تعالى.»[٣] التخويل الإعطاء، أي أعطاكم الله تعالى.[٤] قال الشيخ:[٥] نبهه على شدة الفقر والحاجة فإنك قد مارستها فلا تنهر السائل، لأنه يقاس شدة الحاجة. فأما أن يسأل فوق حاجته فذلك[٦] مكروه من السائل. وأما[٧] المعطي لا ينبغي أن يستقصي أنه محتاج أو غير محتاج. قال عليه السلام: «للسائل حق وإن جاء على فرَس».[٨] وروي في الأخبار أن السائل ههنا[٩] طالب العلم، فنهى أن ينهَر سائل العلم، فإنه إن علم جوابه[١٠] لا يحلّ له كتمانه. قال عليه السلام: «من كتم علماً آتاه الله تعالى أُلجِم يوم القيامة بلِجام من النار».[١١] وإن لم يعلم جوابه يجب أن يوافق السائل في سؤاله [و]أن لا ينهره.[١٢]

قال الشيخ: وإن كان السائل متعنِّتاً يجوز أن ينهره، كما روي عن عمر رضي الله عنه أن رجلاً سأله عن قول الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾[١٣] فعلاه بالدِّرّة لما علم أنه متعنِّت.[١٤] وكما قالت عائشة للمرأة التي سألت: /[١٠٤و] ما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحَرورِيّة أنتِ؟ كذلك أُمرنا.[١٥] فحق

---

١ ل: أو بر جميل.

٢ ل: صنيعتكم.

٣ انظر: تأويلات القرآن ٢٥٠/١٧؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣١٠/٣.

٤ ل ـ التخويل الإعطاء أي أعطاكم الله تعالى.

٥ م + أبو منصور.

٦ م: فذاك.

٧ في النسختين: فأما.

٨ مسند أحمد بن حنبل ٢٠١/١؛ وسنن أبي داود، الزكاة ٣٣؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٢١٢/٢.

٩ ل: هنا.

١٠ ل ـ جوابه.

١١ مسند أحمد بن حنبل ٢٦٣/٢، ٣٠٥، ٣٤٤؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة ٢٤؛ وسنن أبي داود، العلم ٩؛ وسنن الترمذي، العلم ٣.

١٢ ل: أن لا ينهر.

١٣ سورة الذاريات، ١/٥١.

١٤ انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/٧.

١٥ مسند أحمد بن حنبل ٣٢/٦، ٩٤، ١٢٠؛ وصحيح البخاري، الحيض ٢٠؛ وصحيح مسلم، الحيض ٦٧ ـ ٦٩.

طالب الحاجة أن ينظر إلى أن الله[١] تعالى وضع الخير عند هذا الرجل فيطلب منه، فإن أعطى شكَر الله تعالى ودعا للمُعطي وإن لم يصبها لم يغضَب على المُمسك ورجع إلى أن الله تعالى لم يُقدِّر قضاء حاجته منه. وحق المُعطي أن يرجع إلى نفسه برؤية الشُّحّ[٢] منها فيَهتَمّ ويتعوَّذ بالله منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.[٣] فنعم الله تعالى كانت غير محصاة عند رسول الله عليه السلام، فكيف[٤] وقد قال الله تعالى في حق عامة الخلق: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.[٥] لكنه أمره بنشرها ما أمكن ليعرفوا نعم الله تعالى عليه وليستعظموا[٦] قدره في رسالته لئلّا يتخطى أحد بالإزراء به فيستوجب المقت والخسارَ، ويتّبعوه بالتصديق والموافقة[٧] فيستحقون العِزّ والمحبة. قال الله تعالى:[٨] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾،[٩] وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[١٠] ويحتمل أن يكون المراد النعم التي اختصّه الله تعالى بها[١١] من سائر الأنبياء، كما قال [عليه السلام]: «فُضِّلتُ على من كان قبلي بستّ خصال».[١٢] ولأن[١٣] العبد مأمور بالشكر، قال الله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.[١٤] والشكر هو النظر إلى المنعم في غناه وعظمته

---

١ م: أن ينظر أن الله.
٢ ل: القبح.
٣ سورة الضحى، ١١/٩٣.
٤ م: كيف.
٥ سورة إبراهيم، ٣٤/١٤؛ وسورة النحل، ١٨/١٦.
٦ م: ويستعظموا.
٧ ل: والموافق.
٨ ل: قال تعالى.
٩ سورة آل عمران، ٣١/٣.
١٠ سورة المنافقون، ٨/٦٣.
١١ م - بها.
١٢ نصّ الحديث هكذا: «فُضِّلتُ على الأنبياء بستّ. قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون. مثلي ومثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كمثل رجل بنى قصراً فأكمل بناءه وأحسن بنيانه إلا موضع لبنة. فنظر الناس إلى القصر فقالوا: ما أحسن بنيان هذا القصر لو تمت هذه اللبنة. ألا فكنت أنا اللبنة ألا فكنت أنا اللبنة». انظر: مسند أحمد بن حنبل ٤١٢/٢؛ وصحيح مسلم، المساجد، ٥؛ وسنن الترمذي، السير ٥.
١٣ م: ولكن.
١٤ سورة النحل، ١١٤/١٦.

ورحمته وكرمه وجوده[١] وإحسانه. والشكر[٢] في اللغة عبارة عن الإظهار، فالشكر باللسان هو التحدّث بالنعم. قال عليه السلام: «التحدّث بالنعم شكر».[٣] والحمد والثناء على[٤] الله تعالى /[١٠٤ظ] أيضاً شكر باللسان لقوله عليه السلام: «الحمد لله شكر على كل نعمة».[٥] والشكر بالأعضاء العمل الصالح والامتناع عن المعاصي كيلا يجعل نعم الله آلة المعصية. وبالقلب الرضاء والقناعة ورؤية النعمة[٦] وأن لا ينسى المنعم لشغله بالنعمة، وفي ثاني الحال[٧] مراعاة الحقوق ووضعها في مواضعها مستقصراً نفسه في الشكر، كما قيل: العجز عن الشكر شكر. وقيل أيضاً: إن الشكر منتهاه الحيرة. وقال الحسين بن علي رضي الله عنهما:[٨] إلهي كيف أشكُر نعمتك وشكري نعمة منك عليّ يلزمني شكرها: فإني إذا قلتُ: «الحمد لله» كان التوفيق على هذا القول نعمةً منك فأبقى أبدَ[٩] الدهر في شكر نعمة واحدة. ونِعَمُ الله تعالى على عباده أكثر من أن تحصى، ولكن أفضلها الإيمان والقرآن. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[١٠]؛ قيل: فضله الإيمان ورحمته القرآن؛ فصاحب[١١] الإيمان أهل لكل إحسان، وصاحب القرآن مكرَّم بما أُعطي من البرهان، كما قال عليه السلام: «من استظهر القرآن فكأنما أُدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى[١٢] إليه».[١٣] وقد يكون إظهار النعم

---

١ ل: وجوده وكرمه.
٢ ل: فالشكر.
٣ مسند أحمد بن حنبل ٢٧٨/٤، ٣٧٥؛ وتفسير ابن كثير، ٥٢٣/٤؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٢٣٠/١.
٤ م - على.
٥ ورد هذا الحديث في الجامع الصغير للسيوطي بهذا اللفظ: «الحمد رأس الشكر، ما شكَر الله عبد لا يحمده»، ٢٦٠/١؛ وانظر أيضاً: كنز العمال للهندي، ٢٥٧/٣.
٦ م: المنة.
٧ م + أن بعد ما أنعم الله عليه.
٨ هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، السبط الشهيد، ابن فاطمة الزهراء. ولد في المدينة، ونشأ في بيت النبوة. قتله سنان بن أنس النخعي في كربلاء سنة ٦١هـ/٦٨٠م. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٦٤/٢.
٩ م: آخر.
١٠ سورة يونس ١٠، ٥٨.
١١ ل: وصاحب.
١٢ ل: لم يوح.
١٣ ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة، انظر: مسند أحمد بن حنبل ١٤٨/١؛ وسنن=

بإخفاء الفاقة وستر الحاجة، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.[١] ولهذا قال أهل الحقيقة: إن هاجت في نفسه شهوة ولا يجدها إلا عند غيره فالأصوب أن يماكس[٢] نفسه ويُرضيها ويُقنعها. وقال بعض الحكماء: إذا لم يكن بالإنسان حِدَّة فمدافعة الشهوة أيسر من مدافعة الغريم. وإنما يتقوى على ذلك أن ينظر أن النعم[٣] التي يشترك فيها الكفار /[١٠٥و] مع المؤمنين تكون أنقص من النعم التي يختصّ بها المؤمنون. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ إلى قوله ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.[٤] فمن أصابته النعمة[٥] بطريق العدل حُرم نعيمَ الآخرة، ومن كانت[٦] نعمته[٧] بطريق الفضل يتوسل بها إلى نعيم الآخرة، فهو إذا رأى نفسه ذا حظّ من النعم التي يختصّ بها أهل الفضل لا يجزَعُ بحرمان النعم التي يشترك فيها[٨] أهل العدل مع أهل الفضل. وذلك من نحو ما ذكرنا من الإيمان والقرآن.[٩] وروي أن النبي عليه السلام سمع رجلاً يقول: «الحمد لله على الإسلام»، فقال: «أَعْظِمْ بها نعمةً»، وسمع آخر يقول: «الحمد لله الذي جعلني من أمة محمد عليه السلام»، فقال: «كفى بها من نعمة».[١٠] وحُكي أن رجلا ضل حماره فحزِن عليه فرأى مجوسيًّا يضحك، فقال: يا نفس إن هذا فقَدَ نعمة[١١] الإسلام وهو[١٢]

= الترمذي، فضائل القرآن ١٣؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٥٩/٧ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن رافع وهو متروك).

١ سورة البقرة، ٢٧٣/٢.

٢ ماكس نفسه: نابذها وحاجّها.

٣ م: أن المنعم.

٤ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٢/٧).

٥ م: النعم.

٦ ل: من كانت.

٧ م: نعمه.

٨ ل - فيها.

٩ ل: في القرآن.

١٠ لم أجده فيما لديّ من المراجع، ولكن ورد في كنز العمال للهندي ٢٥٥/٣ بلفظ يقرب من لفظ الحديث هكذا: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فقال: الحمد لله إلا أدّى شكرها، فإن قالها ثانية جدَّد الله له ثوابها، فإن قالها ثالثة غفر الله له ذنوبه».

١١ ل: نعمة نعمة.

١٢ م - هو.

مع ذلك يضحك، فأنت تحزن بفقد[١] حمار مع بقاء نعمة الإسلام.

قال الشيخ ﷺ: وفي باطن العبد مقامات ضُمِّن في كل مقام من النعم ما يُستأدَى شكرها. فأول مقاماته الصدر وفيه الإسلام، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ [فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ]﴾.[٢] وشكره الانقياد لله في حكمه وأمره ونهيه. وداخله القلب وهو[٣] محلّ الإيمان. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.[٤] والإيمان هو التصديق لله في جميع[٥] ما أخبر به. وشكره أن لا يعتمد على أحد من خلقه في النفع والضرّ، والخوف والرجاء. وما وراء القلب الفؤاد وهو داخل القلب وفيه المعرفة بصفات الله تعالى/ .[١٠٥ظ] وشكرها مراعاة أحواله حتى لا يميل إلى ما يكدِّر عليه[٦] صَفوَ معرفته. وداخل الفؤاد السر وفيه التوحيد. وشكره تصفية سره عن شوائب الشك اعتقاداً واعتماداً، لأن[٧] اعتقاده يزيل التوحيد والاعتماد يُميل التوحيد، ومن تهاوَن بالميل خيف عليه السقوط. ومن وراء السر الخفيُّ، وقد يُعبّر به عن الروح، وفيه نور الهدى بلا علة ولا سبب. وشكره شيئان: الفرح به والخوف عن زواله. وفي مجموع هذه المقامات اجتماع أصل الدين. ولا تَغايُرَ بين هذه الأوصاف فإنه يتّصل بعضها ببعض؛ فإن من استنار[٨] بنور الهدى استضاء سرُّه بنور التوحيد، ومن استضاء سره بنور التوحيد تلألأ فؤاده بنور المعرفة، وإذا تلألأ فؤاده[٩] بنور المعرفة تزيَّن قلبه بزينة الإيمان. وإذا تزين القلب بزينة الإيمان زكا الصدرُ وانشرح بالإسلام. فأصل هذه المقامات ذلك النور الذي ظهر في الخفي. قال الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.[١٠] وقولنا: «لا تَغايُرَ بين هذه الأوصاف»، فإن المهديّ هو الموحِّد، والموحِّد هو العارف، والعارف هو المؤمن، والمؤمن هو المسلم لأن من امتنع عن

---

١ م: يفقد.

٢ سورة الزمر، ٢٢/٣٩.

٣ ل: فهو.

٤ سورة الحجرات، ١٤/٤٩.

٥ م: بجميع.

٦ م - عليه.

٧ م: إلا أن.

٨ م + خفيه.

٩ ل - فؤاده.

١٠ سورة الزمر، ٢٢/٣٩.

الإيمان في الإسلام لم يصح إسلامه. وإذا[١] اختلّت معرفته لم يصح إيمانه إلى آخر المقامات. والله الموفق.

قال الشيخ ﷺ: وكيف يحاط بجميع النعم وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.[٢] ولكن حَمْلُها يشتمل[٣] على الظاهرة والباطنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.[٤] ومن النعم الدينية العلم والطاعات والمعاملاتُ /[١٠٦و] العادلة بالأخلاق[٥] الحسنة واستدامة الشكر باللسان والقناعة بالمقسوم، والرضاءُ بالمقدور وميل الباطن إلى الآخرة والاستعداد للموت والتأهّب لنزوله، وترك المماكسة مع خلق الله تعالى في حظوظه وإيثارُ ما عند الله على ما عنده. ومن النعم الدنيويّة سلامة قلبه عن الخَبَل[٦] والعتاهة والجنون والسخافة[٧] والبلهِ، وسلامةُ البدن عن الآفات من الزمانة والأسقام والأوجاع والأمراض المُقعِدة والعلل المُضجِرة، ووجودُ الأمن في مسكنه من غير خصم يخرجه إلى حبس يطالبه بحقه أو حدّ يقام عليه أو قِلَّةٍ تخرجه لطلب قُوتِه، كما قال عليه السلام: «من أصبح آمناً في سِرْبه معافاً في بدنه وعنده[٨] قُوتُ يومِه[٩] فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها».[١٠] وقيل: هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.[١١]

سمعتُ الأستاذ أبا الحسن[١٢] الرُسْتُفَغْنِي يقول: المُلْك[١٣] المذكور في

---

١ م: فإذا.
٢ سورة إبراهيم، ٣٤/١٤؛ وسورة النحل، ١٨/١٦.
٣ م: حملتها تشتمل.
٤ سورة لقمان، ٢٠/٣١.
٥ ل: العادلة له بالأخلاق.
٦ ل: عن الخيل.
٧ ل: والسخافية.
٨ ل: وعند.
٩ م: يوم.
١٠ سنن ابن ماجه، الزهد ٩؛ وسنن الترمذي، الزهد ٣٤؛ وتفسير ابن كثير، ٣٧/٢؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٢٨١/٢؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٢٢٨/٢.
١١ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (سورة المائدة، ٢٠/٥).
١٢ م: أبي الحسن.
١٣ ل ـ الملك.

الآية أن يكون جالساً في بيته يفتح بابه متى شاء ولا يخرج من بيته لحق أو لحدّ، وعنده قوت يومه لا يحتاج إلى غيره، وعنده ما يستأنس به على وَفْق همّته من قراءة القرآن أو درس العلم أو وِرْدِ الطاعة أو حلاوة الذكر أو الاشتغالِ بلذّة لا مأثم فيها، فهو تحت منة من أُوتي مُلكاً في الدنيا. فالتحدث بالنعم على هذه المعاني شكر، فأما الترفّع[١] والمباهات والصلَف فهي مذمومة. قال النبي[٢] عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً[٣] استعفافاً عن المسألة وسعياً[٤] على عياله وتعطّفاً على جاره جاء يوم القيامة ووجهه[٥] كالقمر ليلة البدر. ومن طلب الدنيا حلالاً مكاثِراً مفاخِراً /[١٠٦ظ] مباهِياً لَقِي الله تعالى وهو عليه غضبان».[٦] ولطائف منن الله تعالى على عبده قد يجري في المحابّ الظاهرة والباطنة، وقد يجري في المكاره الظاهرة والباطنة. فإنها إذا أصابت المؤمن إما أن كانت عقوبة للجاني وإما أن تكون كفّارة لصاحب الغفلة وإما أن تكون درجة لصاحب البصيرة، وأيًّا ما كان فهو رحمة الله على عبده حيث نجّاه به[٧] عن عقوبة الآخرة.

قال الشيخ: وقد تكلّم الناس في الفرق بين الآلاء والنَّعْماء. قال الشيخ الحكيم: النعماء هي النوافع والآلاء هي الدوافع. وهذا لا يطّرِد، فإن الله تعالى ذكر في سورة الرحمن كثيراً من النوافع ثم ذكر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقال جنيد بن محمد:[٨] الآلاء قالَب النعماء، وقد يجوز أن يكون كل واحد منهما يُذكَر مكان الآخر وهو الأوفق. وفيما ذكر من القسَم بضوء النهار وظلمة الليل إشارة إلى تقلّب أحوال النبي عليه السلام تحت مجاري قضائه

---

١ م: فأما للترفع.
٢ ل ـ النبي.
٣ ل ـ حلالا.
٤ ل: وسعة.
٥ ل: وجهه.
٦ انظر: راموز الأحاديث لأحمد ضياء الدين، ص ٤٢٨؛ وتذكرة الموضوعات للفتّني، ص ١٧٤ قال الفتّني: (هذا حديث ضعيف).
٧ م ـ به.
٨ هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزّاز، صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري. توفي سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م. انظر: الأعلام للزركلي، ٢/١٣٧.

وقدره، فإنه يتبيَّن ضَوء النهار من ظلمة الليل في لحظة وكذا[١] ظلمة الليل من ضوء النهار. فالظلمة حالة القبض والضوء حالة البسط. وفيه إشارة إلى أنه ـ وإن جلّ قدره ـ فهو بشر مخلوق تحت تصرّف[٢] الله وأنه مع ذلك[٣] لا يختلف باختلاف الأحوال فيصح معرفة المؤمنين بحال النبي عليه السلام. قال الشيخ أبو القاسم: من رأى قدره فوق النعم فليس بشاكر. قال الشيخ: معناه أنه ينظر إلى المُنعم فيستعظم النعمة ويرى ذلك فضلاً من الله تعالى. والله الموفق.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

١ م: وكذلك.
٢ م: تصريف.
٣ ل ـ مع ذلك.

[تفسير بعض آيات العتاب]

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.[١] كان رسول الله ﷺ يدعو رؤساء الكفرة إلى الإسلام إذ دخل عليه[٢] عبد الله /[١٠٧و] بنُ أمّ مكتوم وهو أعمى لا يُبصر مَن عند رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علِّمْني مما علَّمك الله. فعبس رسولُ الله ﷺ وجهُه وأعرض عنه لاستمالة قلوب أولئك القوم إلى الإسلام، وتفكر أن الأعمى لا يرى العبُوس والإعراض فلا يتأذّى به، فظنّ أن الأفضل هذا. ولكن كان الأفضل عند الله أن يُقبل على الأعمى[٣] بوجهه ولا يبالي بامتناع القوم. فعوتب رسول الله ﷺ بترك ما هو[٤] الأفضل عند الله لا بارتكاب المحظور.

وقال الشيخ أبو منصور: إن الله تعالى خاطب رسوله بخطاب المغايبة[٥] ولو شافهَه لعله لا يقوم لهذا العتاب. وقيل: إنه بيّن شرفه[٦] وقدره في ضمن هذا العتاب، فإن العظماء يخاطَبون فيما بين الخلق بلفظة الجماعة، وفي الخطاب بلفظة[٧] المغايبة التعظيم أكثر وأبلغ. وفيه إبانة أنه وإن وُصِف بالخُلُق العظيم ولكن مع ذلك يَضيق في معاملة الخلق حتى تحسّر على كفرهم وتلهّف على إعراضهم عن الإيمان، كما قال الله

---

١ سورة عبس، ٨٠/١.
٢ ل ـ عليه.
٣ م: إلى الأعمى.
٤ ل ـ هو.
٥ م: المعاتبة.
٦ م: بشرفه.
٧ م: بلفظ.

تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾،[١] وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾،[٢] وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.[٣] ففي عتابه بالعبُوس والتولّي عن الأعمى تقريبٌ له وبيانُ أنك لِوُلُوعِكَ في إجابة الرؤساء وإعلاء الكلمة تحرِص على إيمانهم وتُعرِض عن الأعمى استمالة لقلوبهم؛ فإنه ربما ينسبونه[٤] أولئك القوم على وفق عاداتهم بالتسفّل في الهمة بمخالطة الأرذلين،[٥] كما قال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.[٦] /[١٠٧ظ] ولكن الله تعالى في غناه يهدي من يشاء في وقت هُداه والعجل ليس من صفته بل هو من صفة البشر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.[٧] فأنت في هذا الجدّ والحرص ممدوح ولكنك في صفة الضعف لا تعرف نهاية الحِكَم الربانيّة سوى ما يُلقَى عليك[٨] من الوحي. وفيه تنبيه أنْ لا يُقاس أمر الله تعالى بأمر ملوك الدنيا حيث يُختارون من الأغنياء والأشراف دون الفقراء والضعفاء والأراذل[٩] من الناس، وذلك لجهلهم وحاجتهم وضعفهم. والله تعالى عالم بعباده وحوائجهم، قادر على قضائها، فيختار من شاء فقيرا كان أو غنياً فيعرفون أن المختار عند الله هو الدين الحق لا ما يتفاخرون[١٠] من الزهرة والزينة. وقد نهى الله تعالى نبيه في كثير من الآي عن النظر إلى زينة الدنيا فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾،[١١] ونظائره كثيرة. والله تعالى أمر الكل باتباع رسوله فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾،[١٢] وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.[١٣]

---

١ سورة الشعراء، ٣/٢٦.
٢ سورة فاطر، ٨/٣٥.
٣ سورة النحل، ١٢٧/١٦.
٤ م: ينسب.
٥ ل: الأذلين.
٦ في النسختين: قالوا أنؤمن. سورة الشعراء، ١١١/٢٦.
٧ سورة الإسراء، ١١/١٧.
٨ م: إليك.
٩ ل: الأرذال.
١٠ م: لا يتفاخرون.
١١ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (سورة طه، ١٣١/٢٠).
١٢ سورة الأحزاب، ٢١/٣٣.
١٣ سورة آل عمران، ٣١/٣.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.[١] ليس فيه منعه عن تبليغ الرسالة إلى المُعرِضين ولكن فيه تطييب[٢] نفس رسول الله عليه السلام وتنبيه له أن من أعرض عن الإجابة فهو المستوجب لنزول العذاب. وكان يثقل عليه إعراضهم لشفقته عليهم فخفَّف الله تعالى عليه ذلك. وليس فيه تخفيف رضاء بالكفر، ولكن[٣] تخفيفُ نظرٍ إلى قسمة الله تعالى مع القيام بالدعوة مراعاةً للأمر.

قال الشيخ أبو منصور: روي أنه لما نزل قوله /[١٠٨و] ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[٤] تغيَّر لون رسول الله ﷺ كأنما أُسِفّ[٥] بالرماد ينتظر ماذا يحكم الله[٦] فيه، حتى نزل قوله ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[٧] فسُرّ بذلك لما أنه خاف أن يُعاقِبه الله تعالى بأشدَّ من ذلك.[٨] وفيه دليل أنه عليه السلام يعمل بالاجتهاد ويقول[٩] به، فإن كان[١٠] صواباً عند الله تركه عليه وقرره، وإن كان غيره أصوب أَوحي إليه. وفيه دليل على صحة نبوته، فإن الكفار كانوا يدّعون عليه الافتراء من نفسه[١١] نحو قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.[١٢] فهو لمَا عوتب بهذا القَدْرِ كلَّ هذا العتاب كيف يُترَكُ عند الافتراء على الله تعالى. ولأنه لو[١٣] كان مفترياً أيُّ حاجة له إلى افتراء مثل هذا العتاب الذي يكتمه الإنسان لو خُلِّي[١٤] ورأيَه. فلما أظهره عليه السلام مع شدّته عليه[١٥] دلّ أنه يقول ما يقول[١٦] عن وحي الله وأمره.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.[١٧] خاطبه في حال العتاب خطاب[١٨] التعظيم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ ثم إنما عاتبه بترك ما

---

١ سورة عبس، ٨٠/٧.
٢ م: تطيب.
٣ م: ولكنه.
٤ سورة عبس، ٨٠/١.
٥ أُسِفّ: تغيّر وجهه.
٦ م ـ الله.
٧ سورة عبس، ٨٠/١١.
٨ انظر تأويلات القرآن، ١٧/٥٢.
٩ ل: بالاجتهاد يقول.
١٠ ل: وإن كان.
١١ م ـ نفسه.
١٢ سورة ص، ٣٨/٧.
١٣ م: ولأنه كان.
١٤ م: بوخلى.
١٥ م: مع شدّة ذلك عليه.
١٦ م ـ ما يقول.
١٧ سورة التحريم، ٦٦/١.
١٨ م: بخطاب.

هو الأفضل عند الله تعالى لا بارتكاب المحظور[١] وانتهاك[٢] المنهي. فإنه أراد بتحريم جاريته على نفسه معاشرة النساء امتثالاً بقوله[٣] تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.[٤] وكثيراً ما يوصي النبيُّ عليه السلام في أمر النساء، كما قال النبي عليه السلام: «اتّقوا الله في النساء فإنهنّ عوان[٥] عندكم استحللتم فروجهنّ[٦] بكلمة الله واستبحتموهنّ بأمانة الله[٧]»[٨] وقال: «خيركم خيركم لنسائكم وأنا خيركم لنسائي».[٩] /[١٠٨ظ] والجارية لم يكن لها سهم في حقوق النساء ولكن الله يختار من إمائه من يشاء ويأمر برعاية حق من يريد حرّة كانت أو أمة. فهو عليه السلام بنى الأمر على ظاهر الحال من ترجيح الحرائر على الإماء، فحرّم الجارية تطييباً[١٠] لقلبهنّ. وكان الأفضل عند الله تعالى صيانة قلب الجارية دون قلوب النساء خصوصاً عند شراسة خُلُقهن مع رسول الله ﷺ وتظاهرهن على ذلك حتى قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾،[١١] فعوتِب بترك الأفضل لا بارتكاب المحظور، فإن تحريم الحلال يمين وإنه غير محظور.[١٢] وإنما صار يميناً لأن التحريم ليس إلا لله، فإذا قال العبد: «حرّمتُ على نفسي» فكأنه قال: «واللّهِ لا أفعل» فيصير يميناً فتلزمه الكفّارة. دليله[١٣] قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.[١٤] واليمين[١٥] مباح في نفسه غير محظور.

---

١ م ـ المحظور.
٢ م: وارتكاب.
٣ م: بأمره.
٤ سورة النساء، ١٩/٤.
٥ م: أسر عوان.
٦ م: فروجهم.
٧ ل: بأمانته.
٨ ورد هذا الحديث بهذا اللفظ: «... اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله...»، انظر: مسند أحمد بن حنبل ٧٣/٥؛ وصحيح مسلم، الحجّ ١٤٧؛ وسنن ابن ماجه، المناسك؛ وسنن أبي داود، المناسك ٥٦٨٤.
٩ سنن الدارمي، النكاح ٥٥؛ وسنن ابن ماجه، النكاح ٥٠؛ وسنن الترمذي، المناقب ٦٣.
١٠ م: تطيباً.
١١ سورة التحريم، ٤/٦٦.
١٢ م: وإنه يمين غير محظور.
١٣ م: بدليل.
١٤ سورة التحريم، ٢/٦٦.
١٥ م: وإنه.

قال الشيخ أبو منصور: تحريم[١] الآية على وجهين. أحدهما تخفيف الأمر على رسول الله وتيسيره عليه في معاشرة النساء، إذ هو يلاطف في معاملتهن بالأخلاق الحسنة. ويحتمل منهن ما يَعجَز غيره عن احتمال مثله، وتحريم الجارية من ذلك القبيل. فهوَّن الله الأمر عليه بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾،[٢] أي لِم تتكلَّف لأجل رضائهن[٣] كلَّ هذا التكلف،[٤] كما هوَّن عليه إعراض الكفرة عن الإسلام والإيمان، فقال:[٥] ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾.[٦] والوجه الثاني[٧] على جهة العتاب، فإن حُملت على هذه الجهة دلت[٨] الآية أنه فعل ذلك بالاجتهاد فعوتب على ذلك /[١٠٩و] ليتبيّن عليه خطأه، فلو كان[٩] ثَمَّةَ نهيٌ لم يخالفه رسول الله.[١٠] وفيه دليل أن خوف الخطأ في الاجتهاد لا يمنع الاجتهاد، فإن يقع صواباً يقرَّر عليه وإلا نزل الوحي بتغييره. ودلت الآية أن النبي عليه السلام كان مأموراً بتأديب النساء لتصدُقَ[١١] أفعالهن وتحسُن أخلاقهن، لكن الله تعالى كفى مئونة نبيه عليه السلام في تأديبهن وتهديدهن تخفيفاً عليه، كما قال في موضع استحيائه عمن جلس في بيت النبي عليه السلام بعد الطعام[١٢] ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾.[١٣] فلما سمِعن تهديد الله في كلامه رجعن إلى أنفسهن باللوم والتوبة والتضرع. رضوان الله عليهن[١٤] أجمعين.

وقوله: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾،[١٥] ليس فيه أنه يبتغي مرضاة أزواجه

---

١ م: بحرح.
٢ سورة التحريم، ٦٦/١.
٣ م: مرضاتهن.
٤ ل: التكليف.
٥ ل ـ فقال.
٦ سورة فاطر، ٣٥/٨.
٧ ل: والثاني.
٨ في النسختين: ودلت.
٩ م: ولو كان.
١٠ قارن بما ورد في تأويلات القرآن، ١٥/٢٤٧ ـ ٢٤٩.
١١ م: لتصدف.
١٢ ل + فقال.
١٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٥٣).
١٤ ل: عليهم.
١٥ سورة التحريم، ٦٦/١.

مُعرضاً عن ابتغاء الله تعالى، فإنه عليه السلام لم يكن يختار رضاء أحد على رضاء الله تعالى. ولكنه أشار أنك تبتغي مرضاة أزواجك دون مرضاة جاريتك، فرجَّحت رضاء الأزواج على رضاء الجارية ظناً أن رضاء الله تعالى في طلب رضاء الأزواج. فأخبر الله تعالى أن رضائي في ابتغاء رضاء الجارية، حتى فرض عليك تَحِلّة هذا اليمين. ثم عاتب الأزواج في هذه المظاهرة على رسول الله عليه السلام فقال: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾،[2] ليست هذه المجادلة منها رداً لكلام النبي عليه السلام. ولكن الجدل في اللغة /[١٠٩ظ] هو[3] الاستبانة للمقصود بالمراجعة، مأخوذ من الجَدْل وهو الفتل، كأنه يَلُفّ كلامه على كلام صاحبه ليتبين المراد من الكلامين. فلما تأخر الجواب من رسول الله ﷺ وفق مرادها رجعت بالشكوى إلى الله تعالى.

قال أهل الحقيقة: ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ بلسانها ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بسرّها. وهكذا الواجب[4] على كل طالب حاجة من إنسان أن يرجع بسره إلى ربه ويعرف أنه هو المعطي والمانع، لا مانع لِما أعطى ولا مُعطي لِما منع بيده قلوب العباد. وفيه دليلُ أن النبي عليه السلام وإن كان يعمل بالاجتهاد ولكن في أكثر ما يتكلم ويجيب كان منتظراً للوحي خصوصاً إلى ما كان يرجع إلى معرفة الحكم المقطوع عليه مقداره. وفيه دليل أن من سُئل عما لا يعلم ينبغي أن لا يجيب بل يسكت ويتوقفَ. كما قال عليه السلام: «سُئلوا فأفتَوْا بغير علم فضلوا وأضلّوا».[5] وقال عليه السلام: «هلاّ سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العِيّ السؤال».[6] وتأخّر[7] [عن] البيان في كل حادثة. سئل رسول الله ﷺ وامتنع[8]

---

١ سورة التحريم، ٦٦/٤.
٢ سورة المجادلة، ٥٨/١.
٣ م: فهو.
٤ ل: الجواب.
٥ مسند أحمد بن حنبل ١٦٢/٢، ١٩٠، ٢٠٣؛ وصحيح البخاري، العلم ٣٤؛ وصحيح مسلم، العلم ١٣ ـ ١٤.
٦ مسند أحمد بن حنبل ٣٧٠/١؛ وسنن ابن ماجه، الطهارة ٩٣؛ وسنن أبي داود، الطهارة ١٢٥.
٧ م: وتأخير.
٨ م: وامتناعه.

عن الجواب تعليماً[1] لأمته لئلاّ يشتغلوا بالجواب بغير علم. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: يجوز أن تكون امرأة[2] شكت إلى رسول الله ﷺ لكن أضاف شكايتها إلى الله تعالى،[3] كما قال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.[4]

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ م: تعليم.

٢ م: أن المرأة.

٣ تأويلات القرآن، ١٣/١٥ ـ ١٤.

٤ سورة الفتح، ١٠/٤٨.

[مسألة الغرانيق]

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾.[١] روي في بعض الروايات أنه جرى على لسان رسول الله ﷺ «تلك الغرانيق العُلى وإن شفاعتهن لتُرتَجى».[٢] وذكروا أن إبليس جاءه على صورة جبريل فألقاه على لسانه عند /[١١٠و] تلاوة هذه السورة حتى عرضها في اليوم الثاني على جبريل فردّه جبريل عليه السلام وقال: «إني لم أُنزل هذا». ثم استدلت[٣] هذه الطائفة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.[٤]

قال الشيخ أبو منصور: هذا وحش من الكلام، لا يجوز أن يُنسَب إلى رسول الله ﷺ[٥] بوجه من الوجوه أنه أُشتُبِه عليه صورة إبليس حتى ظنه جبريل فتلقّى منه الكلمة. ولو جاز ذلك كيف أمن في اليوم الثاني عن هذا الاشتباه حتى عرف أنه جبريل.[٦] واعلم أن العصمة تزيل الشبهة وهو معصوم في جميع الأحوال حتى في النوم واليقظة،[٧] كما قال النبي عليه السلام: «تنام عيناىَ ولا ينام قلبي»،[٨] أي لا يغفُل عن الله تعالى في حالة النوم،

---

١ سورة النجم، ١٩/٥٣.
٢ ل: شفاعتهن ترتجى.
٣ في النسختين: ثم استدل.
٤ سورة الحج، ٥٢/٢٢.
٥ م + في قراءته.
٦ تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٩٤/٩.
٧ م: واليقضة.
٨ مسند أحمد بن حنبل ٤٠/٥، ٤٩؛ وصحيح البخاري، التهجّد بالليل ١٦، والتراويح ١؛ وصحيح مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥.

فكيف في حال تبليغ الخطاب وتلقّي الوحي وهو أشرف أحوال الأنبياء، والخطأ فيه أسرع في وقوع الفساد. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾. سمّاه رسولاً في كثير من آي القرآن فلو تلقى تلك الكلمة من الشيطان وبلّغ ففي تبليغ تلك الكلمة يكون رسول الشيطان. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾،[١] فإذا وعد له العصمة من أجناسه فأولى أن يعصمه من الشيطان الذي[٢] هو أعدى[٣] الأعداء. وقد أخبر أنه لا سلطان له على عامة عباده بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.[٤] فعامة المؤمنين ليس له عليهم سلطانُ إزالةِ صفوة[٥] التوحيد والخاصّة ليس له عليهم سلطان إزالة صفوة التوحيد،[٦] مع شدة مقاساته في إغوائهم ووسوستهم رجاء[٧] أن يجد إليهم /[١١٠ظ] سبيلاً. وقد يُلقي في قلوبهم أحياناً ما لا ينجع فيهم[٨] فيحاربونه فينالوا فضل مجاهدة الشيطان، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾،[٩] فهو مسلَّط على أتباع بني آدم ابتلاء لهم وزيادة في شقاوته. وتسليطه لا يجاوز صدر بني آدم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى] يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾.[١٠] ولا مدخل له في القلب والفؤاد والسر والخفيّ. وقال بعضهم: لا يُقطَع[١١] القول أنه يدخل صدر بني آدم سوى أنه سُلِّط على صدر بني آدم فيوسوس في صدورهم من الوجه الذي سُلِّط عليهم. وقيل: إنه يدخل في صدور[١٢] بني آدم كما قال عليه السلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى[١٣] الدم».[١٤]

---

١ سورة المائدة، ٥/٦٧.
٢ ل ـ الذي.
٣ م: أعدا.
٤ سورة الحجر، ١٥/٤٢؛ وسورة الإسراء، ١٧/٦٥.
٥ م: عقد.
٦ ل ـ والخاصة ليس له عليهم سلطان إزالة صفوة التوحيد.
٧ م: رحا.
٨ م: لا ينجع أي لا يؤثر فيهم.
٩ سورة فاطر، ٣٥/٦.
١٠ سورة الناس، ١١٤/٥.
١١ م: لا تقطع.
١٢ ل: في صدر.
١٣ م: يجري.
١٤ مسند أحمد بن حنبل ٣/١٥٦، ٢٨٥؛ وصحيح البخاري، الاعتكاف ١١، ١٢؛ بدء الخلق ١١؛ الأحكام ٢١؛ وصحيح مسلم، السلام ٢٣ ـ ٢٤.

فإذا كان هذا حال عامة عباده مع إبليس فكيف حال نبينا عليه السلام وهو أقوى حالاً وأرفع شأناً وأعزّ مكاناً. فكيف يستولي عليه الشيطان بهذا القرب من لسانه ويُجري عليه مثل هذه الكلمة التي تُبعد عن شأنه. ثم عصمته عن ذلك لا تُخرجه عن حد الافتقار إلى الله تعالى حتى خاطبه بقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.[١] وأمره بالاستعاذة عند قراءة القرآن فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.[٢] لأن العبد ـ وإن جل قدره وعَظُمَ شأنه ـ فهو تحت تصرّف[٣] الله تعالى. والعصمة فضل[٤] من الله تعالى وكرامة عليه.

ثم تأويل قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾،[٥] ذكر بوجوه. أحدها أن المراد منه[٦] التمنّي ـ مِن الأُمْنِيّة ـ[٧] لا القراءةُ، /[١١١و] وهو أنهم إذا أرادوا شيئاً وتفكروا في أمر من[٨] عبادة الله تعالى والقيام بطاعته يجتهد الشيطان أن يُخلّط فكرتهم المرضية بفكرة مذمومة مسخوطة، فيُلقي في قلوبهم شيئاً من وساوسه. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي يمحو تخليط الشيطان من قلوبهم ويعصمهم عن الأفعال القبيحة المسخوطة. والنسخ هو الرفع، وإنه قد يكون بعد الوقوع وقد يكون بطريق الرفع والمنع عن قلوبهم. ودلالة صحة هذا التأويل أنه عمّ بهذا جميع الأنبياء والرسل فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾. وكم من نبي لم ينزل عليه كتاب[٩] ولا كان له وحي يُتلى ويُقرأ. فعلى هذا التأويل لا تعلق بهذه الآية بما نقل[١٠] عن النبي عليه السلام أنه قال في قراءته:[١١] «تلك الغرانيق العُلَى»،[١٢] فلم يبق إلا مجرّدُ خبرٍ[١٣] من

---

١ سورة الأعراف، ٢٠٠/٧؛ وسورة فصلت، ٣٦/٤١.
٢ سورة النحل، ٩٨/١٦.
٣ م: تصريف.
٤ م: فضلا.
٥ سورة الحجّ، ٥٢/٢٢.
٦ م: من.
٧ ل: من المنية.
٨ م ـ من.
٩ ل: الكتاب.
١٠ م: لما نقل.
١١ م: في قرائة.
١٢ انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢/٦ ـ ٣٤؛ ٧٠/٧ ـ ٧٢، ١١٥ ولكنه ضعيف الإسناد.
١٣ م: خير.

الآحاد وأنه ليس بحجة في باب[١] الاعتقاد. وإن صُرف تأويل الآية إلى القراءة كما قال[٢] بعض أهل التأويل: إن المراد من قوله ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي تلا، ﴿فِىٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي تلاوته، فالأوفق فيه[٣] ما ذكره الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويله فقال: كان الرسول إذا تلا آية يأتي الشيطان[٤] إلى الكفرة والمنافقين فيُلقي في قلوبهم عند سماع الآية من الاعتراض على رسول الله والمجادلة معه والردّ على كتاب الله.[٥] كما نقل أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، واستثنى المذكّى فقال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾[٦] ألقى في قلوبهم أن محمداً يُحِلّ ما يميت بفعله ولا يُحلّ ما يميته الله؛ فكانوا يجادلون رسول الله والمؤمنين ويزعمون: «أتأكلون ما أَمَتُّمْ ولا تأكلون ما أماته الله /[١١١ظ] تعالى»، فدفع الله ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾.[٧] وكذا عند قوله ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٨] ألقى في قلوبهم أن قوماً من النصارى عبدوا عيسى من دون الله وقوماً عبدوا الملائكة من دون الله فهل تقول يا محمد: إن عيسى مع من عبدَه[٩] حصب جهنّم وكذا الملائكة؟ فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.[١٠] ولو تأمّلوا بعقولهم عرفوا أن تلك الشبهة مدفوعة غير متوجّهة.[١١] أما الأولى «أن محمداً يبيح ما ذبحه ولا يبيح ما ذبحه الله»، هذا[١٢] إنما يتوجّه عليه أن يبيح ويُحرِّم من ذات نفسه، فأما[١٣] إذا كانت التحريم والإباحة من الله تعالى فله أن يبيح ما يشاء ويحرم ما يشاء.[١٤] وكذا الثاني، أخبر الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ

---

١ م ـ باب.
٢ م: كما ذكر.
٣ م ـ فيه.
٤ ل ـ الشيطان.
٥ انظر: تأويلات القرآن، ٩/٣٩٥ ـ ٣٩٦.
٦ سورة المائدة، ٥/٣.
٧ سورة الأنعام، ٦/١٢١.
٨ سورة الأنبياء، ٢١/٩٨.
٩ م: من عنده.
١٠ سورة الأنبياء، ٢١/١٠١. انظر: تأويلات القرآن، للماتريدي ٩/١٠٠ ـ ١٠١.
١١ انظر لسبب نزول الآية: تفسير ابن كثير، ٣/١٩٨.
١٢ م: بهذا.
١٣ ل: وأما.
١٤ م ـ ويحرم ما يشاء.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾،[١] لأن المراد[٢] غير من عبد عيسى والملائكة، فإنه قال: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾، وكلمة «ما» تُذكَر لغير العقلاء من الجمادات فيتناول عبدة الأصنام والشمس والقمر كما قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ [أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم]﴾.[٣] فأما عبدة عيسى والملائكة لا يقال لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، بل يقال: «مَن تعبدون»، فيكون[٤] خارجاً من لفظ الآية لو تأملوا وأنصفوا. ومما ألقى الشيطان في قلوب أوليائه أيضاً من التخليط في آيات الله ما تأوّلت اليهود لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾،[٥] ﴿الٓمٓر﴾،[٦] ﴿الٓمٓصٓ﴾[٧] وغير ذلك من الحروف المقطّعة في أوائل السور أنها من حروف الجُمَّل، فيحاسبون بها مدة بقاء هذه الأمّة. فأنزل الله تعالى: [﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ] مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ /[١١٢و] هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾.[٨] قال الشيخ: وهذا أحسن تأويل ذُكر في هذه الآية.

وقال بعض أهل التفسير:[٩] إن تأويل الآية أن الشيطان كان يتكلّف التخليط عند نزول الوحي حتى يشوّش على جبريل ويخلِط الباطل فيما كان يُنزل. فكان جبريل يَنفُخه ويلقيه في لُجّ البحر، ثم كان لا ييأس اللعين ولا يترك[١٠] جهده. وقد وصف[١١] الله جبريل بصفة القوة والأمانة فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ. مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ. وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ.﴾[١٢] تطييباً[١٣] لقلوب المؤمنين ورداً لشبهة التخليط: إن جبريل مع قوته لا يغلبه الشيطان فيختلطَ كلامه بكلامه، وبأمانته لا يخون[١٤] في وحي الله وسِفارته.[١٥] ورسول الله عاقل يعرف جبريل من الشيطان والحق من الباطل

---

١ سورة الأنبياء، ٩٨/٢١.
٢ م: أن المراد.
٣ سورة يوسف، ٤٠/١٢.
٤ في النسختين: فكيف.
٥ سورة البقرة، ١/٢.
٦ سورة الرعد، ١/١٣.
٧ سورة الأعراف، ١/٧.
٨ سورة آل عمران، ٧/٣.
٩ م: المفسرين.
١٠ م: ولا ينزل.
١١ م: ولقد وصف.
١٢ سورة التكوير، ٢٠/٨١ ـ ٢٢.
١٣ م: تطيبا.
١٤ م: لأن يخون.
١٥ م ـ وسفارته.

فلا يشتبه عليه ما يُوحي إليه جبريل مما يلقي[١] عليه الشيطان فَيَطِيب نفس المؤمن أنه يقرأ كلام الله من غير شك ورِيبة. فنزّه الله تعالى كلامه عن شوائب الاختلاط بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾،[٢] أخبر[٣] عن حفظ الأنبياء وعصمتهم قبله من الشيطان فهو أولى بعصمة الله وتقريبه.

وفي الآية تنبيه للمؤمنين أن يتحرّزوا عن الشيطان ووسوسته، فإن الأنبياء والرسل لم يُترَكوا ولم يُخلَوا عن وسوسته، فما من نبي ورسول إلا وقد قصدهم[٤] الشيطان[٥] بإلقاء الوسوسة واستعمال المكايدة جرياً على قضيّة حسده وعداوته مع بني آدم. قال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾،[٦] وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ /[١١٢ظ] إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.[٧] قال أهل الإشارة: إن اللعين وإن استثنى في الإغواء عباده المخلَصين ولكنه كذّاب لا يوثق بقوله، فما من عبد مخلَص إلا وقد قصده بالإغواء والإضلال ولكن الله عصمهم عن شره ومكايده. فإذا كان هذا حالَ الأنبياء والمرسلين وهم المخصوصون بالقربة والكرامة فكيف مَن[٨] دونهم. والله الموفق.[٩] وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ما من مولود إلا وقد وُكِّل به[١٠] قرينه من الجن غير مريم وابنها». قيل: ولا أنت يا رسول اللّه؟[١١] قال: «ولا أنا، إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلَمُ».[١٢] برفع

---

١ ل: ما يلقي.

٢ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ سورة الحج، ٥٢/٢٢).

٣ م: احير.

٤ ل: وقصدهم.

٥ م ـ الشيطان.

٦ سورة الإسراء، ٦٢/١٧.

٧ سورة ص، ٨٢/٣٨ ـ ٨٣.

٨ م: بمن.

٩ م ـ والله الموفق.

١٠ ل ـ به.

١١ ل ـ يا رسول الله.

١٢ مسند أحمد بن حنبل ٣٨٥/١؛ وصحيح مسلم، صفات المنافقين ٦٩ ـ ٧٠؛ وسنن الدارمي، الرقاق ٢٥؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ٢٢٥/٨.

الميم[١] على معنى الاستقبال، يعني أسلَمُ من شره وكيده بإعانة الله تعالى إيّاي. وقيل: أسلَمَ أي آمَنَ شيطاني.[٢] ويجوز تخصيص واحد من الشياطين بالإيمان[٣] كرامة لرسول الله ﷺ كما جاز تخصيص واحد من الملائكة بالكفر وهو إبليس.

وقال الحسن البصري: أراد بقوله: «تلك الغرانيق العُلَى وإن شفاعتهن لَتُرتجَى»[٤] الملائكة التي كانوا يعبدونها.[٥] قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: إن صح ما يروى عن النبي عليه السلام إنما قال ذلك على سبيل الإنكار والتعجب لا على سبيل التقرير.[٦]

قال الشيخ: ولكن الصحيح من الجواب ما قدّمناه أنه لا يجوز أن يَجري[٧] على لسانه خصوصاً في حال تبليغ الوحي ما يشوِّش قلوب السامعين المقتدين. ومن يقل ذلك إنه سمع من رسول الله ﷺ تحقق [عنده] أنه سمع هذه الكلمة عند سماع قراءة رسول الله، فأما من رسول الله أو من غيره فلم يتحقق عنده. ولا يجوز له الشهادة على رسول الله «إنك /[١١٣و] قلتَ»، بل أخبره الله تعالى أن الشيطان يلقي، بقوله ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.[٨] وتفسير ذلك ـ والله أعلم ـ على هذا التأويل أن الشيطان حضَرَ عند قراءة النبي عليه السلام في المسجد الحرام وحوله المسلمون والمشركون، فألقى الشيطان هذه الكلمة في قراءة النبي عليه السلام وخلط صوته بصوت النبي عليه السلام حتى اشتبه على بعض الناس أن المتكلم بهذه الكلمة[٩] رسول الله أو غيرُه. ثم أزال الاشتباه بنسخ تلك الكلمة ورفعها تحقيقاً لوعده: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[١٠]

---

١ م: فأسلم قيل فيه بوجوه قيل أي انقاد وخضع واستسلم. وقال بعضهم فأسلم برفع الميم.

٢ ل: أي من شيطاني.

٣ ل ـ بالإيمان.

٤ ل: ترتجى.

٥ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٩٥/٩، ٢٠٢/١٤.

٦ م: على سبيل التقدير. قارن بما ورد في تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٩٦/٩ ـ ٣٩٧.

٧ م: أنه يجوز أن لا يجري.

٨ سورة الحجّ، ٥٢/٢٢.

٩ م ـ الكلمة.

١٠ سورة الحجّ، ٥٢/٢٢.

[العصمة والذنب]

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.[١] ظاهر الآية يُوهم أنه كان موسوماً[٢] بذنب قبل الوحي وبذنب بعد الوحي، إذ[٣] ذكرُ التقدم والتأخر في الكلام للمبالغة يوعظ به أو يذكّر أو يُمَنّ ويبصّر.[٤] سلك بعض الناس مسلك الظاهر وتكلفوا إثبات الذنب وجوّزوا على الأنبياء ارتكاب الصغائر والكبائر. فأما أهل البصيرة ومن كانت لهم صيانة ومعرفة بأحوال الرسل وشَفَقَةٌ على إيمانهم وإيمان الخلائق فإنهم ذهبوا إلى أنه عليه السلام لم يكن معروفاً بذنب. وكذا سائر الأنبياء لم يكونوا موسومين بعادات البشر من اتّباع الشهوات وارتكاب المناهي. ولكن تأويل الآية اختلف الناس فيه. قال بعضهم: أراد بما تقدم زَلّة آدم عليه السلام وبما تأخر ذنب أمته. ووجه إضافة ذلك إليه أنه لما كان في مقام الشفاعة لجميع[٥] الخلائق /[١١٣ظ] حتى تشفّع به آدم عليه السلام في خلال ندمه واستغفاره، كما روي أنه قال: «بحرمة محمد أن تَغفر لي» فغُفِر له[٦]؛ وكذلك وعد الشفاعة لعامة أمته حتى قال: «شفاعتي

---

١ سورة الفتح، ٤٨/٢.

٢ م: توسم.

٣ ل: إذا.

٤ ل: وينصر.

٥ ل: بجميع.

٦ انظر: المستدرك للحاكم، ٢/٦١٥ قال الذهبي في التلخيص: (لعله موضوع)؛ والشفاء للقاضي عياض، ١/٣٣٨؛ والدر المنثور للسيوطي، ١/٦٠.

لمن مات[١] لا يشرك بالله شيئاً».[٢] فمن كان شفيعاً لذنب كانت[٣] عهدة ذلك الذنب عليه حتى يُغفَر.[٤] قال الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.[٥]

قال الشيخ أبو منصور: الغفران هو الستر، وهو عبارة عن دوام العصمة قبل الوحي وبعده حتى لا يأتيَ منه ذنب؛ وهو مأخوذ من الغَفْر، ومنه[٦] المِغفر الذي يستر الوجه والرأس كيلا يصيبهما[٧] أذى. وقال[٨] أبو علي الجُوزَجاني[٩] في تأويل قوله: «إني لأستغفر الله في كل يوم مائةَ مرّةٍ»:[١٠] إن ذنبه قصوره عن بلوغ معرفة الله تعالى وأداء شكر نعمه.[١١] فكان عليه السلام يُعلَى[١٢] في كل يوم مائة مقام فيستقصر[١٣] نفسه عند كل مقام بجنب[١٤] ما يستقبله من المقام الآخر. وقال بعض الناس: اسم الذنب في الحقيقة يتناول لكل فعل يجوز عليه العتاب أو العذاب، فإنه مأخوذ من ذنَب الحيوان للعضو الذي في مؤَخَّر الحيوان. فكل فعل للإنسان فيه تَبِعَة: إما من عذاب أو عتاب[١٥] أو حياء أو خَجْلَة،[١٦] يسمَّى في الحقيقة ذنباً سواء كان ارتكاب

---

١ م: لمن تاب.

٢ ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة؛ انظر: مسند أحمد بن حنبل ٤٠٤/٤؛ وسنن أبي داود، السنة ٢١؛ وسنن الترمذي، صفة القيامة ١١.

٣ ل: كان.

٤ أي لما كان النبي عليه السلام في مقام الشفاعة لجميع الخلائق فكونه شفيعاً لذنب كانت عهدة ذلك الذنب عليه أولى أن يُغفَر.

٥ سورة التوبة، ١٢٨/٩.

٦ م ـ منه.

٧ م: كيلا يصيبها.

٨ م: قال.

٩ م: الجوزحاني. هو أبو علي الحسن بن علي الجُوزَجاني. كان من أكابر مشايخ خراسان. صحب محمد بن علي الترمذي ومحمد بن الفضل. انظر: الطبقات الكبرى للشعراني، ٨٩/١.

١٠ مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢، ٢٦٠/٤؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٤١؛ وسنن أبي داود، الوتر ٢٦؛ وسنن الترمذي، التفسير ٤٧/١.

١١ م: نعمته.

١٢ م: يعلاّ.

١٣ ل: فيستغفر.

١٤ م: يجنب.

١٥ م: أو اعتاب.

١٦ م: خجالة.

نهي أو مخالفة أمر أو إتيانَ الفاضل وترك الأفضل. ولأن الذنَب لمّا كان[1] آخِر أعضاء الحيوان في الرتبة والوجود فكذا الذنب آخِر أعمال الإنسان في الرتبة والدرجة.[2] وذَنْب كل إنسان يليق بحاله كما أن ذنَب كل حيوان يختصّ به/ .[١١٤و] ولذلك[3] كان يقول ﷺ في سجوده: «اللّهمّ[4] اغفِر لي جدّي وهزلي وخطيئتي وعمدي وكل ذلك عندي».[5] فما من إنسان وإن جلّ قدره ومنزلته إلا ومن أعماله ما يكون بمنزلة الرأس، ومنها ما يكون بمنزلة الذنَب على ما يليق بحاله فيوجب له الحياء والخجَل حتى يسأل المغفرة لذلك.

قال الشيخ: إن الله تعالى ذكر الغفران عقيب ذكر الفتح لكرامة رسول الله وتشريف محله ومنزلته عند الله تعالى ليُطهّر[6] قلوب الخلائق عن الأفكار في قبيح يُنسَب إليه فيصفوا إيمانهم به. فالله أعلم بما كان منه لا حاجة لنا إلى الوقوف على ذلك، ولا يجوز لنا البحث عنه سوى أن نعرف أنه أُكرم بهذه الكرامة. واختلف المفسرون أن ذلك الفتح[7] أي فتح كان؟ قال بعضهم: فتح مكة، وقال بعضهم:[8] صلح حُدَيْبِيَةَ وعليه عامة أهل الحديث. وقال بعضهم: إعطاء البراهين والحجَج. قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَتَحۡنَا لَكَ﴾[9] أي قضينا لك قضاء بَيِّناً برفعتك وإبانةِ شرفك[10] حتى لا يطمعَ أحد من الخلق بلوغ درجتك.[11] وقيل: فتحنا لك أبواب الحكمة والعلم وجميع أسباب الخير، وضمّنّا في كتابك ما يحتاج كل الخلق إلى معرفته منك. فهذه الفتوح قد ذكرت ثم بعد ذلك وُعِد المغفرة وهو من الفتوح أيضاً.

---

١ م ـ لما كان.
٢ م: في الدرجة.
٣ م: وكذلك.
٤ م: الهي.
٥ مسند أحمد بن حنبل ١٧٣/٢؛ وصحيح البخاري، الدعوات ٦٠؛ وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ٧٠.
٦ ل: لتطمئن.
٧ م: القبح.
٨ ل: بعض.
٩ سورة الفتح، ١/٤٨.
١٠ م: بشرفك.
١١ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٩/١٤.

وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾،[١] ما معنى هذا الأمر وهو كان عالماً بالله تعالى؟ قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: /[١١٤ظ] يعني[٢] اعلَمْ في حادث الوقت أنْ لا إله إلا الله كما علمت في ماضي الوقت، كقوله:[٣] ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾،[٤] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾،[٥] يعني أشعِرْ قلبك حتى يكونَ أبداً بذكر لا إله إلا الله. قال الشيخ: وهو معنى قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «جدِّدوا إيمانكم بقول: لا إله إلا الله»[٦] فكما يجدِّد إيمانه بقول: لا إله إلا الله فكذلك[٧] يزداد نوره وبصيرته في وحدانية الله.[٨]

قال أهل التحقيق: إن كلمة التوحيد إذا قالها الكافر تنفي عنه ظلمة الكفر وتُثبت في قلبه نور التوحيد. فإذا قالها المؤمن وإن قالها في كل يوم ألف مرة فبكل مرة تنفي عنه شيئاً لم تنفه المرة الأولى. فمقام العلم بالله لا ينتهي إلى الأبد. وهو[٩] معنى قول من قال: حَسْبُ الواحد إفرادُ الواحد. وهو الجواب عن سؤال معروف على هذه الآية أن النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يقل بعد هذا الخطاب: علمتُ؛ والخليلُ بعد الأمر بالتسليم قال: أسلَمتُ.[١٠] إن الإسلام مبناه[١١] على الظاهر، فإذا سَلِم ما في يده صحّ مقام التسليم فصدَق في قوله: أسلَمتُ. أما العلم بالله لا ينتهي إلى الأبد، فكيف[١٢] يقول في الحال: علمتُ. ولأن قوله: أسلَمتُ، من تمام التسليم، فإن التسليم على الظاهر، وهذا القول من الظاهر. فأما قوله: علمتُ، ليس من تمام العلم فإن العلم

---

١ سورة محمد، ١٩/٤٧.
٢ ل - يعني.
٣ ل: كقول.
٤ سورة الفاتحة، ٦/١.
٥ سورة النساء، ١٣٦/٤. انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٤٠٠/١٣.
٦ مسند أحمد بن حنبل ٣٥٩/٢؛ والمستدرك للحاكم ٢٥٦/٤؛ والجامع الصغير للسيوطي، ٢٤٦/١؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٣٣٢/١.
٧ م: فلذلك.
٨ م: في معرفة ووحدانية الله.
٩ ل - هو.
١٠ يشير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة البقرة، ١٣١/٢).
١١ ل: معناه.
١٢ م: كيف.

في القلب والإخبار عن القلب باللسان إنما يرخَّص في حق من لم يطّلع على ما في القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾،[١] قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: /[١١٥و] إن كان له ذنب فلا يجوز لنا أن نبحث عنه.[٢] ويجوز أن يكون هذا ابتداء الخطاب من غير سابقة الذنب فيُعطَف[٣] عليه استغفار المؤمنين والمؤمنات، كما قال[٤] عند قبول توبة المخلَّفين: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾،[٥] من غير أن يكون منهم ذنب أو تقصير، ولكن ليُعطَف عليه قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[٦]؛ ولأن من تُصُوِّر منه الذنب يجوز توجيه الأمر عليه بالاستغفار فيكون استغفاره استدامة للعصمة والستر كيلا يقع في الذنب. قال الشيخ أبو القاسم الحكيم: من علت رتبته فخوفه عما لم يقع فيه أكثر ليتحرّز بذلك الخوف عن الوقوع في الذنب فيكون خوفه سبب دوام عصمته. فإن الله تعالى قال:[٧] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.[٨]

قال الشيخ أبو منصور: هذه الآية أرجَى آية في غفران المؤمنين، فإن الله تعالى أمر رسوله باستغفار المؤمنين والمؤمنات ولا يُظَنَّ[٩] برسول الله ﷺ أنه يترك الاستغفار وقد أمره الله تعالى. ولا يُظَنَّ بكرم الله تعالى أن يستغفر لهم رسول الله بأمره ثم لا يغفر لهم.[١٠] وهذه الآية تنقض على المعتزلة قولهَم: إن الصغائر مغفورة باجتناب الكبائر، والكبائر لا يجوز[١١] أن تُغفَر. فإن الله تعالى لما أمره[١٢] بالاستغفار فإذا قال: «اللهم اغفر

---

١ سورة محمد، ١٩/٤٧.
٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٤٠١/١٣.
٣ م: ليعطف.
٤ ل ـ كما قال.
٥ سورة التوبة، ١١٧/٩.
٦ سورة التوبة، ١١٨/٩.
٧ ل: قال الله تعالى.
٨ سورة الأنعام، ١٥/٦؛ وسورة الزمر، ١٣/٣٩.
٩ ل: ولا نظن.
١٠ م ـ لهم.
١١ م: لا تجوز.
١٢ م: لما أمر.

لي» فإن كانت[١] الذنوب كبائر فكأنه سأل ما هو خارج عن الحكمة كمن قال: «اللهم اغفر للمشركين». وإن كانت صغائر فكأنه قال: «اللهم لا تَجُزْ علينا» فلا يجوز سؤال المغفرة عندهم. ثم سؤال المغفرة للغير لا يوجب نقصاً في حاله ولا بياناً أنه مرتكب للذنوب في العرف والعادة. بل يريدون بذلك نوع إكرام وقضاء حق له، /[١١٥ظ] كما يقال لمن أحسن إلى إنسان: «غفر الله لك ولوالديك»، ولا يُفهَم من هذه الكلمة أنه أو والديه[٢] مغموسون[٣] في الذنوب، ويجوز أن ينظر إلى نفسه بعين التقصير فيرى الاستغفار على نفسه لازماً وإن كان بالغاً درجة الكمال، وهذا من غاية الكرم وعلوّ الهمة.[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.[٥] ظنّ بعض الناس بظاهر هذه[٦] الآية أن النبي عليه السلام لم يكن مؤمناً قبل الوحي كما لم يكن تالياً للكتاب قبل نزول الكتاب. وليس كما ظنوا بل كان مؤمناً عارفاً بالله من حين دخل الروح في جسده، وكان نبيًّا مُعَدًّا للرسالة إلى أن أوحي إليه على رأس[٧] أربعين سنةً، كما أخبر حين سُئِل «متى كنتَ نبيًّا؟» فقال: «كنتُ نبيًّا وآدم بين الروح والجسد».[٨] وأما ظاهر الآية لا يُشكِل في حق الكتاب فإنه[٩] كان لا يدري الكتاب ما لم يوحَ إليه، ولا يقرأ فإنه كان أمّيًا لا يقرأ ولا يكتب، فمنّ الله تعالى عليه بأن علّمه القرآن فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ. عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.[١٠] وأما الإيمان فمعناه أنك لو تُرِكتَ ونفسَك لم تصل إلى الإيمان بحولك

---

١ م: فإن كان.
٢ ل: أنه والديه.
٣ م: مغموسين.
٤ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ١٣/٤٠٠ - ٤٠٢.
٥ سورة الشورى، ٤٢/٥٢.
٦ م - هذه.
٧ ل - رأس.
٨ مسند أحمد بن حنبل ٥/٥٩، ٣٧٩؛ وسنن الترمذي، المناقب ١؛ والمستدرك للحاكم، ٢/٦٠٨.
٩ ل: فإن.
١٠ سورة الرحمن، ٥٥/١ - ٢.

وقوّتك، ولكن الله تعالى منّ عليك[١] بالهداية والتوفيق من حين كنت، كما قال عليه السلام: «واللهِ لو لا الله ما اهتدينا».[٢] ويُحتمَل أن يكون المراد منه ما كنتَ تدري مَن المرزوق بقبول الكتاب ونيل الإيمان ومَن المحروم منهما حتى أظهر الله تعالى بدعوتك من كان أهلاً للكتاب والإيمان/ .[١١٦و] ويحتمل أن يكون المراد ما كنت تدري كيفية الدعوة إلى الإيمان، فإن الدعوة تُستفاد من الوحي. دليله قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾،[٣] ذَكَر أنه من الله تعالى لا من غيره فجعله نوراً يستنير العالم بدعوته.[٤]

ثم وصفه قائما بالدلالة والإبانة فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.[٥] وقال[٦] الشيخ أبو منصور رحمه الله: فإن كان المراد إتيان[٧] الإيمان باللسان فهو ظاهر،[٨] فإن أداء الإيمان باللسان والإقرارَ به من حيث اللفظُ سمعيّ لا يعرف[٩] إلا بالتوقيف. وإن كان المراد الإيمانَ من حيث العقل[١٠] فالمراد أنك لا تدري شرف الإيمان ومحله وقدره حتى أوحى الله إليك. وليس كل من لا يعرف قدر الإيمان وشرفه[١١] لا يكون مؤمناً فإن عوامّ الخلق يوصَفون بالإيمان وإن لم يعرفوا قدره وشرفه.[١٢] وقوله: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾،[١٣] يُحتمل أن تكون الكناية راجعة إلى الإيمان،[١٤] ويحتمل أن تكون راجعة إلى القرآن.[١٥] وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

---

١ م ـ عليك.

٢ مسند أحمد بن حنبل ٤٣١/٣؛ وصحيح البخاري، الجهاد والسير ٣٤؛ والمغازي ٢٩، ٣٨؛ والأدب ٩٠؛ وصحيح مسلم، الجهاد والسير ١٢٣ ـ ١٢٥.

٣ سورة الشورى، ٥٢/٤٢.

٤ م: بنور دعوته.

٥ سورة الشورى، ٥٢/٤٢.

٦ م: قال.

٧ م: بيان.

٨ م: فهو طاهر.

٩ م: ولا يعرف.

١٠ م: الفضل.

١١ ل: شركه.

١٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢١٦/١٣ ـ ٢١٧.

١٣ سورة الشورى، ٥٢/٤٢.

١٤ م: إلى القرآن.

١٥ م ـ ويحتمل أن تكون راجعة إلى القرآن.

فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾،[١] لم يُفهَم من «صراط الله» ما يفهم من صراط الخلق، وكذا[٢] لا يفهم من مجيئه وإتيانه ما يفهم من مجيء الخلق وإتيانهم.[٣] تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

❑❑❑❑❑❑

١ سورة الشورى، ٤٢/٥٣.

٢ ل ـ لم يفهم من صراط الله ما يفهم من صراط الخلق وكذا.

٣ م: لا يفهم من مجيء الخلق وإتيانهم.

[مسالة زيد وزينب]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.[١] نزلت في زيد المتَبَنَّى.[٢] كان عبداً له فأعتقه وتبنّاه، وكانوا[٣] يقولون:[٤] زيد بن محمد، كما هو دأبهم حتى طلّق زيد زينب وتزوّجها رسول الله ﷺ فطعن الناس وقالوا: تزوج[٥] بحليلة ابنه فنزل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ /[١١٦ظ] مِّن رِّجَالِكُمْ﴾،[٦] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾،[٧] وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني بالهداية والإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والتربية والتقريب. وإن كانت هذه النعم من الله تعالى أيضاً[٨] بإلقاء المحبة والشفقة في قلب النبي عليه السلام إلا أنه أضاف[ها] إلى النبي عليه السلام فإنه جرى على يديه. وفيه[٩] دليل أن شكر النعمة كما يلزم للمسبَّب يلزم السبب بالقيام عليه، كما قال عليه السلام: «من اصطنع إليكم معروفاً فكافِئوه فإن لم

---

١ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.

٢ م: المتنبى.

٣ ل: وكان.

٤ م: يقولونه.

٥ م: زوج.

٦ سورة الأحزاب، ٣٣/٤٠.

٧ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ. ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٤ - ٥).

٨ م - أيضا.

٩ ل: وقيل.

تقدروا على مكافأته فادعوا له حتى تروا[١] أنكم قد كافأتموه».[٢] وقال عليه السلام: «من أُزلِت إليه نعمة فليشكُرها».[٣] وقال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»،[٤] يعني أن الإحسان الجاري على أيدي الخلق قليل في جنب ما يأتي من الله تعالى من غير واسطة البشر. فإذا لم يقدر على شكر ذلك القليل كيف يقدر على شكر الكثير[٥] الذي لا يُحصَى و[لا] يُعَدّ.

ثم ذكرُ الإنعام من الله تعالى ومن الرسول إنما كان لئلاّ يُتوهَّم أنه أُسقط قدره في تلك الحال، بل إجراء تلك الحادثة لحِكَم[٦] بالغة من الله تعالى. منها إظهار شرف النبي عليه السلام وعِظم محله عند الله تعالى حيث وقع بصره على زينبَ وهي تَخبِز وقد احمرّت وَجنَتاها،[٧] وعليها خمار أسود، فوقع في قلب النبي عليه السلام أنها تصلُح لنكاحه فغمَّض عينيه ووضع يديه على عينيه وقال: «يا مقلِّب القلوب والأبصار»، وأعرض عنها تصبّراً.[٨] فلما حكت ذلك مع زيد رضي الله عنه /[١١٧و] أراد أن يطلِّقها، فقال له[٩] النبي عليه السلام: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾،

---

١ م: يروا.

٢ ورد هذا الخبر في كتب الحديث بألفاظ قريبة؛ انظر: مسند أحمد بن حنبل ٦٨/٢، ٩٩، ١٢٧؛ وسنن أبي داود، الزكاة ٣٨؛ وسنن النسائي، الزكاة ٧٢.

٣ الجامع الكبير للسيوطي، ٣/الورقة ٧٢و. من أزلت: أي أسديت إليه وأعطيها.

٤ مسند أحمد بن حنبل ٢٥٨/٢، ٣٠٣، ٣٨٨؛ وسنن أبي داود، الأدب ١١؛ وسنن الترمذي، البر والصلة ٥؛ وكشف الخفاء للعجلوني ٢٧٨/٢.

٥ ل ـ الكثير.

٦ م: بحكم.

٧ م: جنتاتها.

٨ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٤٧/٩؛ والدر المنثور للسيوطي، ٢٠١/٥. حول هذه الرواية الباطلة وأمثالها التي وردت مع الأسف في بعض الكتب لتساهل مؤلفيها في نقل الروايات يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: «فأما ما روي أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد وربما أطلق بعض المُجّان لفظ عشق فهذا إنما صدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته» الجامع لأحكام القرآن، ١٩١/١٤).

٩ م ـ له.

فقضى الله تعالى الفُرْقة بينهما، فزوّجها الله تعالى منه كما قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.[١] هذا كما وهبت[٢] تلك المرأةُ نفسها من النبي عليه السلام وعائشة تقول: كيف تَهَبُ[٣] تلك[٤] المرأة نفسها والنبي[٥] عليه السلام يقول: «لا يجوز النكاح بدون الصَّداق»،[٦] فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾،[٧] فقالت عائشة رضي الله عنها: «أرى ربّك[٨] يسارع[٩] في هواك».[١٠] ومنها دفع الحرج[١١] عن المؤمنين في حرمة تزويج[١٢] امرأة المتبنّى كما أشار إليه الكتاب ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾.[١٣] ومنها تصديق ظن زينبَ، فإنها لما سمعت أن النبي عليه السلام يخطبها ظنت أنه يخطبها لنفسه فرضيت[١٤] بذلك. فلما علمت أنه يخطبها لزيد امتنعت وكرهت أن تكون تحت رجل من الموالي، حتى نزل قوله تعالى[١٥] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.[١٦] فلما سمعت ذلك انقادت ورضيت، فصدّق الله تعالى ظنها في آخر الأمر فتزوجها[١٧] رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

١ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.

٢ ل - الله تعالى منه كما قال فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها هذا كما وهبت.

٣ م - تلك المرأة نفسها من النبي عليه السلام وعائشة تقول كيف تهب.

٤ ل - تلك.

٥ م: من النبي.

٦ لم أجده بهذا الفظ فيما لديّ من المراجع. ولكن روي عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «لا يحل نكاح إلا بولي وصداق وشاهدي عدل». انظر: السنن الكبرى للبيهقي، ٧/١٢٥؛ الدر المنثور للسيوطي، ٦/٦٣٢.

٧ سورة الأحزاب، ٣٣/٥٠.

٨ م - ربك.

٩ م: تسارع.

١٠ مسند أحمد بن حنبل ٦/١٥٨؛ وصحيح البخاري، التفسير ٣٣/٧، النكاح ٢٩؛ وصحيح مسلم، الرضاع ٤٩ - ٥٠.

١١ ل: أخرج.

١٢ ل - تزويج.

١٣ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.

١٤ ل: ورضيت.

١٥ ل: فأنزل الله تعالى.

١٦ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٦.

١٧ ل: وتزوجها.

وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾[١] ولم يقل:[٢] «زوجك» لأن إمساك الزوج الإنفاق عليها وإمساك الزوجيّة[٣] عليه أن لا يطلقها ولا يَبينها.[٤] فإنما أمره بذلك كما يُؤمَر الزوج بالإحسان إلى المرأة، وإجمال[٥] العِشرة معها وأن[٦] لا يُسيء الصحبة. فإنه عليه السلام عرف في مقام النبوة أنها[٧] تصير امرأته. وقد روي في بعض[٨] الأخبار أنه لما أحسّ بالحال /[١١٧ظ] تورَّم عضو زيد فلم يقدر على قِربانها بعد ذلك حتى أتى رسول الله وقال: «إني أُطلِّق زينب». فإن صحت هذه الروايات[٩] فلا يبعد في الأعجوبات التي كان النبي عليه السلام مخصوصاً بها.[١٠] وقيل: إنه شكا[١١] أن فيها كِبْراً وأنها تتعاظم عليّ وتؤذيني بلسانها فأطلقها. ويحتمل أنه أراد طلاقها من غير سبب فنهاه رسول الله ﷺ؛ ولأن النبي عليه السلام كان منتظراً للوحي في ذلك فأشفق أن يطلقها زيد فتبقى ضائعة مُهمَلة إلى أن يأتي وقت التزويج. ولهذا يُستحبّ أن يكون الطلاق على رأس[١٢] طُهْر لم يجامعها فيه الزوج كيلا تطول العدّة عليها.

وقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.[١٣] قال عامّة أهل التأويل: وتُخفي في نفسك حبّها وإعجابها.[١٤] وقال قائلون: وتُخفي في نفسك ليت أنه طلّقها ومع ذلك قال له:[١٥] ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾. ولكن[١٦] هذا[١٧] بعيد من الكلام لا يوافق حال رسول الله عليه السلام ولا نظم القرآن، فإنه لا يجوز من رسول الله عليه السلام أن يتمنّى طلاقها في قلبه ويُظهِر خلافه بلسانه، إذ ذاك من فعل المنافقين وحاشاه عليه السلام أن يُوصَف به. وأما نظم القرآن فإنه

---

١ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.
٢ م + أمسك.
٣ م: الزوجة.
٤ م: فلا يبينها.
٥ ل: فاجمال.
٦ م - وأن.
٧ ل: وإنما.
٨ م - بعض.
٩ م: الرواية.
١٠ ل - بها.
١١ م: يشكى.
١٢ م: في آخر.
١٣ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.
١٤ م: واعحالها.
١٥ ل - له.
١٦ م: لكن.
١٧ ل - هذا.

قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فانظر ما الذي أبدى[1] الله تعالى منه في القرآن[2] فهو الذي أخفاه في نفسه والذي أبداه في القرآن تزويجها، بقوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فكذا الذي أخفاه في نفسه أنه يتزوجها وأنها تصير امرأته. وقوله: /[١١٨و] ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. قال بعض الناس: خشي الناسَ أن يَعيبوه وينتقصوه[3]؛ ولا يجوز:[4] أن يخشى النبي عليه السلام عن الناس خشيةَ الغَفلَة الضَّعفَة من الناس، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾،[5] فإذا كان هذا حال جميع المرسلين فسيد المرسلين أولى بذلك وأحرى. ولكن المعنى[6] في خشية النبي عليه السلام ـ والله أعلم ـ أنه خشي الناس أن يُفتتَنوا[7] بالطعن عليه بتزوّج حليلة الابن على زعمهم أن المتبنَّى بمنزلة ابن[8] الصلب ونكاحُه حرام كنكاح الابن، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فإنه أباح لك وأمرك[9] بذلك. والثاني تخشى الناس أنهم إذا عابوا عليك بهذا أعرضوا عنك فيَشقُون ويَضِلّون، والله أحق أن تخشاه أنه لا يَضلّ من يَضلّ إلا بتقديره وقضائه. والثالث أراد بذلك خشية طبع البشرية على ما عليه جُبِل، لا خشية اعتقاد. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾،[10] ليس فيه[11] أنك لا تخشى الله تعالى ولكنه بيانُ أنك تخشى الله. وخشية الله أحق لك[12] من خشية الناس تسكيناً للطبع ودفعاً لخاطر البشرية. وجائز أن يكون قوله ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾،[13] هذا القول نفسه الإبداء حيث جعله الله تعالى آية تتلى بعد ما أخفَى رسول الله في نفسه شيئاً، ولو لم

---

١ في النسختين: أبدأ.
٢ م: ما في القرآن.
٣ م: وينقصوه.
٤ ل: وذا يجوز.
٥ سورة الأحزاب، ٣٩/٣٣.
٦ م: ولكن والمعنى.
٧ م: أن يفتتنوه.
٨ م ـ ابن.
٩ ل: وأمر.
١٠ ل ـ أنه لا يضل من يضل إلا بتقديره وقضائه والثالث أراد بذلك خشية طبع البشرية على ما عليه جبل لا خشية اعتقاد وقوله والله أحق أن تخشاه.
١١ ل ـ فيه.
١٢ ل ـ لك.
١٣ سورة الأحزاب، ٣٧/٣٣.

يُعلِم الله تعالى بالوحي أنه أخفى شيئاً لم يُعرَف أنه أخفى شيئاً. وقالت عائشة رضي الله عنها: «لو كان النبي عليه السلام كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية».[١] وفيه دلالة نبوته عليه السلام أنه يخبر عن وحي الله /[١١٨ظ] لا عن نفسه، فإنه أخفى شيئاً في نفسه ثم أبداه بقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾، ومن أخفى شيئاً من الناس حياء أو خشيةً لا يُظهِر[ه] بعد ذلك بقوله، فإذا أظهر عُلِم أنه قال ذلك بوحي الله وأمره.

وذكر[٢] بعض الناس أنه لما وقع بصر رسول الله ﷺ عليها زال[٣] نكاح زيد ودخلت[٤] في نكاح رسول الله. وهذا قول أهل الإباحة ـ لعنهم الله ـ ويجعلون ذلك أصلاً فيما بينهم أن ما وقع عليه عين[٥] إنسان حَرُمَ على المالك انتفاعه ووجب عليه[٦] تسليمه إليه حقاً لعينه. وهو رفع الشرائع والأحكام وإنكار الأمر والنهي في الحلال والحرام. والآية ردٌّ عليهم حيث أخبر الله تعالى عن قوله ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.[٧] سمّاها[٨] زوجاً له[٩] بعد وقوع بصره عليها. فالقول بزوال النكاح إما تكذيب الله تعالى في إخباره أو تكذيب الرسول في تسميته زوجاً،[١٠] وكل ذلك كفر، والعياذ بالله.[١١] والصحيح أن زيداً طلّقها ثم تزوجها رسول الله ﷺ. ولكن اختلفت الروايات أنه تزوجها بعد انقضاء عدّتها أو في الحال. فإن كانت الرواية أنه تزوجها بعد انقضاء عدّتها فلا إشكالَ فيه. وإن كانت الرواية أنه تزوجها في الحال فمن الجائز أن يُختصّ رسول الله برفع حكم العدة بعد الطلاق في حق امرأة مخصوصة وإن كان حكم العدة عامًّا في جميع النساء، كما اختُصّ برفع الصداق في حق المرأة /[١١٩و] التي وهبت نفسها للنبي على

١ مسند أحمد بن حنبل، ٢٤١/٦، ٢٦٦ وصحيح البخاري، التوحيد، ٢٢؛ وصحيح مسلم، الإيمان، ٢٨٨.
٢ م: وذلك.
٣ ل: أزال.
٤ م: ودخل.
٥ ل ـ عين.
٦ ل ـ عليه.
٧ سورة الأحزاب، ٣٣/٣٧.
٨ م: سماه.
٩ ل: لها.
١٠ م: زوجه.
١١ م: وبالله العصمة.

ما ذكرنا.[١] وتحقيق ذلك أن العدّة شُرِعت لتعرّف براءة الرَّحِم، ولهذا خُصَّت بنكاح يعقُبه الدخول أو الخلوة التي قامت مقام الدخول. وتزويج زينب كان من الله تعالى، كما قال ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾،[٢] والله عالم بفراغ رحِمها، فجاز أن تسقط العدة في حقها. وروي أنه لما طلّقها زيد أرسل رسول الله ﷺ يَخطُبها فقالت: حتى أُؤَامر ربّي[٣] أي أستأذن، فقامت وتوضّأت وصلت ركعتين ثم قالت: اللهُم إن رسولك يخطبني فإن كنتُ أهلاً له فزَوِّجني منه. فنزل قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.[٤] فلما قرأ رسول الله عليه السلام هذه الآية قام زيد وقال: أنا أحق أن أُبشِّرها به، فذهب وبشرها، فدخل النبي عليه السلام بيت زينب كما يدخل الرجل بيت زوجته وقرأ عليها هذه الآية ولم يجدد العقد.

فإن قيل: كيف يجوز هذا العقد من غير إيجاب وقبول من الرجل[٥] والمرأة؟

قلنا: أرأيتَ لو كان لواحد منا عبد أو أمَة فزوّج المولى أمته من عبده هل يجوز من غير إيجاب وقبول من العبد والأمة؟ فلئن جاز ذلك فأوْلَى أن يجوز تزويج الله أمتَه زينب من عبده محمد عليه السلام.

ثم هي كانت تفتخر على سائر أزواج النبي عليه السلام ورضي عنهن بأن نكاحهن كان[٦] على الأرض من أوليائهن ونكاحي على السماء من الله تعالى.[٧] وسُئِل رسول الله ﷺ عند وفاته:

---

١ يقول الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأحزاب، ٥٠/٣٣).

٢ سورة الأحزاب، ٣٧/٣٣.

٣ انظر: تفسير ابن كثير، ٤٨٩/٣، ٤٩١.

٤ سورة الأحزاب، ٣٧/٣٣.

٥ ل: من الزوج.

٦ م - كان.

٧ تفسير الطبري، ١٤/٢٢؛ والمستدرك للحاكم، ٢٣/٤ - ٢٥؛ وتفسير ابن كثير، ٤٩١/٣؛ والدر المنثور للسيوطي، ٢٠٢/٥.

/[١١٩ظ] من أسرع[١] أزواجك لُحوقا بك؟ فقال:[٢] «أطولكن يداً».[٣] فجعل النساء بعد وفاته يقابلنَ أيديهن أيّتهن[٤] أطوَل يداً، فإذا زينبُ ماتت قبل سائر أزواج النبي عليه السلام. وهي كانت أجوَد من سائر أزواج النبي عليه السلام. وكان مراد النبي عليه السلام «أطوَلكن يداً» مِن الطول وهو الجود والفضل،[٥] لا من الطول وهو الامتداد. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنها كانت تُساميني من بين سائر أزواج النبي عليه السلام في الوَسامة والحظّ من رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.[٦] أي بيَّن الله له، كقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾،[٧] أي بيناها. وقيل: أوجب الله لكم، أي أحلّ [٨]الله لكم. يقال: فرض بمعنى أحلّ وحرّم. وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾، يعني كذا سنة الله فيمن كان قبله من الرسل في كثرة النساء مثل داود وسليمان عليهما السلام مع شرفهم وعلوّ محلهم واشتغالهم بعبادة الله تعالى. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾،[٩] يعني داود حين هوى المرأة التي فُتِن بها فجمع الله بينهما. قال الشيخ: وهذا بعيد. وقيل: ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾، يعني لا حرج[١٠] على أحد فيما لم يحرَّم عليه. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾،[١١] فكذلك في محمد عليه السلام يخشى الله ولا يخشى أحداً سواه. ويحتمل ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بما يصيبهم من الأذى والبلايا عن التبليغ.

وقوله:[١٢]/[١٢٠و] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾،[١٣] يعني

---

١ م: اسرّاع.
٢ م: قال.
٣ مسند أحمد بن حنبل ١٢١/٦؛ وصحيح البخاري، الزكاة ١١؛ وصحيح مسلم، فضائل الصحابة ١٠١.
٤ ل: أيهن.
٥ ل: والجود وهو الفضل؛ م: وهو الجود هو الفضل.
٦ سورة الأحزاب، ٣٨/٣٣.
٧ سورة النور، ١/٢٤.
٨ ل: وقيل أحل.
٩ ل ـ من قبل.
١٠ م: لا خرج.
١١ سورة الأحزاب، ٣٩/٣٣.
١٢ ل ـ وقوله.
١٣ سورة الأحزاب، ٤٠/٣٣.

أباه[1] يُوجب تحريم زوجته عليه ولكن يجوز أن يكون أباً من حيث التبجيل والتعظيم والشفقة والرحمةُ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.[2] فإذا كانت[3] أزواجه أمهاتٍ لنا يجوز أن يكون هو أباً لنا من حيث التعظيم والشفقة. وقال عليه السلام: «إنما أنا لكم كالأب الشفيق».[4] وجائزٌ أن يقال: لا يسمَّى النبي أباً وإن كانت تسمَّى أزواجه أمهاتٍ، لأن نهاية درجات التعظيم للنساء هي الأمومة،[5] فأما الأبوّة ليست بنهاية درجات التعظيم للرجال، بل القاضي والسلطان والنبي والرسول أعظم من الأب، فلذلك قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[6] لئلا يعاملوه معاملة آبائهم في الانبساط، ولكن يعاملون معاملة الرسول في التعظيم والتبجيل. وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، يعني لا نبيّ بعده. ومعنى الختم أنه انتهي[7] ورود الرسالة برسالته، فلا يُرسَل بعده؛ وأكمِلت النبوة بنبوته فلا نبي بعده؛ ودامت شريعته إلى يوم القيامة، كما قال: «أنا والساعة كهاتين، وأشار إلى السبّابة والوُسطَى»[8] يعني لا واسطة بين شريعتي وقيام الساعة كما لا واسطة بين السبّابة والوسطى، حتى لو ادّعى أحد بعدُ النبوةَ لا يطالب بالحجة بل يُكذَّب بمجرد دعواه. وقال[9] عليه السلام: «ألا لا نبيّ بعدي».[10]

---

١ في النسختين: أبوه.
٢ سورة الأحزاب، ٦/٣٣.
٣ ل: فإن كانت.
٤ نصّ الحديث كذا: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد...»، انظر: مسند أحمد بن حنبل، ٢٤٧/٢، ٢٥٠؛ وسنن ابن ماجه، الطهارة ١٦؛ وسنن أبي داود، الطهارة ٤؛ وسنن النسائي، الطهارة ٣٦؛ وتفسير ابن كثير، ٤٦٨/٣.
٥ م: الأمومية.
٦ سورة الأحزاب، ٤٠/٣٣.
٧ ل: انهي.
٨ مسند أحمد بن حنبل ١٢٤/٣؛ وصحيح البخاري، التفسير ٧٩؛ الرقاق ٣٩؛ وصحيح مسلم، الفتن ١٣٣ ـ ١٣٥.
٩ ل: قال.
١٠ مسند أحمد بن حنبل ١٨٥/١؛ وصحيح البخاري، الأنبياء ٥٠، المغازي ٧٨؛ وصحيح مسلم، الإمارة ٤٤.

[تفسير آيات أخر من وجهة العصمة]

وقوله[١] تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[٢]. قيل: هذا خطاب للرسول ولكن المراد /[١٢٠ظ] منه أمته. ولما كان الشرك أمراً قبيحاً مستشنَعاً[٣] خاطب بذلك رسوله لأن يُعلَم أنه غير هيّن. [و]لو جاز[٤] الإغماض عنه لم يُذكَر عن رسول الله ﷺ بهذا التهديد. ويحتمل أنه تعليم لرسوله ليُخبر أني نُهيت عن الشرك لئلا يطمع فيه[٥] مشرك مسامحته معهم مع نهي الله إياه، كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ.﴾[٦] قال الشيخ:[٧] ويحتمل أن يكون هذا تنبيهاً من الله تعالى على عصمته، أي إني عَصمتُك[٨] عن جعلك معي[٩] إلهاً. فالكلام في الظاهر وإن كان بصيغة النهي ولكن يُحتمل أن يكون المراد منه الخبرَ. قال الشيخ أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انصرف الخطاب إليه لتحقيق عصمته إذ من ليس بمأمور ولا منهي لا ينتفع بالعصمة على ما قرّرنا، ولأن يُعلَم أن لا قرابة لأحد من الله تعالى. والعبد ـ وإن جلّ قدره ـ فهو لا يخرج عن حد الأمر والنهي، فيكون مفتقراً[١٠] إلى خالقه باستدامة العصمة عليه،

---

١ ل: قوله.
٢ سورة الإسراء، ٢٢/١٧.
٣ م: مستسنعا.
٤ م: ولو جاء.
٥ م ـ فيه.
٦ سورة الحاقّة، ٦٩/٤٤ ـ ٤٦.
٧ ل ـ قال الشيخ.
٨ م: اعصمتك.
٩ م: مع الله.
١٠ م: مفتقر.

ويكون في وَجَل من الله تعالى في عظمته وجلاله وكبريائه، وفي شكر المنة بما أكرم[١] من العصمة،[٢] كما قال في حق الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾،[٣] ثم أوعدهم وهدَّدهم بقوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾.[٤] وفي هذا تعليم للمؤمنين أن لا يعتمدوا على شيء من الأسباب وعلى جهدهم وقوتهم بل على فضل الله ولطفه وهدايته. وقيل: إن الشرك على أنواع: شرك في ذات الله وهو شرك الكفار، /[١٢١و] وشرك في صفاته وهو شرك أهل الأهواء، وشرك في الحال وهو شرك المنافقين، وشرك في الأفعال وهو شرك المرائين،[٥] وشرك في الأقوال وهو شرك المخلِّطين، وكل واحد من الشرك يعمل في محله. فتوجَّه الخطاب نحوه بكونه[٦] أقرب إلى الله تعالى ويكون المراد أمته من غير أن يكون هو خارجاً من الخطاب. ويجوز أن يتوجه إليه من غير أن يكون هو مراداً بالخطاب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ إلى قوله ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾،[٧] قام الدليل على أنه غير مأمور بالدعاء لوالديه فخرج عن هذا الخطاب بحكم الدليل.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.[٨] هذه الآية تؤيِّد تأويل ما ذكرنا في قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾،[٩] أنه لو كان تالياً قبله كتاباً لارتاب

---

١ م: ما أكرم.

٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٤٩/٨ - ٢٥٠.

٣ سورة التحريم، ٦/٦٦.

٤ ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢٩/٢١).

٥ م: المرابين.

٦ م: لكونه.

٧ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ٢٣/١٧ - ٢٤).

٨ سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩.

٩ سورة الشورى، ٥٢/٤٢.

المبطلون[١] أنه يتلقَّى من ذلك الكتاب[٢] فيقرأُ عليهم. فلما عرفوا من حاله أنه لم يقرأ كتابا ولا تعلَّم من أحد زال موضع الارتياب، لو أنصَفوا وتأمّلوا عرفوا أنه يبلِّغهم[٣] بوحي الله وتنزيله. وسُئِل الفقيه أبو الحسن: هل كان النبي[٤] عليه السلام يُحسِن[٥] الكتابة والقراءة من المكتوب؟ فأجاب: لم يُعرَف منه ذلك قبل الوحي ولا وقعت له الحاجة إلى ذلك، فإن النظر والكتابة والتعلّم[٦] مجاهدة ومقاساة لتحصيل العلم بهذه الأسباب. فمتى يحتاج إلى ذلك من أصبح بتعليم الله عالماً فعَلَتْ رتبته عن أن يتمدَّح بمعرفة الكتابة والقراءة عن المكتوب؟ وقد روي أن علياً رضي الله عنه لما كتب صُلح الحديبية كتب فيه: «هذا ما صالح عليه[٧] محمد رسول الله /[١٢١ظ] إلى[٨] سهيل بن عمرو[٩] رسول المشركين». وقال: «لو عرفنا أنه رسول الله ما حاربناه ولكن امحُ «رسول الله» واكتُبْ: «محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب» كما هو الرسم. فأمرَه رسول الله ﷺ أن يفعل ما يقولون، فقال علي رضي الله عنه: «أمّا أنا فلا أمحُو رسول الله»، فقال رسول الله:[١٠] «يا علي أرني موضع كتابة رسول الله،» فأراه علي رضي الله عنه إياه[١١] فمحاه رسول الله[١٢] بيده.[١٣] فهذا دليل أنه لم يعرف الكتابة والخط، ولكن هذا إنما يعدّ نقصاً في حق غيره لا في حقه.

---

١ ل - هذه الآية تؤيد تأويل ما ذكرنا في قوله ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان أنه لو كان تاليا قبله كتابا لارتاب المبطلون.

٢ ل: الخطاب.
٣ ل: أنت تبلغهم.
٤ ل: للنبي.
٥ م: بحسن.
٦ ل: التعليم، م - والتعليم.
٧ م - عليه.
٨ م: أتى.

٩ هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس، القرشي العامري، من لؤي. خطيب قريش، وأحد ساداتها في الجاهلية. أسرّه المسلمون يوم بدر وافتُدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكة، فأسلم وسكنها ثم سكن المدينة. مات بالطاعون في الشام سنة ١٨هـ/٦٣٩م. انظر: الأعلام للزركلي، ٢١٢/٣.

١٠ م - رسول الله.
١١ ل - إياه.
١٢ ل - رسول الله.
١٣ مسند أحمد بن حنبل، ٣٣٠/٤؛ وصحيح البخاري، الصلح ٦، الشروط ١٥؛ وتفسير ابن كثير، ٤١٧/٣.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[١] قال أهل التأويل: طلب الكفار منه تعظيم أصنامهم وزَجْرَ أصحابه عن شتمهم والاستخفاف بهم، ويَعِدُونه أنك لو فعلتَ ذلك لعبدنا ربك وآمنا بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.[٢] وفيها تقرير عصمته إذ[٣] التثبيت[٤] يوجب التأكيد على المعنى الموجود. فمنّ الله تعالى عليه بإدامة العصمة وتأكيدها كما منّ عليه بتأييد[٥] العصمة فلا يكون مضطرباً في أمره كضعيف القلب تارة يميل إلى الحق وتارة يميل إلى الباطل على حسَب ما يتراءى[٦] له من وهمه وليس له من قوة اليقين ما يميِّز بين الوهم والفهم. وليس كلما يَسْنَح[٧] في الخاطر يعمل به حتى يُعرَف أنه من أي مأخذ يهيج: من الوهم أو من العقل والفهم. ثم في حق النبي عليه السلام لا يخلو إما أن يتراءى[٨] له حُسن ما أشاروا إليه حتى كان يميل إليه ـ وهذا لا يُتوهَّم من رسول الله عليه السلام ـ /[١٢٢و] أو مالَ[٩] إليه لخوف أو طمع في إيمانهم لحرصه على إيمان الخلق. فمنّ الله عليه بعصمته حتى لم يركن إليهم فيما دعوه. وقوله: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، يعني أنك لو لم تكن في مقام عصمتي ونبوتي وكنتَ في مقام العبودة[١٠] لا تركن إليهم بواحدة، لأنك تعرف بطلان دعواهم فلا تميل إليهم كل الميل بل شيئاً قليلاً بقدر الحاجة والمصلحة. ولكنا[١١] عصمناك حتى لا تميل إليهم ولا توافقهم في القليل والكثير فلا يقتدي[١٢] بك أحد من المؤمنين. ثم تثبيت الله تعالى إياه كان تثبيتاً لسره حتى لم يتعلق بشيء من عادات البشر[١٣] فلم يتكدّر بالاختلاط فيما لله[١٤] ولغيره،

---

١ سورة الإسراء، ١٧/٧٤.
٢ لباب التأويل في أسباب النزول للسيوطي، ص ٣٨٠.
٣ في النسختين: إذا.
٤ م: اثبت ما.
٥ ل: تأييد؛ م: بابتداء.
٦ في النسختين: ما يترايا.
٧ ل: يسبح؛ م: كل ما سبخ.
٨ في النسختين: يترايا.
٩ م: أنه مال.
١٠ م: العبادة.
١١ م: ولكن.
١٢ م: فلا تقتدي.
١٣ م: الكسر.
١٤ م: الله.

فكان مصفًّى عن معايب الباطن مهذّباً[١] عن قبائح الظاهر. شرَّفه الله وفضّله على ما علم في سابق علمه أنه أهل لذلك، فلم يجزع في مكروه أصابه ولم يفزع من مُهِمّ ناله، ولم يطلب الراحة والدعَة وحظ نفسه وقضاءَ وَطَرِه سوى توفير الشفقة على خلق الله تعالى والجَدّ[٢] والجهد في تبليغ الرسالة، وإقامة الدعوة من غير تَوانٍ[٣] ولا تقصير .عليه السلام وعلى آله كثيراً.

قال الشيخ أبو منصور رحمه الله في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:[٤] [هذا] دليل أن الكفرة كانوا يدعونه إلى ما لو أجابهم يصير به مفتوناً ويُضلونه ويصرفونه عما هو فيه، كقولهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾.[٥] ويطلبون منه الافتراء على الله تعالى وتغيير الأحكام على وفق مرادهم على أن يوافقوه في بعض ما /[١٢٢ظ] يدعو إليه من التوحيد والشرائع. فعصم الله رسوله[٦] عن إجابتهم وأخبر أنهم لا يؤمنون حتى يُسلّموا جميع ما أتيتَ[٧] به وينقادوا[٨] لحكمك، كقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾،[٩] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا. أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾[١٠] ثم الأصل في هذه الخطابات التي خوطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مما فيه[١١] تهديد وتوعّد[١٢] مبني على أصل معرفة الرسول عليه السلام، إذ هو عليه السلام مخصوص بقوة تحتمل تلك المخاطبات مع عصمته عن تلك الأفعال، ونزاهته عن تلك الأخلاق، واتّصافه بالخصال الحميدة والخلال المرضية بحيث لو خوطب بها غيره لا يحتمل ذلك. فإنه خارج عن اختلاط الهوى واختيارات النفس غير ناظر إلى

---

١ م: مهديا.
٢ م: والحد.
٣ في النسختين: من غير تواني.
٤ سورة الإسراء، ١٧/٧٣.
٥ سورة يونس، ١٠/١٥.
٦ ل: ورسوله.
٧ ل: ما أيدك.
٨ في النسختين: وينقاد.
٩ سورة النساء، ٤/٦٥.
١٠ سورة النساء، ٤/١٥٠ ـ ١٥١. انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٨/٣٣١ ـ ٣٣٢.
١١ م: وسلم فيها.
١٢ م: وتوعيد.

ما عنده من المناقب. فكان هو أولى بسماع الخطاب وقبول الوحي ليكون سفيراً بين الله وبين خلقه[١] وقدوةً لأمته، وليعرفوا أنه مع شرفه وكرامته لم يخرج عن حد الأمر والنهي والتهديد والتوعّد[٢] والخطاب والعتاب، فكيف مَن دونه؟ والأنبياء عليهم السلام أعرف الخلق بمقاديرهم وأبصَرُهم بجواهرهم كما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾.[٣] وكذلك الخليل سأل من الله العصمة /[١٢٣و] عن عبادة الأصنام لنفسه وبنيه فقال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.[٤] نادى عن مقام جوهره بحيث لو تُرِك وجوهرَه[٥] لصدر عنه ما صدر من غيره. وكذا قول يوسف[٦] عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾،[٧] مع ثبوت العصمة عن موته كافراً لمعرفته بخاصيّة[٨] نفسه. وإلزام الأمر والنهي وورود العتاب والتهديد كان لشرفهم وعلوّ منزلتهم وتقرير عصمتهم على ما ذكرنا قبل هذا، وتنبيهاً لغيرهم من أصحاب الجرائم ومرتكبي الذنوب العظائم. إن الأنبياء عليهم السلام مع شرفهم وعلوّ حالهم عند الله تعالى لم يسامَحوا في زَلّة أو ترك الأفضل مع الإتيان بالفاضل وإفاتةِ الأكمل مع[٩] الإتيان بالكامل. فكيف حال من هو دونهم ـ فلا قرابة بين الله وبين عباده ـ فيكونوا أبداً على حذر من عقوبته وحياءٍ من مخالفة أمره قلّ أم كثُر، صَغُرَ أم كَبُر. قالت عائشة رضي الله عنها: لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة وانظر[١٠] مَن عصيتَ بها.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

١ م: وخلقه.
٢ م: والتوعيد.
٣ سورة يوسف، ٥٣/١٢.
٤ سورة إبراهيم، ٣٥/١٤.
٥ ل: لو ترك جوهره.
٦ م + النبي.
٧ سورة يوسف، ١٠١/١٢.
٨ م: بخاصته.
٩ م - مع.
١٠ ل: وانظروا.

[فضائل النبي عليه السلام وأمر الله تعالى بالصلاة عليه]

ثم اعلم أنه عليه السلام سيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل الخلائق أجمعين، أَخذ ميثاقه مع سائر الأنبياء، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.[١] فاجتمع الأنبياء على الإقرار بفضله وتمنّى كل منهم لقاءه وأوصى به أمته. ثم أظهر فضله عليهم ليلة المعراج كما أخبر النبي عليه السلام عن تلك الليلة: «رأيتُ آدم وكان كذا، ورأيت إبراهيم وكان كذا، ورأيت موسى وكان كذا» إلى آخر ما نطق به حديث المعراج.[٢] قال الله تعالى: /[١٢٣ظ] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.[٣]

ثم أمر عباده بالصلاة عليه وأخبر عن صلاته وصلوات[٤] ملائكته عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.[٥] قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لما نزلت هذه الآية فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله قد عرفنا السلام عليك

---

١ سورة آل عمران، ٣/٨١.

٢ مسند أحمد بن حنبل ١/٣٧٤؛ وصحيح البخاري، بدء الوحي ٧، الأنبياء ٢٤، ٤٨، مناقب الأنصار ٤٢؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٥٩.

٣ سورة الإسراء، ١٧/١.

٤ م: وصلاة.

٥ سورة الأحزاب، ٣٣/٥٦.

فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».[١] وقد روي في الصلوات عنه أنه قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».[٢] وهذا أصح وهو اختيار أستاذنا رَحِمَهُ اللَّهُ.[٣] وقد قيل: أفضل الصلاة عليه أن تقول: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد أفضل ما صليت على أحد من أنبيائك ورسلك، واجْزِهِ عن أمته أفضلَ ما جزيت رسولاً عن أمته». وقد اختار كثير من العلماء والأخيار ألفاظاً في الصلاة متقربين إلى الله تعالى بالصلاة عليه وجعلوها ذريعة في قبول طاعاتهم وفَرَجاً[٤] عن مهمّاتهم. وقد جاء في الأثر: «إن الدعاء موقوف ما لم يصلِّ عليّ».[٥] وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرا».[٦] وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحَثّ على إدامة الصلوات عليه فقال: «لا تجعلوني كقَدَح الراكب لا يذكره إلا عند[٧] العطش فإذا شرب /[١٢٤و] ألقى ما فضُلَ من الماء ثم علَّق القدح ونَسِيَه إلى عطَش آخَرَ، صلوا

---

١ مسند أحمد بن حنبل ١٦٢/١؛ وصحيح البخاري، الأنبياء ١٠؛ الدعوات ٣٢ ـ ٣٣؛ وصحيح مسلم، الصلاة ٦٥ ـ ٦٦.

٢ م ـ وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
انظر: المراجع السابقة.

٣ ل ـ وهذا أصح وهو اختيار أستاذنا رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٣٨٠/١١.

٤ في النسختين: والفرج.

٥ سنن الترمذي، الوتر ٢١؛ وتفسير ابن كثير، ٥١٤/٣.

٦ مسند أحمد بن حنبل ١٦٨/٢؛ وصحيح مسلم، الصلاة ١١، ٧٠؛ وسنن أبي داود، الصلاة ٣٦؛ وسنن الترمذي، الوتر ٢١، المناقب ١.

٧ م ـ عند.

عليّ في ابتداء دعائكم وفي وسَطه وآخره».[١] وقال أبو سليمان الداراني:[٢] من أراد أن يستجاب دعوته فليصلِّ على النبي عليه السلام أولاً ثم ليسألْ[٣] حاجته ثم يصلّ عليه ثانياً، فإن الله تعالى لا يرد صلاته على رسوله فإذا قبل الصلاتين لم يدع حاجته في خلالهما غير مقضيّة.

ومعنى الصلاة على النبي عليه السلام تقديمه شفيعاً لقبول طاعة العبد والتجاوزِ عن السيئات، وهي رحمة بقيت في الأمة إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.[٤] وذكر الفقيه الإمام أبو الحسن رحمه الله في **كتاب المناسك** أن الصلاة على النبي عليه السلام بعد التلبية مستحَبَّة. ومعناه أن العبد لما دخل الحرم وجد من الله تقريباً وإكراماً، وكان النبي عليه السلام هو الداعي له إلى الله وعبادته وطاعته، فإذا وصل بدعوته كان عليه أن يشكره ويصلّي عليه، والله تعالى يحب ذلك منه[٥]؛ كمن دخل على ملِك من الملوك وقد بعث الملِك رسوله وعامِلَه إلى بلدته، فهو لما فرغ من خدمة الملك[٦] وثنائه [و]شكر رسوله ونشر فضل عامله فرح به الملك ورضي عنه وازداد[٧] له عند الملك شرفاً[٨] ومنزلة.

ثم الصلاة على النبي عليه السلام على مراتب: فرض وواجب وسنّة وممنوع عنه. أما الفرض فأولَ ما يَقرع سَمْعَه في مجلسه ذكرُ رسول الله ﷺ يفترض عليه الصلوات، لقوله تعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾،[٩] /[١٢٤ظ] ثم إلى آخِر المجلس متى سمع كانت سنّة. وأما الواجب ففي الصلاة بعد التشهد في القِعْدة[١٠] الأخيرة عندنا، وعند الشافعي في القعدتين

---

١ تفسير ابن كثير، ٥١٤/٣؛ وراموز الأحاديث لأحمد ضياء الدين، ص ٤٦٧.

٢ هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي الداراني، زاهد مشهور، من أهل داريّا بغوطة دمشق. كان من كبار المتصوفين. توفي سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م. انظر: الأعلام للزركلي، ٦٥/٤.

٣ م: يسأل.

٤ سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.

٥ م: منه ذلك.

٦ ل ـ الملك.

٧ م: وزاد.

٨ في النسختين: شرف.

٩ سورة الأحزاب، ٥٦/٣٣.

١٠ م: وفي القعدة.

جميعاً حتى لو تركها يأثم ولكن لا تفسد صلاته. فأما[١] السنة ما ذكرنا. وأما الممنوع عنها ففي سماع قراءة القرآن إذا جرى ذكر محمد يُمنَع عن الصلاة عليه.[٢] وكذا عند سماع الخطبة عندنا لا لأجل[٣] الصلوات ولكن لِحق سماع[٤] القرآن والخطبة، فإنه وجب الإنصات والاستماع. لذلك[٥] قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.[٦] وكذا عند استحسان السِّلعة في البيع والشراء، كما هو دأب أهل الأسواق يصلّون على النبي عليه السلام عند عرض السِّلعة ترويجاً لها فيُكرَه ذلك. وكذا عند السحرة والعرّافين يأمرون الناس في مجامعهم بالصلاة[٧] على النبي ﷺ لترويج باطلهم فيُمنَع[٨] عن ذلك.

ثم الصلاة منا هو الدعاء إلى الله تعالى والسؤال منه أن يصليَ عليه. وقد أمرَنا الله تعالى بالصلاة عليه ولكنا لا ندري قدره وشرفه ومنزلته حتى نصلي عليه على قدر فضله وشرفه. فنسأل الله تعالى وهو عالم بقدر استحقاق صلاته فيبلّغ منا الصلاة عليه فيكون أجلّ قدراً وأعظمَ خطراً.

واقتران صلوات الخليل عليه السلام بصلوات النبي عليه السلام كان لدعاء[٩] الخليل صلوات الله عليه حيث سأل من الله تعالى فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾،[١٠] أي الثناء الحسَن في أمة محمد.[١١] وقيل: بأنه[١٢] أدّى[١٣] حق أبيه، كما قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ /[١٢٥و] هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾.[١٤] وتحقيقه أنه ليس في لفظ الصلوات الدعاء للخليل كالدعاء للنبي،[١٥] بل فيه تشبيه صلوات[١٦] النبي

---

١ م: وأما.
٢ ل: عن الصلوات.
٣ م: عندنا لأجل.
٤ م: يحل بسماع.
٥ م: كذلك.
٦ سورة الأعراف، ٢٠٤/٧.
٧ ل ـ بالصلاة.
٨ م: فتمنع.
٩ م: الدعاء.
١٠ سورة الشعراء، ٨٤/٢٦.
١١ ل: أحمد.
١٢ م ـ بأنه.
١٣ م: أداء.
١٤ سورة الحجّ، ٧٨/٢٢.
١٥ م: على النبي.
١٦ ل: صلاة.

بصلوات[١] الخليل فإنه يقول: «صلِّ عليه[٢] كما صلّيت على إبراهيم»، فيكون هذا ثناء حسَناً من أمة محمد عليه السلام للخليل عليه السلام، ألقى الله تعالى في ألسنتهم إجابة لدعائه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.[٣] ومعنى تشبيه صلوات[٤] النبي عليه السلام بصلوات[٥] الخليل عليه السلام في السؤال والدعاء وتخصيصه من بين سائر الأنبياء عليهم السلام فإن محمداً عليه السلام مخصوص بمتابعة الخليل من سائر الأنبياء عليهم السلام،[٦] كما قال الله: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾،[٧] وقد أمر الله تعالى محمداً بمتابعة ملته فقال:[٨] ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾.[٩] وقال: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾[١٠]؛ وقال عليه السلام: «ضَحُّوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم».[١١] وكذلك تُشبه[١٢] شريعته شريعة الخليل في إقامة القرابين وتعظيم شعائر الحج وغير ذلك.

ومن أفضل الصلاة أن يُذكَر الآل معه. وآل الرجل قرابته وعشيرته، وقد قيل: آل الرجل هو وأهل بيته. وقال ابن عباس رضي الله عنه: آل النبي ﷺ علي وجعفر وعَقيل وعباس رضوان الله عليهم أجمعين. وسُئل رسول الله ﷺ: من آلك؟ فقال: «آلي كل مؤمن تقيّ»،[١٣] فالمؤمن[١٤] التقيّ

---

١ ل: بصلاة.
٢ م ـ صل عليه.
٣ سورة الشعراء، ٢٦/٨٤.
٤ ل: صلاة.
٥ ل: بصلاة.
٦ ل ـ فإن محمداً عليه السلام مخصوص بمتابعة الخليل من سائر الأنبياء عليهم السلام.
٧ ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٦٨).
٨ ل: وقال.
٩ ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٣).
١٠ م ـ وقال: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾، ٦/١٦١.
١١ سنن ابن ماجه، الأضاحي ٣؛ وكنز العمال للهندي، ٥/٢٢٩.
١٢ م: تشبيه.
١٣ الجامع الصغير للسيوطي، ١/٤؛ والدر المنثور له ٥/٢١٨؛ ومجمع الزوائد للهيثمي، ١٠/٢٦٩؛ والمقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٥؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ١/١٨.
١٤ م: والمؤمن.

آله من حيث الديانة والمتابعةُ أيضاً، وما ذكره ابن عباس ﷺ آله من جهة النسبة والقرابة والديانة والمتابعة أيضاً.[١] ولا يجوز إفراد الصلاة على واحد[٢] من أهل البيت، وكذا إفراد لفظ السلام عند أهل السنة والجماعة[٣] حتى لا يقال: «علي أو الحسن أو الحسين أو عباس عليه الصلاة أو عليه[٤] السلام أو صلوات الله عليه،» وكذا على جملتهم. بل نقول: «أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين».[٥] والإفراد بالصلاة والسلام /[١٢٥ظ] على أهل البيت من شعار الروافض[٦] وأهلِ البدعة[٧] يخصّونهم بلفظة[٨] «الصلاة والسلام» من بين سائر الصحابة إشعاراً بتفضيلهم[٩] على أبي بكر وعمر. وهو خلاف السنة، فإن[١٠] أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم أجمعين، ثم سائر الصحابة على ما علم الله من فضلهم. فأما فضل هؤلاء الأربعة على هذا الترتيب مستنبَط من الأخبار والآثار والأحوال على وجه لا يخفَى على من أنصفَ واتّبع الحق وترك الهوى والعناد. كيف وقد روي في الصحيح عن محمد ابن الحنفية[١١] قال: سألت

---

١ ل ـ وما ذكره ابن عباس ﷺ آله من جهة النسبة والقرابة والديانة والمتابعة أيضا.

٢ م: لواحد.

٣ ل ـ والجماعة.

٤ م: وعليه.

٥ ل ـ أجمعين.

٦ الروافض هي فرقة من كبار الفرق الإسلامية وتسمّى بالشيعة الذين هم شايعوا عليًا وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلي أو الخفي، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده وإن خرجت فبظلم أو تقيّة منه. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ٥٦٣/١ ـ ٧٦٤.

٧ أهل البدعة هم الذين يسمّون أهل الأهواء هم أهل القبلة الذين لا يكون معتقدهم معتقد أهل السنة، وهم الجبرية والقدرية والروافض والخوارج والمعطّلة والمشبّهة. انظر: التعريفات للسيد الشريف الجرجاني، ص ٢٠

٨ م: بلفظ.

٩ م: لتفضيلهم.

١٠ م: وإن.

١١ هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، المعروف بابن الحنفية. أحد الأبطال الأشدّاء في صدر الإسلام. وهو أخو الحسن والحسين، غير أن أمهما فاطمة الزهراء، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، يُنسب إليها تمييزاً له عنهما. مولده ووفاته بالمدينة. توفي سنة ٨١هـ/٧٠٠م. انظر: الأعلام للزركلي، ١٥٢/٧.

أبي عليَّ بنَ أبي طالب[١] رضي الله عنه: أي الناس خير بعد رسول الله؟ فقال:[٢] أبو بكر، قلت:[٣] ثم من؟[٤] قال: عمر، وخشيتُ أن يقول: ثم عثمان، قلتُ: ثم أنت يا أبَهْ، فقال:[٥] ما أنا إلا رجل من المسلمين.[٦] وخشية[٧] محمد ابن الحنفيّة عن أن يقول: «ثم عثمان» دليلٌ أنه كان يعتقد أن أباه يفضّل عثمان على نفسه. وقال ابن عمر رضي الله عنه: كنا في زمن النبي عليه السلام لا نعدل[٨]أحداً[٩] بأبي بكر[١٠]ثم عمر ثم عثمان.[١١] رضوان الله عليهم أجمعين. وكِلا[١٢] الروايتين مُثبَت في الصحيح. والأخبار الواردة في هذا الباب أكثر من أن تُحصَى. ودلائل أهل الحق في ترتيب فضائلهم وتفاوت منازلهم مُثبَتة في **شرح الأصول**، لا يُحتاج إلى ذكرها هنا.[١٣] فإن هذا الكتاب في تفضيل الأنبياء ومعرفة فضائلهم وتنزيههم /[١٢٦و] عما لا يليق بأحوالهم.

وقد ذكرنا بحمد الله ومَنّه وتوفيقه وتيسيره شرح أحوالهم وشرف مقاماتهم وطهارتهم عن أنجاس البشر وصفوتهم في مقام الاصطفاء والاجتباء تحصيناً لإيمان المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.[١٤]

والحمد لله رب العالمين والصلاة على خير خلقه محمد وآله الطيبين وسلَّمَ تسليماً كثيراً.[١٥]

---

١ ل: علي بن طالب.
٢ م: قال.
٣ ل - قلت.
٤ ل - من.
٥ م: قال.
٦ صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبي ٥.
٧ م: وخشيته.
٨ م: لا تعدل.
٩ ل - أحدا.
١٠ ل: بأبي بكر أحدا.
١١ صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبي ٧؛ وسنن أبي داود، الأدب ٧.
١٢ ل: وكلى.
١٣ م: ههنا.
١٤ سورة البقرة، ٢/٢٨٥.
١٥ م - والحمد لله رب العالمين والصلاة على خير خلقه محمد وآله الطيبين وسلم تسليماً كثيراً.
=

. . . .

= في نسخة ل زيادة: وقد تم عصمة الأنبياء بتوفيقه، رضوان الله عليهم أجمعين، على يدي العبد الضعيف إلى رحمة ربه اللطيف تاج محمود بن سليمان بن أبي بكر البارجيلغيّ في غرّة شهر ذي الحجة لسنة اثنين وخمسين وستمائة. غفر الله له ولوالديه ولأقربائه ولجميع المؤمنين والمؤمنات، اللهم آمين. وتنتهي نسخة م بهذه العبارة: تم كتاب المنتقى بحمد الله وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم. بلغ المقابلة بجهد الطاقة والإمكان على يد العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ عماد الدين إسماعيل، عفا الله عنه وغفر لوالديه.

الفهارس

فهرس الآيات

ك

م

ن

هـ

و

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة

ب

الحديث	الصفحة

ت

ج

ح

خ

د

ر

الحديث	الصفحة

فهرس الآثار

فهرس أسماء الأعلام والكتب والفرق والأمكنة

ب

ن

هـ

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المراجع

١ - **الآحاد والمثاني؛**
تأليف أبي بكر أحمد بن عمر الشيباني، تحقيق: باسم الجوابرة، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٢ - **إحياء علوم الدين؛**
تأليف أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، بيروت بلا تاريخ.

٣ - **الأذكار**
المنتخبة من كلام سيد الأبرار؛ تأليف أبي زكريا النووي، محيي الدين يحيى بن شرف الدمشقي، بيروت ١٩٧١م.

٤ - **الاستيعاب؛**
في معرفة الأصحاب؛ تأليف أبي عمر ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، بلا تاريخ.

٥ - **أسد الغابة**
في معرفة الصحابة؛ تأليف أبي الحسن ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، مصر ١٣٨٤هـ.

٦ - **أصول الدين؛**
تأليف أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي، إستانبول ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.

٧ - **الأعلام**
قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين؛ تأليف خير الدين الزركلي، بيروت ١٩٦٩م.

٨ ـ **إيضاح المكنون**
في الذيل على كشف الظنون لكاتب جلبي؛ تأليف إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي، تصحيح محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي، إستانبول ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.

٩ ـ **البداية في أصول الدين؛**
تأليف نور الدين أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني، تحقيق بكر طوبال أوغلي، أنقرة ١٩٧٩م؛ البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين، تحقيق الدكتور فتح الله خليف، الإسكندرية ١٩٦٩م.

١٠ ـ **تاج التراجم**
في طبقات الحنفية؛ تأليف أبي العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا، بغداد ١٩٦٢م.

١١ ـ **تاريخ التراث العربي؛**
تأليف الدكتور كارل بروكلمان، والملحق له، ليدن ١٩٣٨م.
(C. Brockelmann. Prof. Dr.; Geschichte der Arabischen Litteratur. Supplemenbant. Leiden 1938).

١٢ ـ **تأويلات القرآن؛**
تأليف أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندي، تحقيق: أحمد وانلي أوغلي وآخرون، مراجعة: الأستاذ الدكتور بكر طوبال أوغلي، إستانبول ٢٠٠٥ ـ ٢٠١٠م.

١٣ ـ **تأويلات القرآن؛**
تأليف أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، مخطوطة مكتبة سليم آغا ، تحت رقم ٤٠ .

١٤ ـ **تذكرة الموضوعات؛**
تأليف محمد بن طاهر بن علي الفتّني الهندي، بيروت، بلا تاريخ.

١٥ ـ **التعرف لمذهب أهل التصوف؛**
تأليف أبي بكر تاج الإسلام محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري، تحقيق الأستاذ محمود أمين النواوي، مصر ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

١٦ ـ **تفسير القرآن العظيم؛**
تأليف أبي الفضل عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

١٧ ـ **تفسير القرآن العظيم**

المسمى تأويلات أهل السنة؛ تصنيف أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي، تحقيق فاطمة يوسف الخيمي، بيروت ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١٨ ـ **تقريب التهذيب**؛

تأليف أبي الفضل ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت ١٣٩٥هـ.

١٩ ـ **تمييز الطيب من الخبيث**

فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث؛ تأليف عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني الأثري، بيروت ١٣٢٤هـ.

٢٠ ـ **تهذيب التهذيب**؛

تأليف أبي الفضل ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، حيدرآباد ١٣٢٥هـ.

٢١ ـ **جامع البيان**

عن تأويل أي القرآن؛ تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مصر ١٣٧٣هـ.

٢٢ ـ **الجامع الصغير**؛

تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(مع مختصر شرحه للمناوي)، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

٢٣ ـ **الجامع الكبير**

(أو جمع الجوامع)؛ تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مخطوطة مكتبة رستم باشا في إستانبول تحت رقم ٤٨ ـ ٥٤.

٢٤ ـ **جامع كرامات الأولياء**؛

تأليف الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق إبراهيم عطوه عوض، مصر ١٣٩٤هـ.

٢٥ ـ **الجواهر المضية**

في طبقات الحنفية؛ تأليف أبي محمد محيي الدين عبد القادر محمد بن محمد بن أبي الوفاء القرشي المصري، حيدرآباد ١٣٣٢هـ.

٢٦ ـ **الدر المنثور**
في التفسير بالمأثور؛ تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مصر ١٣١٤هـ.

٢٧ ـ **راموز الأحاديث؛**
تأليف ضياء الدين أحمد بن مصطفى بن عبد الرحمن الكُمُشْخانوي، إستانبول ١٢٧٥هـ.

٢٨ ـ **روض الرياحين**
في حكايات الصالحين الملقب بنزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر في حكايات الصالحين والأولياء والأبرار؛ تأليف أبي محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني، مصر ١٢٩٧هـ.

٢٩ ـ **سبل السلام**
في حكم آباء سيد الأنام؛ تأليف محمد بن عمر البالي المدني الحنفي، إستانبول ١٢٨٧هـ.

٣٠ ـ **سنن ابن ماجه؛**
تأليف أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه، القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٣٧٢هـ.

٣١ ـ **سنن أبي داود؛**
تأليف أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق عزت عبيد الدعاس (مع شرحه معالم السنن للخطابي)، حمص ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

٣٢ ـ **سنن الترمذي**
(أو الجامع الصحيح)؛ تأليف أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحمد عطوة، القاهرة ١٣٥٦هـ.

٣٣ ـ **سنن الدارمي؛**
تأليف أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، دمشق ١٣٤٩هـ.

٣٤ ـ **سنن النسائي؛**
تأليف أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي (بشرح السيوطي وحاشية السندي)، بيروت ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م.

٣٥ - **سير أعلام النبلاء**؛
تأليف أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي، بيروت ١٤١٣.
٣٦ - **السيرة النبوية**؛
تأليف أبي محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
٣٧ - **شرح العقائد**؛
تأليف سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (مع حاشية الكستلي في هامشه)، إستانبول ١٣١٦هـ. .
٣٨ - **الشفاء**
بتعريف حقوق المصطفى؛ تأليف عياض بن موسى القاضي اليحصبي، در سعادت (إستانبول)، ١٣١٢هـ.
٣٩ - **الشمائل الشريفة النبوية**
والخصائل الكريمة المصطفوية؛ تأليف أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، إستانبول ١٢٦٤هـ.
٤٠ - **صحيح البخاري**؛
تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي، تحقيق محمود النواوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد خفاجي، مكة المكرمة ١٣٨٦هـ.
٤١ - **صحيح مسلم**؛
تأليف أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مصر ١٣٧٤هـ.
٤٢ - **الطبقات الكبرى**؛
تأليف محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري، بيروت ١٣٨٠هـ.
٤٣ - **الطبقات الكبرى**
المسمى بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار؛ تأليف سيدي عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الأنصاري، مصر ١٣٠٥هـ.
٤٤ - **الفتح الكبير**
في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير؛ تأليف الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، بيروت ١٣٥١هـ.

٤٥ ـ **الفرق بين الفرق؛**
تأليف أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، بلا تاريخ.

٤٦ ـ **الفرق المتفرقة**
بين أهل الزيغ والزندقة؛ تأليف أبي محمد عثمان بن عبد الله بن الحسن العراقي الحنفي، تحقيق الدكتور يشار قوتلوآي، أنقرة ١٩٦١م

٤٧ ـ **الفصل في الملل**
والأهواء والنحل؛ تأليف أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٤٨ ـ **الفوائد البهية**
في تراجم الحنفية؛ تأليف أبي الحسنات عبد الحي محمد بن محمد اللكنوي الهندي، بيروت ١٣٢٤هـ.

٤٩ ـ **فيض القدير**
شرح الجامع الصغير؛ تأليف محمد عبد الرؤوف المناوي، بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

٥٠ ـ **كتاب التوحيد؛**
تأليف أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، تحقيق الدكتور فتح الله خليف، إستانبول ١٩٧٩م.

٥١ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون؛**
تأليف محمد علي بن علي التهانوي، إستانبول ١٣١٧هـ.

٥٢ ـ **كشف الخفاء**
ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس؛ تأليف إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، بيروت ١٣٥١هـ.

٥٣ ـ **كشف الظنون**
عن أسامي الكتب والفنون؛ تأليف كاتب جلبي، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، تصحيح محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي، إستانبول ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.

٥٤ ـ **الكفاية في الهداية؛**
تأليف نور الدين أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني، مخطوطة مكتبة لاله لي تحت رقم ٢٢٧١.

٥٥ ـ **كنز العمال**
في سنن الأقوال والأفعال؛ تأليف علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان الهندي. تصحيح الأستاذ حسن رزوق وصفوة السقا، حلب ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٥٦ ـ **اللآلئ المصنوعة**
في الأحاديث الموضوعة؛ تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، بيروت ١٣٩٦هـ.
٥٧ ـ **لباب النقول**
في أسباب النزول؛ تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (بذيل تفسير الجلالين)، دمشق ١٣٨٥هـ.
٥٨ ـ **مجمع الزوائد**
ومنبع الفوائد؛ تأليف نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر)، بيروت ١٩٦٧م.
٥٩ ـ **المستدرك**
على الصحيحين؛ تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري (مع تلخيص الحافظ الذهبي)، حيدرآباد ١٣٣٥ ـ ١٣٤٠هـ.
٦٠ ـ **المسند**؛
تأليف أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مصر، ١٣١٣هـ.
٦١ ـ **المصنوع**
في معرفة الحديث الموضوع؛ تأليف نور الدين علي بن سلطان محمد القاري، (وهو الموضوعات الصغرى)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٦٢ ـ **المطالب العالية**
بزوائد المسانيد الثمانية؛ تأليف أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الكويت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٦٣ ـ **معجم المؤلفين**
تراجم مصنفي الكتب العربية؛ تأليف عمر رضا كحالة، دمشق ١٣٧٦هـ.
٦٤ ـ **المعجم المفهرس**
لألفاظ الحديث النبوي؛ تصنيف الدكتور أ.ي. ونسنك، ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩.

٦٥ ـ **المعجم المفهرس**
لألفاظ القرآن الكريم؛ تصنيف محمد فؤاد عبد الباقي؛ مصر، ١٣٦٤هـ/١٩٥٤م.
٦٦ ـ **المغني**
عن جمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار؛ تأليف أبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (بذيل إحياء علوم الدين للغزالي)، بيروت، بلا تاريخ.
٦٧ ـ **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)؛**
تأليف أبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي، إستانبول ١٣٠٧هـ.
٦٨ ـ **مفتاح الصحيحين؛**
تأليف محمد الشريف بن مصطفى التوقادي، إستانبول ١٣١٣هـ.
٦٩ ـ **مفتاح كنوز السنة؛**
تصنيف الدكتور أ.ي. ونسنك، لاهور ١٣٩١هـ/١٩٧١م. (نقله إلى اللغة العربية محمد فؤاد عبد الباقي).
٧٠ ـ **المقاصد الحسنة**
في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة؛ تأليف أبي الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تصحيح عبد الله محمد الصديق، مصر ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.
٧١ ـ **الملل والنحل؛**
تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (بهامش الفصل لابن حزم)، بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
٧٢ ـ **مناظرات فخر الدين الرازي**
في بلاد ما وراء النهر؛ تأليف فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي التميمي، تحقيق الدكتور فتح الله خليف، بيروت ١٩٦٦م.
٧٣ ـ **المنتقى من عصمة الأنبياء؛**
تأليف نور الدين أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني، مخطوطة مكتبة لاله لي تحت رقم ٢٤٢٦.
٧٤ ـ **الموضوعات؛**
تأليف أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

٧٥ ـ **الموضوعات؛**
تأليف نور الدين علي بن سلطان محمد القاري، در سعادت (إستانبول)، بلا تاريخ.

٧٦ ـ **الموطأ؛**
تأليف مالك بن أنس (مع شرحه تنوير الحوالك للسيوطي)، مصر، بلا تاريخ.

٧٧ ـ **نتائج الأفكار القدسية**
في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية؛ تأليف السيد مصطفى بن محمد بن أحمد بن موسى العروسي، دمشق، بلا تاريخ.

٧٨ ـ **هدية العارفين**
أسماء المؤلفين وآثار المصنفين؛ تأليف إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي، إستانبول ١٩٥١ ـ ١٩٥٥م.